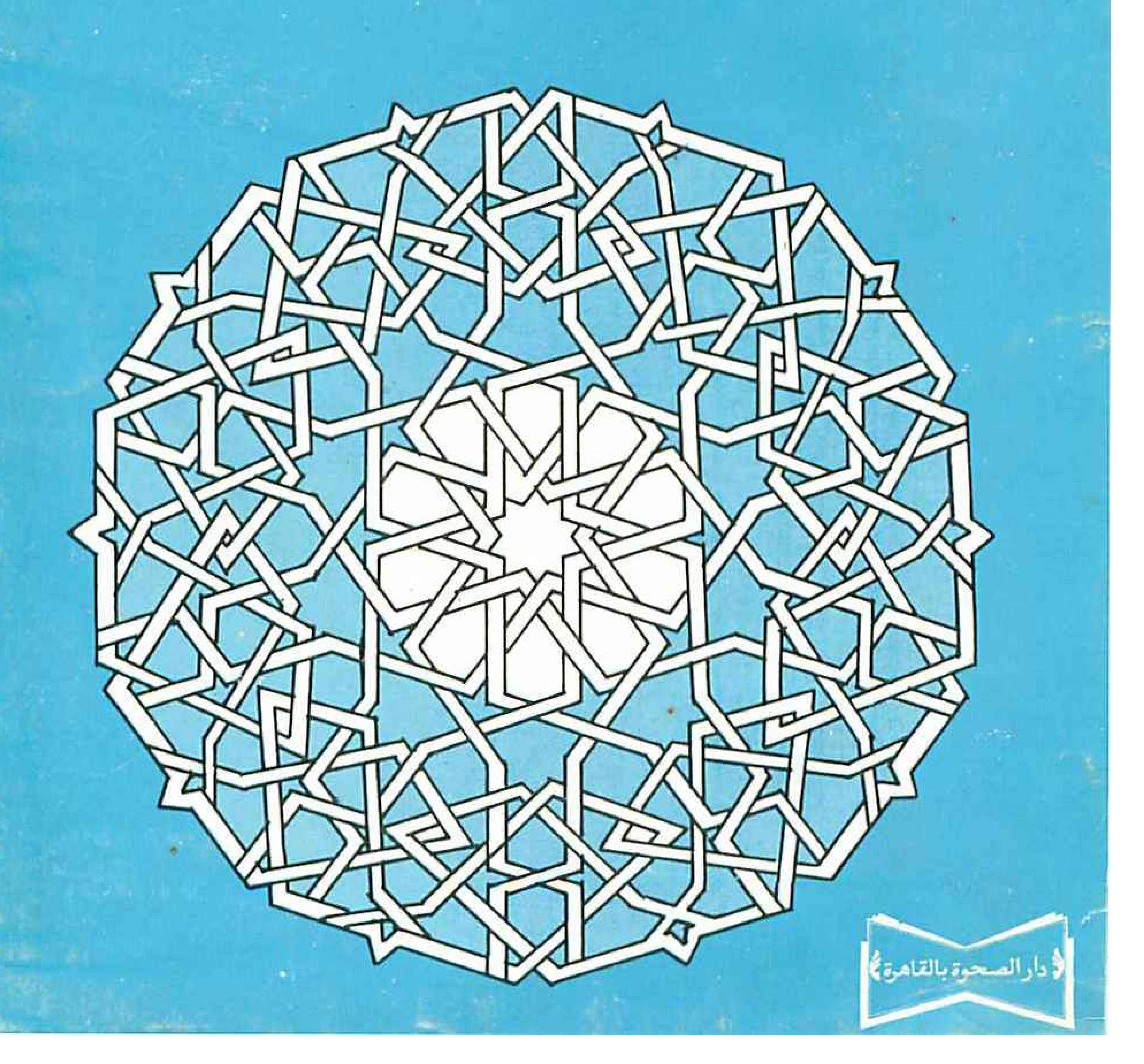
وحيد الدين خان

واقعنا ومستقبلنا في ضوء الإسلام

ترجمة د. سمير عبد الحميد ابراهيم



دار الصحوة بالقاهرة

وحيد الدين خـــان

واقعنا ومستقبلنا
فى ضوء الإسلام

الطبعـــة الأولى

واقعنا ومستقبلنا
في ضوء الإسلام

وحيد الدين خان

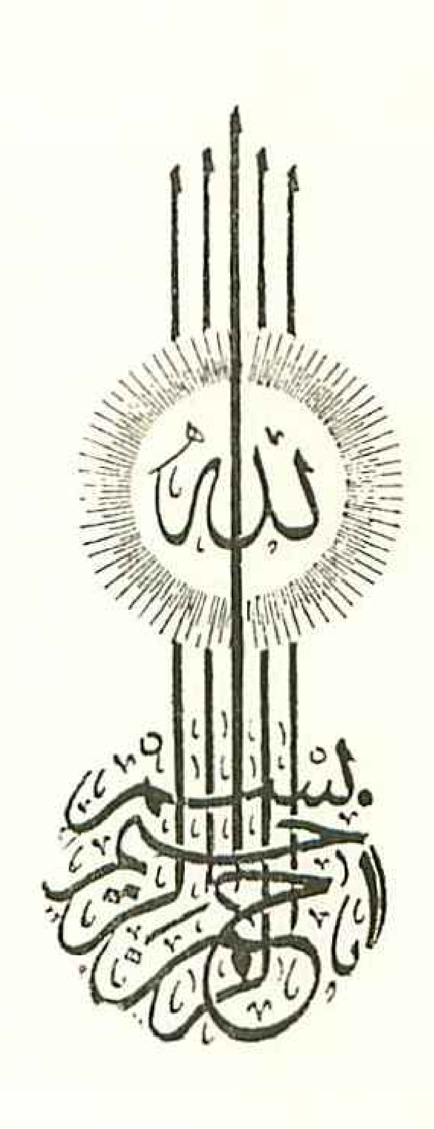
ترجمة : د. سمير عبدالحميد ابراهيم مراجعة : د. عبدالحليم عويس

الناشر

دار الصحوة

للنشر والتوزيع بالقاهرة

شارع جمال عبد الناصر بجوار عمارات المهندسين ــ حدائق حلوان


الله
بسم الله الرحمن الرحيم

الفهرس

مقــدمة المؤلف	٩
حقيقة الدين	١٢
شــهادة الحق	٣٠
الأركان الأربعــة	٣٩
الصراط المســتقيم	٧٦
الصراط المستقيم فى السلوك الفردى	٨١
الصراط المستقيم الإجتماعى	٨٦
أسس النصر وقواعده	٩٥
منهج الدعوة إلى الإسلام	١٠١
الدين الكامل كيف يتحقق	١٠٩
الإســلام فى كشمير	١١٣
السيرة النبوية النموذج الأعلى للحركة الإسلامية	١١٧
الإخراج من القبيلــة	١٤٤
إنتصــار الإســلام	١٥٨
الحركات الإسلامية فى العصر الحديث	١٦٨
بنــاء الأمــة	١٨٩
الدعــوة إلى الله	٢٠٥
الإمكانيــات الجــديدة	٢٤٠
خاتمــــة	٢٦٤

في قصة لروائى جنوب افريقيا المعروف (اولفير شراينر) (١٨٥٥ — ١٩٢٠ م) ، بعنوان (حكاية مزرعة افريقية) ترد حكاية صيد يرويها مسافر أجنبى لصبى فلاح ، وقد تمثل ذلك « الصيد » فى البحث عن « طائر الصدق » الأبيض الجميل الذى كان قد رآه للحظة خاطفة على شاطىء بحيرة ، فأراد أن يوقعه داخل شرك الاعتقـاد الطيب — فى قفص تصوراته ، الا أنه عرف أن الصـدق يمكن نيله بالصدق فقط ، فترك وادى الأوهام ، وبدأ الصعود فوق جبل الصدق وظل يصعد ويصـعد حتى وقف أمام صخرة عالية تعترض طريقـه ، فبدأ يحفر فى الصخرة ... يصنع سلالم وأدراجاً . ويظل يصنع تلك السلالم والأدراج سنة بعد سنة حتى أصابته الشيخوخة وهده الهرم .. وحينئذ وصل الى قمتها ، الا أنه أدرك بعد ذلك أن أمامه صخرة أخرى تفوق الأولى فى علوها وارتفاعها بينما عمره الآن قد وصل الى نهايته ، ففارق الحياة عند هذا الحد .

وفى سكرات موته سقطت عليه ريشة بيضاء من جناح الطائر ، فتأكد حينئذ أن الطائر الذى يقصده يقف هناك عند الصخرة التالية ، ومع أنه لم يستطع الوصول الى طائر (الصدق) بنفسه الا أنه أسلم الروح مطمئنا لأن الجيل الذى يليه لن يضطر الى بنـاء السـلالم والأدراج السابقة ، وسوف يتمكن هذا الجيل من أن يمسك جناح الطائر بيده ، ومات الشيخ وهو يقول :

« ... حيث أرقد ، وقد هدنى الضعف وحطمتنى الشيخوخة ، سيقف رجال آخرون ، شـباب قوى ، تملؤهم النضرة والحيوية ، سوف يصعدون الدرجات التى صنعت ، لن يعرفوا اسم الرجل الذى

صنع هذه الدرجات ، ولكنهم سوف يصعدون ، وعلى سلمى سيصعدون ... وسوف يجدون الصدق ، ومن خلالى سيجدونه » .

(أوليفر شراينر : قصة مزرعة أفريقية)

لم أجد ما هو أفضل من السطور السابقة لأعبر بها عن قيمة هذا الكتاب الذى أقدمه للقراء الكرام .

لقد ولدت — على وجه التقريب — فى الأول من يناير ١٩٢٥ م . وقد انتقل والدى فريد الدين خان رحمه الله إلى الرفيق الأعلى فى ٣٠ ديسمبر ١٩٢٩ م حين كنت فى الخامسة من عمرى فقط . بعدها تلقيت تعليما وتربية خاصة فى بيئة مدينة (أعظم كره) تميزت بما فيها من تقاليد دينية ، واضطرتنى ظروفى إلى أن انظر إلى كل شىء نظرة فاحصة ودقيقة ، وحين وصلت إلى مرحلة الإدراك ، عرفت أن الدين الذى حكم والأفكار الإنسانية وسيطر عليها لألف سنة فى « العصر القديم » ، قد أصبح مستضعفاً من كل ناحية فى « العصر الجديد » فظهرت بداخلى عاطفة تدفعنى لأبحث فى هذه القضية . فبدأت القراءة والمطالعة بانتظام .

ويظن معظم الناس أننى من خريجى الجامعة ، إلا أن الحقيقة هى أننى قضيت جميع مراحل تعليمى داخل المدرسة العربية فقط . وبعد أن انتهيت من الدراسة بالمدرسة العربية ، تعلمت بنفسى اللغة الانجليزية . ونتيجة لقراءتى لهذه اللغة وكتبها قراءة مستمرة ، ساد الأسلوب الجديد طريقتى فى الكتابة فبدأ الناس يعتقدون أننى لم أدرس بالمدرسة العربية وأننى تلقيت تعليمى على النهج الغربى ، والحقيقة اننى بالمعنى الاصطلاحى للتعليم فى الهند (مولوى) (أى شيخ فقيه) .

وقد شكل تعليمى أو بمعنى أدق شكلت الخلفية الفكرية التى واكبتنى طوال سنى تعلمى مدرسة تعليمية تقليدية — على الأقل — إلا أنه من الواضح أن هذا الأمر لم يكن كافيا لفهم الإسلام فيما يتعلق بالعصر الجديد ، ومن هنا وفى سنة ١٩٤٨ م اتخذت قراراً جديداً ، فحاولت من ناحية أن أتعرف على الأفكار الجديدة من مصادرها المباشرة ، ومن ناحية أخرى بدأت قراءة القرآن والحديث والعلوم المتصلة بها لفهم الإسلام من البداية ، وإذا كانت السنوات الخمس والعشرون الأولى فى حياته قد انقضت فى الدراسة والتعليم فان الخمس والعشرون سنة التالية قد انقضت فى البحث والمطالعة . وحين تنقضى الخمسون سنة الآن ، فيسرنى أن اقدم هذا الكتاب الذى يعد نتاج بحث طويل !!

وإذا كنت بهذا قد صنعت أدراج أو سلالم الصخور النظرية فإن أمامى جبلا آخر ، وقد وجب الآن أن تتحرك مهمة الإسلام بصورة عملية فى ضوء الحقائق المكتشفة .

لكننى أشعر أن طاقتى قد ضعفت ، فقد عجل بشيخوختى جهاد الماضى الشديد قبل الأوان ، إذ قضيت عمرى كله فى صنع « السلالم النظرية » فكيف لى أن اصنع « السلالم العملية » ويكفينى أن أشعر بالاطمئنان ، لأننى قد اكتشفت (الصدق) على الأقل بطريقة فكرية .

فلعلى أموت وأنا أقول إن من بعدى جيلا لن يضطر إلى صنع السلالم السابقة ... » !!

وحيد الدين

(١٣٩٥ هـ) (١٩٧٥ م)

حقيقة الدين

العبـــــادة :

ما يريده الله من عباده يتمثل أصلا فى العبادة :

« وما خلقت الجن والإنس إلا ليعبدون » .

(الذاريات ــ ٥٦)

هــذه الآية وآيات أخرى متشـــابهات توجد بكثرة فى القرآن الكريم ، وهى الآيات التى جــاء فيها أن الرســل انما بعثوا ليطلعوا الإنسان على مسئوليته هذه (النحل ٣٦) [1] . وهذا الأمر على درجة من الأهمية حتى ان الإنسان إذا لم يجد الفرصة لعبادة الله فى وطنه ، وجب عليه أن يترك هذا الوطن وينتقل إلى وطن آخر (النساء ٩٧) [2]

والمفهوم اللغوى للعبادة هو أن تخضع وأن تذل (أصل العبودية الخضوع والتذلل ــ لسان العرب) والمفهوم اللغوى للعبادة هو نفسه المدلول الشرعى لها أيضا ، وقد كتب أبو حيان الأندلسى يقول :

« العبادة التذلل ، قاله الجمهور » .

(البحر المحيط ــ المجلد الأول ص ٢٣)

ولهذا استعمل لفظ « الاستكبار » للسلوك المقابل للعبـــادة ــ قال تعـــالى :

---

(١) يقصد المؤلف قوله تعالى : « ولقد بعثنا فى كل أمة رسولا أن اعبدو الله » . المراجــع) .

(٢) يقصد المؤلف قوله تعالى : « ان الذين توفاهم الملائكة ظالمى أنفســهم قالوا فيم كنتم قالوا كنا مستضعفين فى الارض قالوا الم تكن أرض الله واسعة فتهاجروا فيها » المراجــع) .

« إن الذين يستكبرون عن عبادتى سيدخلون جهنم داخرين »
(المؤمنون — ٦٠)

ومع أن أصل مفهوم العبادة هو الخضوع والتذلل إلا أن هذا اللفظ حين يقال لله فهو يشمل أيضا مفهوم المحبة . يكتب ابن كثير :

« العبادة فى اللغة من الذلة ، يقال طريق معبد وبعير معبد أى مذلل ، وفى الشرع عبارة عما يجمع كمال المحبة والخضوع والخوف » .
(تفسير القرآن — المجلد الأول ص ٢٥)

وهذه ألفاظ الامام ابن تيمية :

« لفظ العبودية يتضمن كمال الذل وكمال الحب » .

(رسالة العبودية ص ٢٨)

وكتب الحافظ ابن القيم :

« العبادة تجمع أصلين : غاية الحب بغاية الذل والخضوع » .

(تفسير ابن القيم ص ٦٥)

فالهدف الاساسى من العبادة هو الخضوع لله والتذلل له ، وذلك ما عبر عنه القرآن الكريم بالكلمات التالية : « خشية ، تضرع ، إخبات ، انابة ، خشوع ، خضوع ، قنوت » وغيرها من لكلمات ، فعبادة الله تعنى أن تسلم نفسك وتخضع لله إلى اقصى درجة ، ثم أن هذا العمل الذى يمثل العبادة لا يتم أمام ظالم وجبار بل أمام رحمن رحيم ، له علينا حسنات وفضائل لا نهاية لها ، ومن هنا وجب اظهار عظمة الحب داخل هذا الخضوع والتذلل بصورة ضرورية . فالعلاقة بين العبد والرب هى علاقة خضوع وتضرع بحب شديد يفوق كل حب . وفى الوقت نفسه حين يرتعد العبد من شدة الخوف ، تتسكب

الدموع من عينيه حين يتصور الله أمامه ، وفى الوقت نفسه يكون فى حالة تجعله يهب لربه أحسن وأطيب عواطفه ، فهو يتطلع إلى الله باشتياق يفوق كل اشتياق ، ويضع نفسه داخل كيفية سامية عالية من الحب الملىء بالألم ، فالتضرع والتذلل لله هو بلا شك انما يكون من الخوف منه خوفا لا يدانيه خوف ، إلا أنه ليس خوفا من النوع الذى يشعر به الإنسان حين يرى شيئا مخيفاً بل هو فى الأصل عاطفة لا يمكن التعبير عنها — بطريقة صحيحة تماما — بأى لفظ آخر . فهذه حالة تنتج من امتزاج محبة الله بخشية الله وفيها لا يمكن للانسان أن يرجح إحداهما على الاخرى ، فهذا مقام للمحبة والخوف يلجأ فيه الإنسان إلى من يخشى ويخاف ، فهو يشعر بخطر هناك فى مصفاة الماء إلا انه يضع امله فى الحصول على الماء فى هذه المصفاة ، فهذا نوع من الاضطراب كله اطمئنان ، ونوع من الاطمئنان كله اضطراب .

ومن المعروف أن العبادة من حيث حقيقتها الأصلية هى أمر حسى وليست مظهراً خارجياً ، والإنسان فى النهاية هو وجود حسى . ومن هنا تصبح العبادة للانسان فى شكلها الأخير أمراً حسياً وليست مظهراً خارجيا ، وقد صرح الحديث الشريف أن (التقوى) هى اسم لحالة فى القلب (التقوى ها هنا — البخارى)

ويقرر القرآن الكريم أن التقوى انما تنتج من العبادة :

« يا أيها الناس اعبدوا ربكم الذى خلقكم والذين من قبلكم لعلكم تتقون »

(البقرة — ٢١)

والعبادة من ناحية مظهرها الخارجى هى اسم للخضوع للرب ، ومن ناحية حقيقتها الداخلية هى اسم لهذا الإدراك العميق ، حين يذوب العبد فى ربه حتى تطرأ عليه حالة يشعر فيها أنه أمام الله .

« تعبد الله كأنك تراه »   (البخارى من المشكاة كتاب الايمان)

وطبقا لحديث الرسول ﷺ ، فان أسمى العبادات هى أن يذوب العبد فى ذكر الله وفى تصوره له حتى يشعر أنه قريب منه ، ومن هنا تطرأ على العبد حالة من الاستحضار وكأنه يرى الله ، وحالة القرب هذه هى أسمى مقامات العبادة قاطبة ، فجميع الأعمال التى يطلق عليها اسم مناسك العبادة أو مراسم العبادة هى كلها طرق للوصول الى هذه العبادة ومظاهر ضرورية لها ، قررها رب العباد ، فاذا قام شخص ما وادعى أنه يعبد الله بدون هذه المظاهر أو يعبد الله خارج حدودها فهو كاذب فى دعواه ، لأنه بدونها لا يمكن — حقيقة — أن تنبت شجرة العبادة داخل الإنسان ، فاذا كان الإنسان فى الواقع إسما لهذه الروح الخاصة التى لا يمكن أن نشاهدها ، فإن هذه الحقيقة قائمة أيضا وهى أنه لا يمكن أن نتصور الوجود الإنسانى فى هذه الدنيا بدون الجسم الإنسانى .

ومع أن كلمة العبادة تضم من هذه الناحية الشريعة بأكملها ، لأن ما يقوم به العبد لإرضاء معبوده ولأداء أوامره وأحكامه ترجع دوافعها إلى عاطفة العبودية ، إلا أن العبادة هى أساساً وأصلا اسم لهذا العمل الخاص الذى يتم بين العبد والرب . والعمل الذى يتم بين العبد والعبد هو من مستلزمات العبادة ، بينما العمل الذى يتم بين الرب والعبد هو بذاته عبادة ، فالعبد حين يقيم الصلاة يكون مشغولا بعبادة الله مباشرة ، فهو حين يسجد لله لا يوجد هناك وجود ثالث يحول بينه وبين الله ، وعلى العكس من هذا فحين يقوم العبد بتنفيذ الأحكام الإلهية فيما يتعلق بالأخلاق والمعاملات فهو يطبق مستلزمات أمور العبادة على الأخرين . ومن ناحية التطبيق فالأمر يستلزم أيضا وضع الفرق بين النوعيات فى الأذهان كما هو فى أعمال العبادات وإلا فلا يمكن

أن ينشأ فى ذهن الإنسان التصور الصحيح للدين ، لأن المستلزمات تكون مطلوبة دائما لشىء آخر بينما الحقيقة أمر مطلوب مطلقاً .

وعلى سبيل المثال اذا ما قيل إن من مستلزمات المسلم أن يقسم أموال الميراث طبقاً لقانون الله ، فهذا لا يعنى أن يقوم كل رجل بالضرورة بمحـاولة القيام بهـذا . وأن تكون لديه بعض الممتلكات ليقسمها بالتساوى بين أصحاب الحق فيها ، وذلك حتى يتمكن من تنفيذ حـكم الميراث ، والا فلن يكتمل دينه ، بل أن الهدف هنا فقط انما يعنى أنه اذا نال مسلم ممتلكات فى تركة ما أو فى مال ما حينئذ يفرض عليه ايمانه واسلامه أن يتصرف فيها طبقا لأحكام الميراث الإسلامية . فهذه الفريضة التى تتعلق بتقسيم ما يحصل عليه المسـلم من ميراث ليست مثل عبادة الله التى تجب على كل شخص على الاطلاق .

ويفهم من هذا الشرح الخاص بالعبادة ان ما يتعلق بمحبة الله والخوف منه ليست مجرد « محرك » للحياة العملية بل هو أمر مطلوب فى حد ذاته وهو الهدف الأصلى الذى من أجله خلقنا فى هذه الدنيـا . فجميع الأعمال والأفعال هى وسيلة للحصول على الإدراك الحسى الذى يعبر عنه بالتعلق بالله والوصول إلى الله ، وبالفاظ أخرى إن ما بيننـا وبين الله ليس فقط عـلاقة فرض ذهنى من نوع خارجى (أى نقوم بعمل ما أكثر من مرة فيرضى عنا الله فى السماء) بل أكثر من هذا أن تقوم بيننا وبينه علاقة مباشرة وسلوك العبودية فى شكله الظاهرى هو تطبيق للحكم ولكن من ناحية الحقيقة هو فى الأصـل ينقل العبد إلى مقام يستطيع فيه إن يلتقى مع ربه ، يناجى ربه ويشعر باحساس يشعر من خلاله أنه يقف دائماً على باب ربه الذى وسعت رحمته كل شىء .

وهكذا يحس المسلم بوجود لله فى الحياة الدنيا هذه هى الحقيقة العايا للدين .

وهدف الأحكام والآداب كما هى الوصول بالإنسان إلى هـذا المقام ، وهكذا من أدرك وجود ربه فى الدنيا فسوف يجده أيضا فى الآخرة . ومن حرم من ادراكه فى الدنيا فلا يجوز له أن يأمل فى إن ينال نعمة لقاء الرب فى الآخرة أيضاً .

ما هى كيفية الوصول إلى (ثروة) الدين هذه ؟ أن معرفة هذه الثروة والوصول اليها يتحقق إذا ما بدأ الناس فى الوصول إلى « رزق الله » (طه — ١٣١) (١) ومن الواضح أن ما تقوم به من عمل فى سبيل تنفيذ أحكام الله داخل فى محض اختيارك ، فإن شئت فعلته وان شئت لم تفعله ، ولكن ما يطرأ عليك من أحوال ومشاعر داخلية أثناء التطبيق لا يدخل فى نطاق اختيارك فأنت نفسك لا يمكن أن تنشىء هذه المشـاعر ...

إذن من أين تأتى هذه الأحوال والمشاعر . أنها أساساً تأتى من الله ، وهى رزق المؤمن الذى بدونه لا يمكن أن تظل شخصيته الإيمانية حية باقية ، هذا هو « رزق » العلم والعمل الذى وجد داخل ذات مريم عليها السلام فسألها نبى ذلك الزمان : « أنى لك هذا ؟ » فأجابت : « **هو من عند الله** » (آل عمران ٣٧) . ان محاولاتك هى عملك ، وهذه المشاعر والأحوال هى الثمرة التى تنالها من الله جزاء حسن العمل ، فالله لا يعطى نعمته قرضا بل يعطيها نقدا ، والعبد المؤمن يجد هـذه

---

(١) المقصود قوله تعالى : « ورزق ربك خير وابقى » (المراجع) .

النعمة فى الوقت الذى يستحقها فيه ، فحين يقبل الله منا عملا ما تطرأ علينا واردات ملكوتية بطريقة محيرة ، ومع أن الجنة التى وعد الله تعالى بها المؤمنين الصالحين جاءت فى شكل روائح الجنان يجدها أهل الإيمان فى الدنيا ، ومع أن الكيفيات التى تطرأ على المؤمن تأتى فى شكل شوق شديد وقلق إلا أنها ألذ من كل اللذات ، ولا يمكن أن تقاس عليها أية لذة دنيوية معروفة ، وهذه حقيقة ثابتة بالحس الوجدانى . أى أن هذه المشاعر والأحوال والواردات هى صورة لأعظم النعم الالهية التى يعبر عنها بالجنة كما علمنا القرآن الكريم أن المؤمنين سينالون الجنة فى الآخرة ، وهى بالنسبة لهم رزق معلوم (الصافات — ٤١) (١) ، وهى بالنسبة لهم ليست شيئا غريبا عنهم بل هى شىء معروف لديهم تعرفوا عليه فى الدنيا :

« ويدخلهم الجنة عرفها لهم » (محمد — ٦)

يروى عن أبى سعيد الخدرى أن النبى ﷺ قال :

« والذى نفسى بيده إن أحدهم بمنزلة فى الجنة أهدى منه بمنزله الذى كان فى الدنيا » . (أخرجه البخارى فى صحيحه)

وحين يوفق الإنسان فى التصديق على روح قوله تعالى :

« الذين يؤتون ما آتوا وقلوبهم وجلة » (المؤمنون — ٦١) وحين يوفق الإنسان فى الحصول على نصيب من هذه التلاوة التى تصور قوله تعالى : **« ترى أعينهم تفيض من الدمع** (المائدة — ٨٦) ، وحين يقضى ليله فى اشتياق إلى ربه ، تلك الليالى التى جاء ذكرها فى **القرآن بقوله تعالى : « تتجافى جنوبهم عن المضاجع »** (السجدة ١٦) ، وحين تمر عليه لحظات من الحرقة المؤلمة التى يدرك فيها حقيقة

---

(١) المقصود قوله تعالى : « الا عباد الله المخلصين أولئك لهم رزق معلوم » .

قوله تعـالى : « **والذين آمنوا أشد حبا لله** » (البقرة — ١١٥) وحين ترد عليه أرق احساسات الإيمان ، وحين لا يكون بينه وبين الحقائق أى ستار ، وحين يناجى ربه بقلب لا قرار له ، وشفاه مرتعدة تنطق بألفاظ ملهمة لم يفكر فيها من قبل ، هذا هو فى الأصل « رزق الله » الذى يمنحه للمؤمن ، فهو يتذوق حلاوة الثمار التى حفظها الله له فى الدنيا واسمها (المشاعر والأحوال والواردات الإيمانية) ، وحفظها له فى الآخرة فى شكل نعيم الجنة ..

وفى ذلك الوقت سيشعر أهل الإيمان أن هذا النعيم هو الذى ذاقوا حلاوته فى الحياة الدنيا : « **كلما رزقوا منها من ثمرة رزقا قالوا هذا الذى رزقنا من قبل وأتوا به متشابها** » .

(البقـرة — ٢٥)

وما يناله أهل الجنة فى الآخرة هو عطاء متشابه ، وهو شىء معروف ومعلوم للمؤمن .. فأى جهل هذا الذى يصيب شخصا يعتقد أنه سيتذوق فى الآخرة شيئا ظل يجهله فى الحياة الدنيا ، فاذا لم ترد عليك فى الدنيا مثل هذه اللحظات واللمحات التى تشعر فيها انك بنفسك اقرب الى الله من أى شىء آخر ، فكيف تنال هذا القرب فى الآخرة ، وبلا شك فإن المصلين سينعمون فى الآخرة نتيجة لثواب الصـلاة وأجرها إلا أن هذه النعمة هى جزء مما تعرف عليه المصلون فى الدنيا وهو ما أشار اليه رسول الله ﷺ : (جعلت قرة عينى فى الصـلاة)

(النســائى)

مسـتلزمات العبـادة :

ان ما يطلبه الله تبارك وتعالى من الإنسان أولا وأخيراً هو أن يخضع له هذا الانسان ويطيعه ويسلم له نفسه ، وهذا ما يطلق عليه

العبادة ، إلا أن الإنسان لم يخلق فى فراغ بل خلق فى دنيا مليئة بالأحداث . ولهذا فمن الضرورى أن يعلن عن عبوديته من خلال جميع هذه الجوانب التى يتعامل معها فى هذه الحياة الدنيا ...

١ — **الجانب الأول :** هو الجانب الذى يتعلق بذاته ، فاذا ما صادفته بعض مشكلات الحياة فى اطار مشاغل الحياة العديدة كان بوسعه أن يسلك طريقين اثنين : الطريق الأول طريق الله ، والطريق الثانى طريق النفس وعبادة الباطل . ولكن المسلم سوف تجبره عاطفة العبودية على أن يترك الطريق الثانى وأن يختار لنفسه الطريق الذى أرشده إليه الله ، فكما يسجد لله سجوداً حسياً عليه أن يسجد له أيضا فى وجوده ومسلكه العملى ، هذا هو مظهر العبادة الذى يتجلى بالنسبة لذاته هو ، والاسم الثانى الذى يطلق على هذا السلوك هو « الطاعة » وأماكن هذه الطاعة فى البيت ، وفى السوق ، ومجلس الشورى ، وجميع الأماكن ، حيث يواجه المؤمن الصورة السابقة ، وتواجهه مسألة الاختيار بين الطريق الربانى والطريق غير الربانى .

٢ — **الجانب الثانى :** هو الجانب الذى يتعلق بالعالم الخارجى أو بألفاظ أخرى يتعلق بغير المسلم . فعلى وجه هذه البسيطة يوجد أناس يعيشون عليها لا تربطهم بربهم آية علاقة حتى الآن وعليه فهم يتجهون ناحية نهاية أخروية خطيرة ، وهذا الموقف الصعب يفرض على العبد المؤمن أن يحاول جذبهم إلى طريق العبادة الذى اختاره لنفسه ، وهذا هو أحد مظاهر العبادة الذى يتضح للناس عامة ، والاسم الثانى الذى يطلق على هذا العمل هو : الشهادة أو التبليغ ، فما هو مطلوب من أهل الإيمان أنفسهم هو الطاعة (تنفيذ الأحكام) والمسئولية التى تقع على عاتقهم تجاه غير المسلمين هى : التبليغ .

ولنأخذ الآن المظهر الأول من العبادة وهو « الطاعة » وينقسم هذا المظهر إلى قسمين أساسيين : انفرادى واجتماعى • والمقصود بالطاعة الانفرادية ، طاعة الله فى تلك الأمور التى تتعلق بحياة أهل الإيمان الذاتية • وتندرج هنا جميع الأحكام التى قدمت فيما يتعلق بالأخلاق والمعاملات ، وعلى سبيل المثال : قول الصدق ، الوفاء بالوعد ، أداء الأمانة ، العدل والانصاف ، التواضع ، الوزن بالقسط ، أداء الحق لأصحابه ، معاملة الجميع بالنصح ، وخلاصة القول أن الإنسان لا يمكن أن يتخذ قراراً ذاتياً فى كل ما يتعرض له من معاملات ذاتية ، وتنفيذ الارشادات الالهية فيما يتعلق بهذه الأمور ، يطلق عليه الطاعة الانفرادية ، ولا يجوز لأى مسلم اذا ما عرف حكم الله فى أمر ما أن ينحرف عن تطبيق هذا الحكم •

« وما كان لمؤمن ولا مؤمنة اذا قضى الله ورسوله أمرا أن يكون لهم الخيرة من أمرهم ، ومن يعصى الله ورسوله فقد ضل ضلالا مبينا »
(الأحزاب — ٣٦)

هذه الطاعة (الفردية) هى حق واجب لله على كل مؤمن ، ولا يمكن أن يعد الإنسان عابداً لله ما لم يطبق تلك الأحكام ، فى حياته العملية ، التى فرضها الله عليه فى أحواله وأعماله • ومع أن « العبادة » من ناحية مضمونها الداخلى اسم لحالة داخلية ، فانه مطلوب من الناحية الخارجية أن يجعل الإنسان ظاهرة كله فى طاعة الله بصورة كاملة ، وان يجعل سلوكه الخارجى تابعا كلية للخريطة التى رسمها الله ، وواجب كل مؤمن ومؤمنة أن يتعامل مع جميع الأمور السابقة التى تعترضه فى حياته الدنيا بأسلوب نابع تماما من طاعته لله ، وأن يترك اتباع جميع الرغبات والأهواء الأخرى :

« يا أيها الذين آمنوا ادخلوا فى السلم كافة ولا تتبعوا خطوات الشيطان إنه لكم عدو مبين »

(البقــرة — ٢٠٨)

والأحكام التى اخترنا أن نضع لها عنوان « الطاعة » يمكن أن نطلق على القسم الثانى منها الأحكام الاجتماعية ، وهى تلك الأحكام التى لا ينحصر تطبيقها فى مزاج المؤمن ، ولكنها تطبق حين يكون المجتمع بأكمله مستعداً لتطبيقها ، وهذا هو السبب فى أن هذه الأحكام نزلت دائما فى الوقت الذى كان المؤمنون يقيمون تنظيمهم السياسى • وهذا النوع من الأحكام أو القوانين الاجتماعية يمكن أن تنفذ بالقوة •

والمخاطب هنا فيما يتعلق بأحكام الشريعة الاجتماعية هو المجتمع المسلم المستقل وليس أفراد المؤمنين المتفرقين •

ونحن نشاهد فى تاريخ بنى اسرائيل أنهم حين كانوا تحت السيطرة القبطية فى مصر ، لم تقدم لهم الاحكام القانونية للتوراة ، ولكن حين خرجوا من مصر ووصلوا إلى صحراء سيناء ثم أصبحوا جماعة حرة مستقلة ، حينئذ وصلتهم القوانين من عند الله (الخروج ١٥ : ٢٥) ونفس هذه الصورة وقعت عند العرب ، ففى العهد المــكى حين كان المؤمنون أقلية غير مستقلة نزل عليهم الجانب الأصولى من الشريعــة الذى لم يكن تنفيذه يحتاج إلى سلطة اجتماعية فكل مســلم له حرية اتباع هذا الجانب فى حياته بمحض قراره الخاص ، هذا بالاضافة إلى نزول بقية الشرائع تدريجيا ، وقد نزلت الارشادات التفصيلية المتعلقة بالحياة الاجتماعية فى المدينة حين أصبحت للمسلمين أرض يعيشــون عليهــا •

إن ترتيب نزول هذه الأحكام يدل على أن ما يفرض على المؤمنين ويشرع لهم من الدين فى الأحوال العامة هو ذلك القسم فقط الذى

مرص قبل زمن الاستقلال ، بالاضافة إلى هــذا فإن تطبيق بقيـه الاحكام يكون واجبا ومفروضا حين يمتلكون زمام السلطة والحكم . وحينئذ يكون من الضرورى تطبيق الاحكام الواجبة فى مثل هـذه الظروف ، ونزول الأحكام الشرعية واتساع دائرتها تدريجيا يـدل على ان هذه الاحكام ليست واجبـة على اطـلاقها بل هى واجبـه بما يتناسب مع الظروف (١) وتحديدها يكون دائما خاضعا للظروف الواقعية للفرد او الجماعة التى تخاطبها الشريعة ، والحقيقة أن المخاطب بالاحكام الحضارية والاجتماعية هم مجموعة المؤمنين المطالبين بتطبيق هذه الأحكام بصورة عملية .

فلم يصدر حكم للمسلمين الذين لا يتمتعون بالحرية الكاملة يأمرهم بتنفيذ الأحكام الدينية على نطاق اجتماعى وعلى مستوى الدولة . فتطبيق الأحكام هو مطالبة عملية ، ومثل هذه المطالبة تصدر فقط إلى اولئك الناس الذين سبق لهم اقرار ذلك ويمكن ان يتم فعلا طبقــا لاستطاعتهم ، فالأصول الواضحة للشريعة هى انه « لا يكلف الله نفسا إلا وسعها » (البقرة ــ٢٨٦) أى لا يكلف أحد بمسئولية عمل إلا إذا كان ذلك فى « وسعه » فالله لا يكلف أحداً فوق « طاقته » ، ولهــذا فلا يمكن أن يكلف الله المؤمنين بالالتزام بأحكام لا يمكن تنفيذها . ولو وضع شخص ما أحكام الشريعة كلها أمامــه وادعى أن المؤمنين مكلفون بهذه الأحكام فى جميع الظروف ، أى أن عليهم واجب تطبيق فهرس الأحكام الشرعية كلها على الأرض فهو كالشخص الذى يستند على قوانين الزكاة جميعها ، ويقول بأن على كل مسلم مسئولية تنفيذ

---

(١) لا يعنى هذا ما يروجه بعض المرتدين بشأن تعطيل الاحكام الشرعية ، بل يعنى هذا أن تطبيق الشريعة يجب تطبيقه فى اطار الممكن وليس المستحيل .. فالمسلمون فى الهند (بلد المؤلف) عاجزون ــ حاليا ــ عن تطبيق الشريعة على الهنود .. لانهم لا يحكمون ، ومستضعفون .. وهذا بخلاف غيرهم من الدول الاسلامية التى تصر على أنها مستقلة ، وأنها اسلامية ولا تطبق الشريعة (المراجع) .

الأحكام الخاصة بجميع اقسام رأس المال فيما يتعلق بأموال الزكاة .
وعليه فيجب على كل مسلم أن يمتلك جميع ما جاء فى القسم الخاص بالأموال حتى يمكنه أداء جميع الفرائض التى جاءت تحت عنوان الزكاة فى حياته الدنيا .

فاحكام الدين هى — من ناحية الشكل — متشابه جميعها ، لكن هذه الاحكام الخاصه بنا ليست متشابهة ، فالقرآن يأمر « باقام الصلاة » ويامر « بأداء الزكاة » والحكمان متشابهان معا فى الظاهر، وهما فى صيغة الأمر ، إلا أن الأحكام الخاصة بنا ليست متشابهة فى كل منهما ، فحكم الصلاة هو حكم مطلق واجب التنفيذ على كل مسلم ومسلمة ، بينما حكم الزكاة مشروط بشرط النصاب ، فالشخص الذى يمتلك نصاب الأموال التى تجوز عليها الزكاة ، ينطبق عليه حكم الزكاة، وهو له حكم قطعى واجب التنفيذ كحكم الصلاة تماماً ، ولكن الشخص الذى لا يمتلك نصاب أموال الزكاة فلا يطلب منه اداء الزكاة ، ولا يطالبه هذا الحكم أيضا بأن يحاول امتلاك الأموال التى يصل بها إلى حد نصاب الزكاة حتى يتمكن من تنفيذ حكم الزكاة .

إن الفريضة تجب عليه فى الوقت الذى يمكنه فيه أن يقوم بأدائها ويفهم من هذا أن المستلزمات التفصيلية للدين ليست مشروعة شرعية مطلقة بل هى مشروعة بما يتناسب مع الظروف ذاتها ، وبالدرجة التى تنتشر بها دائرة المؤمن ، تزداد مستلزماته ، فحين يوجد شخص مؤمن واحد ، يفرض عليه هذا النصيب من الدين الذى يتعلق بذاته فقط ، فيكون التركيز على ذاته حيث يطبق الهدايات الالهية ، وحين يصبح المسلمون أسرة أو عدة أسر ، تكون هذه الأسرة مخاطبة فى حدود دائرتها، وحين يصبح أهل الايمان جماعة تكون مجتمعا مستقلا حينئذ يفرض عليها الأحكام الخاصة بالمجتمع ككل ، وهى الأحكام التى فرضها الله

للمعاملات الاجتماعية . وعلى جميع افراد المجتمع الالتزام بها جميعا. ولان تطبيقها على نطاق المجتمع لا يمكن أن يتم بدون سلطة ، لهذا فحين يصدر هذا الحكم لأى مجتمع مؤمن فإن هذا يعنى بالضرورة ضمنيا ان يؤمر افراد المجتمع عليهم اميرا سياسيا ويخضعوا لامرته ويشدون تحتها حياة اجتماعيه يطبقوا من خلالها جميع القوانين الشرعية .

والاحكام الاسلامية كلها إنما هى نتاج حقيقة نفسيه فإذا ما وقر الايمان فى القلب ، فإن تاثيراته تبدأ فى التفاعل داخل النفسيه الانسانيه ، ومن الضرورى بمكان أن نقول ان المظهر الخارجى لهذه التأثيرات يكون بالقدر الذى يتاح للأحوال الخارجية . هذا هو شأن طبيعة العلاقة التى تحكم أهل الإيمان ، ومع أن تقسيمها إلى مراحل أمر غير ممكن إلا أنه يمكن أن نقسمها إلى ثلاث مراحل أساسية حتى يمكن لنا أن نفهمها :

المرحلة الأولى : مرحلة التلقين ، وأصلها أن يتمنى كل مسلم لأخيه المسلم الخير من كل قلبه ، وأن يكون مخلصا لأخيه اخلاصا نابعا من قلبه (النصح لكل مسلم) (متفق عليه) وقد جاء فى الأنجيل أيضا (أن يكون ناصحا لأخيه (الظهور — ٤ : ٩) .

وقد أتى جرير رضى الله عنه النبى ﷺ فقال :

« يدك يا جرير ، فقال : على مه ، قال : أن تسلم وجهك لله والنصيحة لكل مسلم » .

(كنز العمال ج ١ ص ٨٣)

أى اسلكوا معا فى علاقاتكم مع بعضكم بعضا سلوكا يكون مفيداً لاخوتكم فى الدنيا والآخرة . واحذروا كل سلوك يبعث على ايجاد الفرقة والخلاف بين الأخوة المسلمين .

هذا هو العمل الذى ورد ذكره فى سورة العصر (المكية) بالألفاظ التالية : « **وتواصوا بالحق وتواصوا بالصبر** » (العصر — ٣) .

وهكذا ذكر الله تعالى أن عاطفة العبودية التى تنشأ داخل المؤمن هى التواصى بالحق والتواصى بالصبر ، وبهذا أوضح تعالى الجانبين الهامين للضرورة الإيمانية ، وهذا أحد الجوانب العملية،فما يريده الله من عباده هو ترغيبهم للتعاهد معاً على الإيمان والإسلام من ناحية ، ثم تعاون المؤمنين معاً بقوتهم المشتركة للقضاء على العوائق التى تعترض طريق تشكيل المجتمع الإسلامى الذى يرضى عنه الله فى هذه الدنيا ، وأن يتعاونوا معاً على النيات على ما يرضاه الله لمواجهة المشكلات التى تواجههم والتغلب عليها من ناحية أخرى !! (وهذه هى المرحلة الأولى) .

والمرحلة الثانية : هى مرحلة التنظيم لكيلا يصبح المسلمون مجتمعاً متفرقاً بل عليهم — بالدرجة الممكنة — ان ينظموا ما بينهم وأن يقرروا معاملاتهم الاجتماعية على أصول الشورى ، ومن نماذج تطبيق هذه الأصول ما قام به نبى الله موسى عليه السلام فى صحراء سيناء حين قسم بنى اسرائيل إلى اثنتى عشرة قبيلة ، ونصب عليهم اثنى عشر نقيباً — وفى بداية العهد المكى نشأ حول النبى ﷺ تنظيم اجتماعى ، وكان مركز هذا التنظيم هو دار ابن الأرقم ، واتبع أنصار المدينة هذه الطريقة قبل الهجرة ، وعند بيعة العقبة الثانية (٦٢٣ م) حين قدم إلى النبى ﷺ ٧٥ شخصا (٧٣ رجلا وامرأتان) ، وأعلنوا اسلامهم ، حينئذ أمرهم رسول الله ﷺ أن ينصبوا عليهم اثنى عشر نقيبا (فقد قال رسول الله ﷺ : أخرجوا إلى منكم اثنى عشر نقيبا يكونون على قومهم بما فيهم) (البداية والنهاية — ج ٣ ص ١٦٠) وهكذا انتخبوا من بينهم

اثنى عشر رجلا أمراء ، من بينهم ثلاثة من قبيلة الأوس وتسعة من قبيلة الخزرج ، وبعد ذلك قال لهم الرسول ﷺ :

« أنتم كفلاء على قومكم » (الزرقانى المجلد الأول ص ٣٨٢) .

وكان هذا النوع من الإمارة هو ما تم بالنسبة لجعفر ، حين عين أميراً على مهاجرى الحبشة (سيرة ابن هشام) !! وهكذا فإن المسلمين الذين خرجوا من دار الإسلام وانتشروا فى ربوع الأرض قد حاولوا فى كل مكان أن يكونوا تنظيمهم الاجتماعى ، وما قاموا به من أجل أن يعيشوا حياة اسلامية ، ومن أجل الدعوة إلى الإسلام فى إطار كونهم جماعة منظمة وحتى يتمكنوا من القيام بأداء فرائضهم الشرعية كان لابد من أن يكونوا تحت زعامة أمير منهم .. وهذه هى المرحلة الاجتماعية .

والمرحلة الأخيرة للمجتمع الاسلامى هى : مرحلة تشكيل النظام السياسى الذى يطلق عليه اصطلاحاً « نصب الإمام » ونصب الإمام أى تنصيب امام سياسى واجتماعى للمسلمين هو أمر واجب بالاتفاق :

« نصب الإمام عندنا واجب » (شرح المواقف) .

« لابد للأمة من إمام » (شرح المقاصد) .

« المسلمون لابد لهم من إمام » (عقائد النسفى) .

وهذه القضية على قدر كبير من الأهمية لدرجة أن كتب الفقه والعقائد لا تخلو من ذكرها ، ولا يوجد عليها أى اختلاف إلا عند فرقة من فرق الخوارج المهملة « النجدات » ، يقول ابن حزم :

« اتفق جميع أهل السنة وجميع المرجئة وجميع الشيعة وجميع الخوارج على وجوب الامامة حاشا النجدات من الخوارج » (الملل والنحل ص ٧٢) .

واذا كان هناك اختلاف فيما يتعلق بهذا الامر فهو أن اهل السنه والجماعه يعتقدون انه امر « سمعى » اى انه حكم شرعى واجب بالشرع وترى بعض الفرق كالزيديه والمعتزله أنه امر ضرورى عقلا ، ولكن كما سبق ان اوضحنا فإن قضية تنصيب الإمام السياسى امر يتعلق بالمجتمع المسلم الذى يكون له وضع يمكنه من إقامه تنظيم سياسى مستقل لأنه يتمتع بمكانه اجتماعيه مستقلة . ولا توجد هناك قضية تتعلق بتنصيب إمام سياسى بالنسبة للمؤمنين المتفرقين المبعثرين . وبالفاظ اخرى ليس هذا حكماً مطلقاً بل معناه انه لا توجد أية جماعة مسلمة لها صفتها الاجتماعية المستقلة ، فإذا ما وجدت هذه الجماعة أصبح من الضرورى لها أن تنظم مجتمعنا على أسس الدين ، وأن تختار أميرها السياسى . الذى تعيش حياتها المنظمة تحت امرته .

والإمامة السياسية ليست مظهرا على السلطات الاجتماعية لجماعة ما ، وحين توجد السلطات الاجتماعية يمكن توقع ظهور الإمامة ، فإذا لم توجد مظاهر السلطات الاجتماعية (اى الاستقلال الاجتماعى) فكيف يمكن أن تظهر الإمامة وعلى أى اساس يمكن اعطاء مثل هذا النوع من « التكليف » مايعطى لبقية الأحكام المشابهة !!

إن ما ذكرناه قبلا يتعلق بمشروعية الأحكام الخاصة بالمؤمنين ، وهنا نذكر بالاضافة إلى هذا الأمر أهم حكمة للدين . وهى التدرج فى الأحكام، ومن هذه الناحية فمثلما لا تقع المسئولية على الأقلية المسلمة فى بدء مهمة تنفيذ الأحكام الاجتماعية للاسلام بين الاكثرية غير المسلمة .

فكذلك اذا شعر بعض الناس بالمشاعر الاسلامية داخل مجتمع مسلم متفكك فإن أول مراحل المسئولية الملقاة على عاتقهم لا تكون المطالبة بتحكيم الشريعة فهذا النوع من العمل يعنى تماما الانحراف عن الطريق التدريجى للاسلام .

والطريقة الصحيحة هى البدء فى نشر التعليمات الأساسية والأحكام الأولية للدين ، والعمل على اصلاح المجتمع الاسلامى حتى تنبت بداخل هذا المجتمع وبداخل أفراده بذرة قبول أحكام الاسلام العادلة وقوانينه الاجتماعية ، وبعدها سيأتى الوقت الذى تبدأ فيه مهمة تنفيذ الأحكام الاسـلامية .

وهناك رواية مشهورة لعائشة رضى الله عنها توضح أهمية التدرج فى الأحكام (١) . فإن التدرج — عند الله — على درجة كبيرة من الأهمية لدرجة أنه جل وعلا لم ينزل الأحكام الضرورية للمسلمين دفعة واحدة ، بل نزلت معظم الأحكام مسلسلة على أقساط ، هذه هى المراعاة التى أوجدت مسألة الناسخ والمنسوخ فى كتاب الله ، فلو نزل كل حكم بصورته التى نزل بها أولا وبشكله الكامل ما ظهرت مسألة النسخ ، ويروى عن حذيفة أنه لا يجوز لشخص يجهل مسائل الناسخ والمنسوخ أن يعظ الناس أو يفسر القرآن .

---

(١) انما نزل أول ما نزل سورة من المفصل فيها ذكر الجنة والنار حتى اذا ثاب الناس الى الاسلام نزل الحلال والحرام ولو نزل اول ما نزل لا تشربوا الخمر لقالوا لا ندع الخمر أبدا ولو نزل لا تزنوا لقالوا لا ندع الزنا أبدا . (البخارى — باب تأليف القرآن) .

شـــهادة الحق

شهادة الحق او الدعوة إلى الإسلام هى مسئوليتنا حيـال غير المسلمين ، ومعنى هذه الشهادة ايصال رسالة الله إلى عباد الله بطريقة كاملةمحتمة حتى لا تكون هناك فرصة فى الآخرة لان يقول هؤلاء ، لم نكن نعرف الحقيقة .

لقد خلق الإنسان فى الدنيا حتى يختبر ، يقول تعالى فى كتابه العزيز : « **الذى خلق الموت والحياة ليبلوكم أيكم أحسن عملا** » (١) وهذا أمر جلل لأنه يعنى أن نهاية هذا الإنسان فى الآخرة متوقفة على المسلك الذى يتبعه فى حياته ، فإما الجنة الدائمة وإما الجحيم الدائم ، ونظراً لما عليه هذا الأمر من أهمية كبيرة فقد أقام الله تعالى للانسان نظامين معينين لاختياره وتحذيره : الأول أن يضـع فى فطرة كل انسـان الاحساس بالصحيح والخطأ .. قال تعالى :

« .. **فألهمها فجورها وتقواها** » (الشمس — ٨) .

والشعور بهذه الحقيقة يغرس فى الإنسان من أول يوم ولادته :

« **وإذ أخذ ربك من بنى آدم من ظهورهم ذريتهم وأشـهدهم على أنفسهم ألست بربكم قالوا بلى شهدنا أن تقولوا يوم القيامة إنا كنا عن هذا غافلين** » (الاعراف — ١٧٢) .

وهذا الوضع الفطرى وضع التكتيك الثـانى ، وهو استمرار تسلسل الرسالة بانتظام حتى يصل علم الحقيقة إلى كل انسان عن طريق العمل الإنسانى مباشرة :

---

(١) الملك — ٢٠ .

« رسلا مبشرين ومنذرين لئلا يكون للناس على الله حجة بعد الرسـل » (النسـاء — ١٦٥) •

وسلسلة النبوة هذه تمضى منذ بدء الحياة ، ولم يكن آدم عليه السلام أول انسان فقط بل كان أول نبى أيضا ، وقد شاءت ارادة الله أن تنتهى سلسلة النبوة فى القرن السابع الميلادى ، وكان محمد ﷺ (٥٧١ — ٦٣٢ م) آخر الأنبياء المرسلين من عند الله • ولكن فيما يتعلق بعملية تبليغ الرسالة فهى مطلوبة الآن أيضا مثلما كانت مطلوبة من قبل • ولهذ اختار الله الأمة المحمدية (هو اجتباكم •• الحج) وأرسل اليها آخر الرسل محمد ﷺ الذى قدم الشهادة الكاملة للدين ، وأصبحت خلاصة مسئوليتنا أن نشهد شهادة حق على أمم الدنيا تابعين فى ذلك النبى وحتى يوم القيامة :

« ليكون الرسول شهيدا عليكم وتكونوا شهداء على الناس » •

(الحـج)

وهذه المهمة ليست مهمة ضمنية بل هى هدف وجود الأمة الاسلامية، وطبقا لما جاء فى القرآن الكريم فإن تحقيق رسالة الرسول ارتكزت على ابلاغ الرسالة إلى المخاطبين بطريقة تامة وكاملة وإلا ظلت فريضة الرسالة ناقصة لم تكتمل :

« يا أيها الرسول بلغ ما أنزل اليك من ربك وإن لم تفعل فما بلغت رسالته » (المائـدة — ٦٧)

وهذه المسئولية الملقاة على عاتق الرسول هى نفسها المسئولية الملقاة على عاتق تابعيه ، « •• أنا ومن اتبعنى » (يوسف ١٠٨) وكان من الضرورى لتحقيق رسالة النبى أن يقوم ﷺ بابلاغ رسالة الهداية إلى الناس • ومن هنا فإن بقاء الأمة المحمدية كأمة محمدية يرتكز على

قيامها بإبلاغ هذه الرسالة إلى الأجيال التالية بعد رسول الله ﷺ . والانتساب إلى الأمة المحمدية إنما هو انتساب قائم على أن نحمل إلى الناس ما حمله الينا الرسول ، وذلك حتى يوم القيامة والواقع أن الموت على دين آخر غير الاسلام انما هو بمثابة القاء انفس فى التهلكة (كل من مات على غير دين الإسلام فهو فى النار) والإنسان لا يجوز أن يدفع فقط إلى المضى على طريق الحق بل يجب ان تعتلج بداخله الحمية حتى يحاول أن ينقذ أبناء جنسه الأخرين من هذا الخطر !!

ينقل ابن عبد البر (١) عن معاوية بن حيدره القشيرى أن النبى ﷺ بلغه الدعوة وفى النهاية قال : « مالى أمسك بحجزكم عن النار ، إلا وان ربى داعى وانه سائلى ، هل بلغت عبادى فأقول رب قد بلغت الا فليبلغ شاهدكم غائبكم » (الاستيعاب)

هذه هى أهم المسئوليات التى يجب على الأمة المسلمة ان تؤديها بعد أن تقضى على ما بينها من خلافات واختلافات ، ينقل الطبرانى عن مسور بن مخرمة فيقول :

« خرج رسول الله ﷺ على أصحابه فقال : ان الله بعثنى رحمة للناس كافة ، فأدوا عنى رحمكم الله ولا تختلفوا كما اختلف الحواريون على عيسى عليه السلام » .

وكما بعث النبى ﷺ ، فإن هذه الأمة المحمدية مبعوثة على الدوام لتحقيق هذا الهدف ، وفى زمان الخليفة الثانى حين انبعث ربعى بن عامر إلى بلاط فارس ، دار حوار نورد بعضه :

---

(١) صاحب كتاب الاستيعاب فى معرفة الاصحاب ، والاستذكار لمذاهب فقهاء الامصار وعلماء الاقطار .. وهو من علماء الاندلس وفقهاء المالكية البارزين توفى سنة ٤٧٣ هـ (واسمه أبو عمر يوسف بن عبد البر بن عاصم) (المراجع) .

لقد « قالوا له ما جاء بكم ؟ فقال : الله ابتعثنا لنخرج من شاء من عباده العباد إلى عبادة الله ، ومن ضيق الدنيا إلى سعتها ، ومن جور الاديان إلى عدل الإسلام فأرسلنا بدينه إلى خلقه لندعوهم اليـه » (البداية والنهاية)

وهذه المسئولية مسئولية عالمية لا تحدها أى حدود جغرافية ، وقد نقل « صاحب البداية » خطبة مفصلة لنعمان بن مقرن فى بلاط كسرى ، وكان قد أجاب على سؤال لكسرى بقوله :

« وأمرنا أن نبدأ بمن يلينا من الأمم فندعوهم إلى الإنصاف ، فنحن ندعوكم إلى ديننا وهو دين الإسـلام حسـن الحسن وقبح القبيح كله » . (البداية والنهاية مجلد ٧ ص ٤١)

وكانت هذه المسئولية واضحة تماما أمام الصحابة الكرام ، وفى زمان خلافة الفاروق رضى الله عنه عرض عمرو بن العاص على المسئولين الدينيين بمصر مسئولية الدعوة الاسلامية فقال لهم : « إن الله بعث نبينا إلى الإنسانية برسالة ، فأدى النبى رسالته كاملة ، وترك لنا منهجا واضحاً من بعده نمضى عليه ، ونبلغ هذه الرسالة الربانية إلى البشرية ، وقد قضى الذى عليه وتركنا على الواضحة » .

(ابن جرير ج ٤ ص ٢٢٧)

إن الهدف الأول لبعثة الرسل هو ابلاغ الناس برسالة الحق فى السر والعلن (نوح ــ ٩) ، فهذا العمل الذى فرضه الله ، أى ابلاغ الرسالة انما فرضُ حتى يعرف الناس النظام الذى خلق الله عليـه الكائنات ، ونهاية هذا النظام ، وحتى يتعرف الناس على ما فى الغيب قبل حلول الوقت حين ينقلب بساط الدنيا الحاضرة ويتحول الغيب إلى مشهود ويصبح عالم الغيب عالم الشهادة .

ومسئوليتنا فيما يتعلق بهذا الأمر هى ان نطلع النــاس على الحقيقة الأخروية ، ونعلمهم أنهم عباد الله ، وجدوا فى هذه الدنيــا ليحاسبوا على أعمالهم .

وتستوجب حكمة الله الناطقة أن يقدم الإسلام دائما لغير المسلمين على أنه « أعظم نظام دنيوى » وهذا الأمر واجب ، إلا أن الإسلام إذا ما عرض أمام الناس على أنه أعظم نظام دنيوى فقط فإن صورته فى أذهان الناس ستقتصر على كونه وسيلة حل القضــايا العالمية ، وبتعبير آخر سيتصورون الإسلام سفينة النجاة من المتاعب الاقتصادية والسياسية ، بينما الحقيقة أن الأنبياء بعثوا أساسا ليرشدوا الناس إلى طريق النجاة من العذاب الســماوى .. وكما يقول القرآن .. فإنه سبحانه : « **يلقى الروح من أمره على من يشاء من عباده لينذر يوم التلاق** » . (غافر ـــ ١٥)

وتتمثل الصورة النهائية لمهمة التبليغ هذه أن يقبــل المخاطب الدعوة وأن يعيش حياته طبقا لها ، إلا أن الصورة النهائية لمهمة الداعى هى أن يقوم بابلاغ كلامه إلى الناس إلى آخر حــد ، وأن يوضح الحقيقة للناس حتى لايكون أمامهم مجال للاعتذار أو التأويل ، وهكذا كان المعيار الخاص باتمام حجة الأنبياء هو وصول كلامهم إلى الناس بطريقة كاملة مكتملة ، وألا يتعرض المخاطبون لأمور معقدة شــاقة أو متعبة .

فجميع الأمم التى ورد ذكرها فى القرآن ، والتى لم تستمع إلى رسالة الأنبياء فاستحقت العذاب لما ارتكبته من عصيان ، كانت هذه الأمم التى بلغ الأنبياء اليها الرسالة عن طريق الوعظ والارشــاد ، بكل الوسائل الممكنة ، وقد ورد التعبير عن هذا الأمر فى القرآن بألفاظ

مختلفة تعنى كلها « للتعريف والابلاغ » مثلا : آية الصدع بالأمر (١) (الحجر — ٩٤) ، وتبيين الذكر (٢) (النحل — ٤٤) ، والاعلام بالوحى (٣) (الأنبياء — ١٠٩) وابلاغ الرسالة (٤) (الأعراف — ٧٩) وقص الآيات (٥) (الأعراف — ٣٥) وقراءة الآيات (٦) (الاسراء ١٠١) وتلاوة للكتاب (٧) (العنكبوت — ٥١) والإنذار والتبشير (٨) (سبأ — ٢٨) والفداء للايمان (٩) (آل عمران — ١٩٣) والدعوة إلى الإسلام (١٠) (الصف — ٧) وتبليغ ما أنزل الله (١١) (المائدة ٦٧) والتذكير بأيام الله (١٢) (ابراهيم — ٥) وغيرها .

ويروى البيهقى عن المغيرة بن شعبة أن النبى ﷺ عرض دعوته ذات يوم على أبى جهل ، فقال أبو جهل :

« يا محمد !! هل أنت منته عن سب آلهتنا ، هل تخشى ألا نشهد أنك قد بلغت ، فنحن نشهد أن قد بلغت » .

وأشهد النبى ﷺ أصحابه عدة مرات على أنه قد بلغ الرسالة الإلهية بطريقة كاملة لأبى جهل ويروى الإمام أحمد عن تعلبة بن عباد العبدرى أنه وقف يخطب فقال بعد أن حمد الله :

يقصد المؤلف قوله تعالى :

١ — فاصدع بما تؤمر .
٢ — وانزلنا اليك لتبين للناس .
٣ — قل انما يوحى الى انما الهكم اله واحد .
٤ — لقد ابلغتكم رسالة ربى .
٥ — يا بنى آدم اما يأتينكم رسل منكم يقصون عليكم آياتى .
٦ — ولقد آتينا موسى تسع آيات بينات .
٧ — اولم يكفهم انا انزلنا عليك الكتاب يتلى عليهم .
٨ — وما ارسلناك الا كافة للناس بشيرا ونذيرا .
٩ — ربنا اننا سمعنا مناديا ينادى للايمان ان آمنوا بربكم فآمنا .
١٠ — ومن اظلم ممن افترى على الله الكذب وهو يدعى الى الاسلام
١١ — يا ايها الرسول بلغ ما انزل اليك .
١٢ — وذكرهم بأيام الله (المراجع) .

« يا أيها الناس أنشدكم الله ان كنتم تعلمون أنى قصرت عن شىء من تبليغ رسالات ربى عز وجل لما أخبرتمونى ذلك قال : فقام رجال فقالوا : نشهد أنك قد بلغت رسالة ربك ونصحت لأمتك وقضيت الذى عليك » .

فالداعية يبدأ عمله بهذه العاطفة وينبغى أن يسمع الناس كلامه إلى آخر مدى مع مراعاة جميع مستلزمات الحكمة والخير .

وما تقع من أحداث بعد ذلك خلال هذه المهمة لا تتعلق أصلا بعملية التبليغ ، بل تتعلق بأولئك الناس الذين تقع عليهم الشهادة والتبليغ ويظل هكذا حتى يفارق الحياة ، ومن الممكن أن تسلم إحدى شكل خاص لعملية التبليغ ذاتها ، فمن الممكن أن يقوم الداعى بالنداء والتبليغ ويظل هكذا حتى يفارق الحياة ، ومن الممكن أن تسلم إحدى أهم شخصيات العصر فينتشر دين الله بسبب إسلامهم ومن الممكن أن يتنازع مع المخاطبين ، وقد يتحد هؤلاء مع السلطة ويتآمرون — معا — القضاء على حركة الدعوة ، فالله تبارك وتعالى يبدل ويغير فى الظروف بحيث تنتصر القافلة الأولى من الدعاة أو من يلونهم ، ويمكنون فى الأرض ، ثم هناك صور مختلفة للتمكين فى الأرض ، فمن الممكن أن يكون الأمر مجرد غلبة سياسية ، ومن الممكن أن تنال حركة الدعوة تعاون المخاطبين على نطاق واسع حتى يوجد هؤلاء وأولئك مجتمعاً منظماً على أساس الإسلام ... جميع هذه الصور يمكن حدوثها ولكل منها أمثلة فى سير الأنبياء أثناء كفاحهم وجهادهم من أجل دعوة الحق، إلا أنها كلها لم تتضمن شرط الانتصار العامل والتمكن فى الأرض . فأداء الشهادة أو القيام بالدعوة هو ببساطة دعوة الناس إلى رسالة

الله على ان تتوفر فى عملية الدعــوة جميع شرائط « النصح » (١)
(الأعراف — ٦٨) ويتوافر فيهــا أيضــا « القــول البليغ » (٢)
(النساء — ٦٣) ومهما كانت عوائق طريق الدعوة فإنه من الواجب
مواجهتها بحيث تستمر الدعوة ولا تتوقف ، مهما حدث بعد ذلك ...
وكأن المطلوب بالنسبة للداعى أن يبلغ رسالة الله إلى آخر حد ، وإلى
آخر عمره ، وبقية الأحداث هى أمور يتعرض لها المدعو ، ومن الواضح
أن لا يمكن وضع فهرس محدد لها ، كما أن الفروق الواضحة فى نوعيتها
تؤكد لنا أنه لا يمكن أن يحكم على عمل الداعية بالنجاح أو الفشــل
أو بالكمال أو النقص .

والأمر الثانى فى هذا الموضوع هو أن نشاط الدعوة الذى يقدم
لغير المسلمين لا يستوجب ان يقدم لهم الدين كله دفعة واحدة فى وقت
واحد ، بل الصحيح أن يرشدوا (أولا) إلى التعاليم الأساسية للدين :
(تصور الله) (تصور الرسالة) (تصور الآخرة) وتلك هى الأمور
التى توضع أولا أمام المخاطبين من غير المســلمين ، ثم يوضح لهم
الإسلام من خلال هذه الجوانب المختلفة المسلسلة ، فاذا ما حدث
ارتباك فى فهمهم وجبت محاولة إزالته بلاستدلال القاطع المؤثر ، فاذا
ما وافقوا على ما قدم لهم وآمنوا بالإسلام ، تقدم لهم الأحكام التى
قررها الله لعباده المؤمنين . ولقد أرسل النبى ﷺ معاذ بن جبل ليدعو
أهل اليمن إلى الإسلام فقال له انك ستقابل جماعة من أهل الكتــاب
فإدعهم أولا إلى كلمة التوحيد (فليكن أول ما تدعوهم اليه شهادة
أن لا اله إلا الله) وحين يؤمنون بها علمهم تدريجيا الصلاة وأعمال
الشريعة الأخرى .

يقصد قوله تعالى

(١) أبلغكم رسالات ربى وأنا لكم ناصح أمين .

(٢) أولئك الذين يعلم الله ما فى قلوبهم فأعرض عنهم وعظهم وقل لهم فى أنفسهم قولا بليغا .

« فعن ابن عباس رضى الله عنهما قال : قال رسول الله ﷺ لمعاذ بن جبل رضى الله عنه حين بعثه إلى اليمن ، إنك ستاتى قوما أهل كتاب . فإذا جئتهم فادعهم إلى أن يشهدوا ان لا اله إلا الله وان محمداً رسول الله فإن اطاعوا لك بذلك فأخبرهم أن الله فرض عليهم خمس صلوات كل يوم وليلة فإن اطاعوا لك بذلك فأخبرهم أن الله فرض عليهم صدقة تؤخذ من اغنيائهم فترد على فقرائهم ، فإن أطاعوا بذلك فإياك وكرائم أموالهم » (البخارى) .

إن هذا هو السبب فى الحكمة الالهية التى قضت بأن تقدم التعاليم الأساسية للأنبياء فى مرحلة الدعوة الأولية ، وأن يستمر الأنبياء فى تبليغها لفترة طويلة إلى الناس ، وبعدها وطبقا لظهور حالات عملية نزلت الإرشادات التفصيلية بما يتوافق مع هذه الحالات والظروف ، ولم يحدث أبداً أن جاء نبى إلى أمة ما فقام بوضع أسس نظام اجتماعى وحضارى كامل فى المرحلة الأولى ، وقدمه للناس وطالبهم بأن يقيموا دولة اسلامية وأن ينفذوا ويطبقوا فيها جميع القوانين التى صدرت فيما يتعلق بجميع فروع الحياة .

ان الأحكام المذكورة فى الحديث السابق كانت قد نزلت كلها فى ذلك الوقت إلا أن الرسول ﷺ أخبر الداعية ألا يقدمها للناس دفعة واحدة بل عليه أن يقدمها للمدعوين تدريجيا طبقاً لظروفهم ، ويفهم من هذا أن الأحكام كما نزلت أولا بطريقة تدريجية فإن التدرج فيها مطلوب بعد نزولها أيضا ، وترتيب ضرورتها هو دائما قائم على ترتيب نزولها ، وليس الأمر كما يفهم بعضهم — أنها نزلت تدريجيا فى البداية (أولا) ثم أنها بعد نزولها قد نسخ العمل بها تدريجيا — عند اقتضاء ذلك — وأصبحت مطلوبة فى كل حال بصورة كلية لا بصورة تدريجية ، حتى ولو كانت الظروف النفسية والاجتماعية توجب التدرج والعمل المتـأنى !!

الأركان الأربعة

بعد الإيمان ، توجد أربعة أشياء فى النظام الإسلامى تمثل « أركانه » : الصوم ، الصلاة ، الزكاة ، والحج ، وهذه الأشياء الأربعة من ناحية حقيقتها المعنوية هى الأجزاء الأربعة التى تجتمع معاً فتكون بوجودها الكلى المجموعة التى يطلق عليها الإسلام . فالصوم اسم للسمو عن العالم المادى حتى يتمكن الإنسان من ربط نفسه مع الله ، وروح الصلاة هى ذكر الله ، وحقيقة الزكاة الإيثار . وهذا الجزء من الإسلام كأنه الخلاصة التى يعبر عنها باسم الأخلاق والمعاملات أو حقوق العباد ، وأصل الحج هو للتضحية فى سبيل الدعوة الالهية (Mission) ، وهو عهد على تجديد حياة الدعوة التى قام بها أعظم دعاة الحق ابراهيم عليه السلام . وهذه الأركان الأربعة هى من الناحية الاعتبارية علامات للأجزاء الأربعة الأساسية ، ومن ناحية أخرى فهى تجهز الإنسان وتعده للاسلام حتى يستطيع أن يتبع الإسلام فى حياته بطريقة كاملة شاملة .

ومع أن كل عبادة من عبادات الإسلام تحمل روحا خاصة إلا أن تركيب العبادات قد وضع بشكل يجعلها وسيلة للحصول على المقاصد الفرعية الأخرى مع استكمال الهدف الأصلى — وفى هذا الأمر فإن مثل الإسلام كمثل جسم الإنسان فلكل عضو وظيفة انفرادية منفصلة إلا أنه — أى العضو — مع هذا يرتبط مع الجسم بطريقة لا يمكن معها فصله عن بقية الأعضاء .

---

١ — وهناك جانب آخر يتمثل فى أنه مع الفرق فى الصلاحيات فإن لكل منها نصيباً محدداً فى الفائدة والعمل . فمثلا صلاحية الصوم

والصلاة إن لم تصل بكل منهما إلى مقام « الاقتراب » (١) (العلق) فيجب الوصل على الأقل إلى مقام التقوى ، هذا بينما الصلاة جعلت لتنهى عن الفحشاء والمنكر (العنكبوت — ٤٥) ، وللصوم طبقاً لما جاء فى الحديث يعمل على تربية الفرد ومنعه من قول الزور والفسق هذا لأن الصوم يبدأ فى تكوين جبهة قوية فى مواجهة الحملات الشيطانية .

٢ — وقد وضع نظام كل عبادة لتؤدى هدفها الانفرادى الخاص، مع اتصالها وارتباطها ببقية العبادات ارتباطاً شديداً قويا ، وعلى سبيل المثال فهدف الحج الأساسى اعداد الإنسان لحياة الدعوة ومع هذا فقد وضع بشكل يمكن الإنسان من أن ينال نصـيبا من المحبـة الالهية ، وتذكر الآخرة اثناء زيارته للاماكن المقدسة . وأداء مناسك الحج ، فبعد أداء فريضة الحج يعود الإنسان طاهراً مطهرا ، ويكون مهيئاً بطريقة أفضل لبدء حياة دينية على مستوى أطيب .

٣ — وقد وضعت كل عبادة — أساساً — لتربط العبد بربه بطريقة ما ، ومع هذا وضعت وشكلت بحيث تكمل المستلزمات الأخرى للحياة، أو على الأقل تكون محركا طيبا ودافعا قويا ، وعلى سبيل المثال فعن طريق صلاة الجماعة أو الاجتماع العالمى للحج يقوى اتحاد المسلمين ويزدهر ، كما أن فى الصوم فوائد لصحة الجسم ، وعن طريق الزكاة ينصلح النظام الاقتصادى وهكذا .

الصـــوم :

والصوم أو الصيام هو من ناحية حقيقته يتلخص فيما عبر عنه القرآن الكريم بعبارة « تبتل إلى الله » (٢) (المزمل — ٨) أى الزهد

---

(١) يقصد المؤلف قوله تعالى : « واسجد واقترب » .

(٢) يقصد المؤلف قوله تعالى : « واذكر اسم ربك وتبتل اليه تبتيلا » .

والتعفف ، والصوم فرض أساسى ، وهو كبقية أكثر الأعمال شرع فى العهد المدنى فى السنة الثانية للهجرة ، وكان الصوم موجوداً قبلا بشكل من الأشكال ، قالت عائشة رضى الله عنها : إن قريشا كانت تصوم يوم عاشوراء فى الجاهلية ، وكان رسول الله ﷺ يصوم هـذا اليوم أيضا « صحيح مسلم » وحتى أنه قبل بعثته عليه السلام كان يصومه أثناء قيامه فى غار حراء ، فالصوم عبادة مقررة قبلا وقد دخلت الحياة الاسلامية أيضاً .

ومن المعروف أنه عندما شاءت قدرة الله أن يحمل موسى عليـه السلام كتاب الله ، أمره جلت قدرته ان يذهب إلى الطور وان يعتزل الناس ويبقى هناك ، ليقضى حياته فى الصوم والعبادة ، وهناك قضى موسى عليه السلام أربعين يوماً متواصلة على هذه الحال ، وبعد ذلك جاء الوقت الذى كلم الله فيه موسى ... قال القرآن .

« ولما جاء موسى لميقاتنا وكلمه ربه » (الأعراف ـــ ١٤٣) .

« والمسيح عليه السلام قد صام أربعين يوما قبل بدء نبوته » .

(دائرة المعارف اليهودية)

ونزل عليه الإلهام بعد ذلك فى شكل المواعظ الجبلية التى وردت فى الإنجيل ، وهكذا وقبل بعثة نبى آخر الزمان ﷺ ، كان يذهب إلى غار حراء بالقرب من مكة ، حيث يقوم هناك يعتزل الناس ، ويقضى وقتـه فى العبـادة والفكر والتفكر ، وهكذا وبعد حيـاة طويلة من « التحنث » جاء الوقت الذى نزل عليه فيه جبريل وبلغه كلام الله .

ويستخدم لفظ « الصوم » فى الشريعة من صام يصوم ومعناه الامتناع عن الحركة والمشى والكلام والطعام والشراب ، والخيـل الصائم يطلق على الخيل التى أوقفت بعد حجب مصدر الماء عنها ، ولهذا

يطلق على شهر رمضان « شهر الصبر » . وقد أخبر حارث بن مالك رسول الله ﷺ بخبر صومه فقال : « عزفت عن الدنيا واظمأت نهارى» والصوم من ناحية ملامحه الظاهرة هو اسم للامتناع عن الطعـام والشراب من الصباح حتى المساء ، إلا أنه من ناحية حقيقته الجوهرية يعنى انقطاع الإنسان بنفسه عن علائق الدنيا ، وأن يقتصد فى كل ما يفيده فى حياته من الناحية المادية ، وان يقلل من كلامه ومن لقاءاته ومن نومه ومن كل المستلزمات البشرية ، أى يقلل معاملاته فى كل شىء حتى إنه فى الأيام الأخيرة من شهر رمضان يعتكف ويقطع علاقته بكل هذه الأشياء والاعتكاف يعنى انقطاع الأنسان عن الاشتغال بالخلق حتى تتيسر له فرص الاشتغال بالحق ، وهذا أمر مطلوب من المسلم طوال حياته ، وقد تم التعبير عنه فى الحديث بكلمة « الزهد » (أى الزهد فى الحياة) ، وفرض هذا الأمر فى شكل الصوم فى شهر رمضان، والأيام الأخيرة من هذا الشهر تمثل شكلا كلياً للانقطاع إلى الله سبحانه وتعالى وهو أمر مطلوب لدرجة كبيرة ، مهدت له أيام الشهر الأولى بطريقة جزئية .

فما هى الفائدة المرجوة من هذا الصوم ؟! والاجابة تتلخص فى أن الجانب المادى للانسان جانب ضعيف وعليه فيجب زيادة الجانب الروحى ، حتى يتمكن من الاتصال بالعالم القدسى ، فهدف الصوم ايصال الغذاء المعنوى للروح فى مواجهة الغـذاء المادى للجسـد ، فالانسان ، فى آن واحد ، مجموعة للحالتين معاً ، المادية والروحية وهى ما يعبر عنها علماء النفس فى الوقت الحاضر بكلمة الذهن (العقل) Mind ، فالجزء المادى فى الوجود الانسانى ضرورة حتمية فبدونه لا يمكن للانسان أن يؤدى واجباته فى الحياة الدنيا ، إلا أن الروح لازمة مع الجسد ، وهو ما يطلق عليـه بالمصطلح النفسى الجـديد الذهن

(العقل) ، وأن يبقى هذا الجانب على مكانته المجردة بأكثر ما يمكن، وأن يطور بقدر الامكان وجوده اللامادى حتى يتمكن من الوصـــول إلى شفافية الحقائق غير المادية .

فحين يخرج الإنسان نفسه من الحياة المادية ويربط نفسه بالعالم الروحانى يشعر بطريقة محيرة أن باباً جديداً من أبواب الحقيقة قد انفتح أمامه فيبدأ فى رؤية جميع الحقائق التى لا يمكنه أن يراها نتيجة لاختفائها داخل الغلاف المادى ، ويصل إلى مرحلة سامية هى نفسها المعراج الأخير للانسان :

« ما زهد عبد فى الدنيا إلا أنبت الله الحكمة فى قلبه ، ولنطلق بها لسانه وبصّره عيب الدنيا وداءها ودواءها وأدخله سالما إلى دار السـلام » (المشكاة) .

وهناك دليل لمنهج السلوك ، حين يعبر الإنسان من هذا الغلاف المادى عبوراً يتجاوز فيه مرحلة بعد مرحلة ، فيتجلى له عالم الحقائق واضحا شفافاً تماما :

« تعبد الله كأنك تراه » (البخارى) .

والنبوة هى آخر درجات هذا الرقى ، والإنسان العادى يصل إلى مقام عبودية الله كأنه يراه بعد أن تسمو روحه ، والفرق بالضرورة بين الاثنين هو أن الرسول — لأنه مختار ومصطفى من الله ، فإن جميع حجب العالم القدسى تنكشف أمامه ، وتصبح تعينياته القدسية ظاهرة تماماً بشكلها الأساسى ، حتى تصبح جزءاً من شعور النبى نفسه ، ويصبح النبى فى موقع يقول فيه : « أنا أعرف أننى أعرف » بينمـا الإنسان العادى لا يمكن أن يصل إلى هذا المقام أبداً نتيجة لعــدم اصطفائه من الله سبحانه صاحب الحق فى هذا الاصطفاء ، ولا يكون

الاتصال بينه وبين العالم القدسى اتصالا قطعيا أو شعوريا كما هو الحال بالنسبة للنبى .

وهذه هى حكمة الصوم التى وردت عنها فى القرآن هذه الآية الكريمة ضمن أحكام الصوم :

« وإذا سألك عبادى عنى فإنى قريب أجيب دعوة الداع اذا دعــان » . (البقرة — ١٨٦)

والنبى — نتيجة لمقام الاصطفاء — يرتبط مباشرة بالله عن طريق الملك (جبريل) ، والقرآن هو لبقية الناس أنزله الله بواسطة جبريل ليحمل التوجيهات الأخرى من السماء .. والأنبيــاء حين يصومون يطهرون روحهم أو مايعرف بالمصطلح الحديث ذهنهم من تلوثات الماديات فينزل عليهم وحى الله (بواسطة جبريل) فيبلغهم مباشرة كلام الله ، والناس الآخرون يجدون الله عن طريق القرآن ، وحياة الصوم بالنسبة لهم حياة ضرورية حتى يدركوا القرآن ومع أن للقرآن موجود لدينا الآن (ما بين الدفتين) فى شكل وحى متلو إلا أنه « ينزل » على قلب معين فى الوقت الذى يعيش فيه صاحب هذا القلب حياة الصوم والتبتل فيصبح مؤهلا من الناحية الروحية لأن يكون مهبطا للقرآن .

ان فرض الصوم فى شهر نزول القرآن (البقرة — ١٨٥) [١]اشارة إلى هذا الأمر ، وهو أن الصوم جعل ليؤهل الإنسان ليكون حاملا للقــرآن .

وكما كان النبى ﷺ يصوم اثناء خلوته بغار حراء ليصبح حاملا للقرآن ، فبالمثل يجب على المسلمين المؤمنين ان يصبحوا أهلا للقرآن وإلا صاروا كالحمار يحمل اسفاراً [٢] (الجمعة — ٥) لأن القرآن

---

(١) يقصد المؤلف قوله تعالى : « شهر رمضان الذى أنزل فيه القرآن هدى للناس » .

(٢) يقصد المؤلف قوله تعالى : « مثل الذين حملوا التوراة ثم لم يحملوها كمثل الحمار يحمل أسفارا » .

لن يهبط على قلوبهم — لأن القرآن صدى قانون الكائنات ، وكتاب الفطرة ، فاذا ما غاص فيه أحد إلى أعماقه وراح يقرأ القرآن بوعيه وبقلبه بدأ صوت القرآن يصل اليه منساباً فى داخل كل ذرة من ذرات كيانه حتى يأتى عليه وقت يصبح القرآن وفطرته الانسانية معاً شيئا واحداً :

« بل هو آيات بينات فى صدور الذين أوتوا العلم » .
(العنكبوت — ٤٩)

وقد نزل حكم الصوم فى شهر نزول القرآن ، وقال تعالى وهو يصدر أمره بالصوم :

« يريد الله بكم اليسر ولا يريد بكم العسر » . (البقرة)

إن أولى حاجات الانسان الضرورية هى الطعام والشراب ومن هنا فإن منع الطعام والشراب يكون من الناحية الشكلية سببا فى وجود « عسر » أما من الناحية الجوهرية فهذا الحكم يكون سببا فى وجود « عسر » للانسان الذى سيطرت عليه المادة أو الجانب المادى فالله تبارك وتعالى يقول : **« يريد الله بكم اليسر ولا يريد بكم العسر »** وبطريقة غير مباشرة يتضح — بالنظر الى الحاجة المادية للانسان — أن الصوم هو على كل حال يكون باعثا للعسر فلماذا اذن يقال له « يسر » ؟!

« فاليسر » فى اللغة العربية معناه السهولة ، والهدف منه أن يطلب من الانسان عمل ما يسهل عليه تنفيذه وعلى سبيل المثال فالاستعداد للحرب يقال له : تيسر للقتال ، والآية القرآنية السابقة تعنى أن الصوم إنما هو صعب عليكم فى الظاهر ، إلا أن الله لا يستفيد

إذا ما اصابتكم مشقة ، فالأصل هو أن تتحقق لكم الحاجيات المادية طبقا لحكمه خلقكم . إلا أن الوصول بكلام الله إلى مستوى روحى حقيقى يستلزم أن تتركوا هذه المادية إلى حد ممكن ولأيام مقررة ، وأن تعملوا على الرقى والسمو بوجودكم الروحانى لتصبحوا جديرين للانطلاق من جميع الحجب المادية ، لتصبحوا بالتالى جديرين بتلقى كلام الله .

هذه هى الصلة الموجودة بين القرآن والصوم والتى — طبقا لها — فرضت على المسلمين حياة الصوم فى شهر نزول القرآن .

وفى شهر الصوم لا تقضى « حرارة الافطـــار » على أهداف الصوم بل ان هذا الأمر — أى معاناة الانسان بالجوع والعطش لا علاقة له مطلقا بأهداف الصوم الحقيقية ، اذ آن معاناة الانســـان بالجوع والعطش وقيامه « بختم » القرآن كل يوم وغيرها من أعمال العبادات، انما يصل بهذه العبادة الاسلامية الخالصة إلى مقام الرهبانية النصرانية، وهكذا فان ما يقوم به المسلم فى شهر الصوم والذى قيل له خطـــأ « الذكر بالجهر اللسانى » إنما هو أمر يتناقض مع التخلية الروحانية الهدف الأصلى للصوم ، فالهدف الأصلى للصوم هو أن يفرغ الانسان نفسه من الطعام بالاضافة إلى جميع الأمور الضرورية الأخرى : الكلام ، اللقاءات ، الذهاب والمشى ، الجدال والصياح ، فعليه أن يقطع صلته بمثل هذه الأشياء ، وبجميع أنواع المشاغل الدنيوية فهو يقضى حياة هادئة لفترة من الوقت يتفرغ فيها للعبادة فقط ، ولذكر الله ولقراءة القرآن بتدبر وتفكر وترك الطعام هو فى الحقيقة علامة ، فترك المحرمات أمر واجب على الانسان وهو كالصوم . إلا أنه يعيش فيه طول حياته حتى يوم القيامة ، وهكذا وفى أيام خاصة يقطع الانسان

علاقته حتى بالمباحات ، فيصوم ويقطع كل صلة له بكل شىء إلى حد الامكان ويحاول أن يكون قريبا من الله .

والصوم وان كان امرا مطلوبا لمرة واحدة فى السنة بشكله الخاص المحدد ، إلا ان الروح الأصلية التى تتولد من خلال الصوم ، هى أمر مطلوب دائما من المؤمن . وهو الانقطاع إلى الله ليس من الناحيــه الجسدية فقط بل من الناحية الحسية ، فارفع درجات الايمان هى أن يكون الانسان متجها إلى ربه بقلبه وبروحه دائما مهما كان مشغولا بأى عمل بشكل ظاهرى ، اذ يضع نفسه بصورة دائمة داخل نوع من أنواع الاعتكاف الروحى ، وقد كان عدم فهم الناس لهذه الحقيقة سببا فى الانعزال عن العالم والبقاء داخل صوامع او الذهاب إلى أماكن بعيدة داخل الغابات أو فوق الجبال ، وفهمهم هذا على أنه هو كمال الإيمان ، بينما كمال الإيمان هو أن يقوم الانسان بأداء واجباته وسط مشاغل الحياة ومشاغل الدنيـــا إلا أن ذهنـــه يكون منشـــغلا (معتكف بذكر الله) .

فعن ابن مسعود رضى الله عنه قال : أنتم أكثر صياما وأكثر صلاة وأكثر اجتهاداً من أصحاب رسول الله ﷺ وهم كانوا خيرا منكم . قالوا لم يا أبا عبد الله ؟ قال : هم كانوا أزهد فى الدنيا وأرغب فى الآخرة . (حلية الأولياء — ج ١ ص ١٣٦)

الصـــلاة :

حقيقة الصـــلاة الجوهرية هى الذكر (١) (طه — ١٤) والذكر والتذكر يقال ذكرته فتذكر ، فالله يريد من عباده أن يتذكروه ويتذكروا عظمته ، وحكمته ، وخلقه وملكه مرة بعد مرة ، ولكى يخلق الله هذه الحالة عند عباده فرض عليهم الصلاة .

---

(١) يقصد قوله تعالى : (واقم الصلاة لذكرى) (المراجع)

ويقول القرآن الكريم أن جميع مخلوقات الكون تسبح للخالق دائما : « **يسبحون الليل والنهار لا يفترون** » (١) ، ولقد سلمت الخلافة لآدم وصدر حكم للملائكة أن يسجدوا له فقالوا اننا نسبح بحمدك ونقدس لك دائما : « **واذ قال ربك للملائكة انى جاعل فى الارض خليفة قالوا اتجعل فيها من يفسد فيها ويسفك الدماء ونحن نسبح بحمدك ، ونقدس لك قال إنى اعلم ما لا تعلمون** » (٢) .

يفهم من هذا أن استحقاق الخلافة يستوجب من وجهة نظر الملائكة ان يكون الخليفة منشغلا على الدوام بتسبيح الله ، وطبقا لرواية البخارى فإن حكم الصلاة الذى صدر فى المعراج كان شاملا لخمسين صلاة ، ومن الواضح أن اداء خمسين صلاة فى مدة أربع وعشرين ساعة يستوجب قضاء اليوم كله تقريباً فى الصلاة ، ثم خففت الصلوات لتصل إلى خمس صلوات فقط ، وكأن المطلوب هو « صلاة خمسين وقتاً » إلا أنها خففت لتكون لخمسة أوقات فقط .

والصلاة هى اعتراف من جانب العبد بربوبية الرب ، وهناك جوانب عديدة لا تحصى لهذه الربوبية ، وتتضح سماتها على الانسان بأشكال لا تحصى و لاتعد ، حتى أن الانسان اذا استمر دائما فى حالة الذكر فلا يمكنه ان يؤدى لله حقه (ما عبدناك حق عبادتك) فما بالكم لو انشغل بالذكر انشغالا جزئياً وليس كليا ، فالحقيقة أن الشىء المطلوب أساساً هو أن يظل الانسان مصليا أمام الله فى جميع الأوقات، إلا أن الله تبارك وتعالى قد أصدر حكمه لعباده برحمته الخاصة مراعياً المصالح المختلفة لهم فأمر عباده بالصلاة لخمس ، على أن ينشغلوا بقية أوقاتهم بصلاة غير محددة ، فالصلاة عبادة فرضت فى أوقات

---

(١) الانبياء — ٢٠ .
(٢) البقرة — ٣٠ .

مقررة ومحددة « **إن الصلاة كانت على المؤمنين كتابا موقوتا** » [١] ، ومع هذا قيل إن هدف الصلاة هو الذكر « **وأقم الصلاة لذكرى** » [٢] حتى قيل أن الذكر هو أعلى مراتب الصلاة « **ولذكر الله أكبر** » [٣] ، فاذا ما قرأنا تلك الآيات على ضوء هذه الحقيقة التى صدر فيها أمر بذكر الله فى جميع الأحوال المختلفة للحياة اتضح لنا هذا الأمر وهو أن الصلاة بهيئتها الخاصة فرض يتم كل خمسة أوقات إلا أنها من ناحية معناها الحقيقى مطلوبة كل وقت حتى حين يكون الانسان مشغولا بأعماله الدنيوية الخالصة :

« **رجال لا تلهيهم تجارة ولا بيع عن ذكر الله** »[٤] .

والصلاة بمفهومها الواسع هذا يشير إلى ما جاء فى القرآن من بيان وتعريف كان أهل الجنة اذ هم مشغولون دائما بالصلاة :

« **إلا المصلين الذين هم على صلواتهم دائمون** » [٥] .

فالصلاة الدائمة أو الذكر الحقيقى هو ما يرد على لسان الإنسان ، وليس تكرار الألفاظ الموضوعة ، فحين يدرك الإنسان أسمى وأعلى الحقائق فإن وجوده الكلى يغرق فى حالة (كيفية) ربانية خاصة ، وما يرد على لسانه من كلمات — فى ذلك الوقت — يناجى بها ربه — يقال لها « ذكر » وفى الحديث ، يشعر فى ذلك الوقت بأنه يرتع فى الجنة : (من أحب ان يرتع فى رياض الجنة فليكثر من ذكر الله) (أخرجه الطبرانى عن معاذ بن جبل) .

---

(١) النساء — ١٠٣ .

(٢) طه — ١٤ .

(٣) العنكبوت — ٤٥ .

(٤) النور — ٣٧ .

(٥) المعارج — ٢٣ .

وقد قسم القرآن الصلاة قسمين ، الأولى صلاة الخشوع (١) (المؤمنون — ٢) والثانية صلاة السهو (٢) (الماعون — ٥٥) ، فالنوع الأول من الصلاة بشر أصحابها بالجنة ، بينما الصلاة الثانية لا فائدة لها ولا تفيد المصلين أنفسهم ان لم تكن ضارة بهم ، جاء فى الحديث ان الرسول ﷺ دخل المسجد النبوى فجاء رجل فصلى ثم قدم إلى الرسول فقال له الرسول : ارجع فصل فإنك لم تصل » .

وجاء فى رواية :

« أقرب ما يكون العبد من ربه وهو ساجد » (رواه مسلم عن أبى هريرة) .

والفرق بين الصلاتين ليس فرقاً من الناحية الشكلية أو الظاهرية فى أداء مراسمها الخارجية بل من الناحية الكيفية أو الجوهرية التى يؤدى بها الشخص الصلاة فصلاة السهو هى الصلاة التى يؤديها الشخص بلا شعور ، فالانسان يؤدى أركان الصلاة بشكل ما ، دون أن ينال أى قسط من كيفيات الصلاة ، يقول أنس رضى الله عنه : إنه سمع النبى ﷺ يقول : هذه صلاة المنافق يجلس يشاهد الشمس ، حين تصفر الشمس وتصل إلى مفرق قرنى الشيطان يقف ويصلى أربع ركعات كنقر الدجاجة تخلو من ذكر الله (٣) .

وصلاة الخشوع هى صلاة مليئة بالهيبة ومليئة بالكيفيات . يقول عقبة بن عامر إن النبى ﷺ قال : من توضأ بطريقة طيبة ثم وقف فأدى ركعتين فيهما اتجه قلبه ووجهه كلاهما إلى الصلاة وجبت له الجنة » (٤) .

---

(١) يقصد المؤلف قوله تعالى : « قد أفلح المؤمنون الذين هم فى صلاتهم خاشعون »

(٢) يقصد المؤلف قوله تعالى : « فويل للمصلين الذين هم عن صلاتهم ساهون » .

(٣) رواه النسائى .

(٤) رواه مسلم .

وهكذا يروى عن عثمان بن عفان رضى الله عنه أن الرسول قال : « من توضأ وضوئى ثم يصلى ركعتين لا يحدث فيهما بشىء غفر له ما تقدم من ذنبه » (متفق عليه) .

وحين ينشغل الانسان بعمل هو مغرم به وله جاذبية خاصة عنده، فإنه ينجذب اليه بطريقة ينسى فيها كل ما حوله ، وكل من حوله ، وهذا هو الأمر المطلوب فى الصلاة ، فرفع اليد فى بداية الصلاة علامة على أن المصلى الآن يترك كل ما حوله ، ويدخل فى دنيا أخرى ، وهو يغرق ويذوب فى تسبيح ربه وفى مناجاته له وفى دعائه له حتى تنتهى مراحل لقاء العبودية بالربوبية تماما ، وبعد أدائه للصلاة يلتفت يمينا ويلتفت يسارا ليقول السلام عليكم ورحمة الله ، وهذا يعنى أنه يخرج نفسه من دنيا ليعود إلى الحالة التى كان يعيش فيها قبلا ، وهو يسلم على الحاضرين .

لقد قسم الفقه الصلاة إلى اقسامها ، فقسمها إلى فرض وواجب ومندوب ومستحب وسنة ونفل ومؤكدة وغير مؤكدة ، إلا أنه فى دنيا الحقيقة لا يوجد للصلاة مثل هذا التقسيم ، فاذا قام شخص بقياس واحصاء أقسام الصلاة طبقا للتصنيف الفقهى الخالص فإنما هو يؤدى بذلك صلاة « كمبيوتورية » لا « صلاة انسانية » فالكمبيوتر يمكن ان ينقل تماما الصلاة المقننة ، إلا أن صلاة الانسان هى اسم لعواطف ومشاعر وأحوال لا يمكن أبدا أن تصنف داخل خانات احصائية أو اطارات تقنينية ، ولا يمكن أن يعبر عنها بألفاظ القانون .

إن مراعاة الأشكال والهيئات الظاهرة للصلاة جاء التعبير عنه فى القرآن بالمحافظة على الصلاة (المعارج — ٣٤) ، فالشرط الأول للصلاة أن يدخل الانسان إلى دنيا الصلاة فى ظل هذه الأشياء ، وما يطلب من الانسان يمكن أن ينقسم إلى درجتين :

الأولى : السجود فى الصـلاة ، والسجود عـلامة على سجود الانسان أمام ربه فى الحياة العملية • ولهذا قال القرآن : « **إن الصـلاة تنهى عن الفحشاء والمنكر** » [1] •

وفى القرآن قيل لأحد الأنبياء حين دعا قومه لعبادة الله ، فنبهوه : هل تقتضى الصلاة أن يتركوا حياتهم العملية وأمورهم الاقتصادية ويلتزموا بأحكام الله :

« **يا شعيب أصلاتك تأمرك أن نترك ما يعبد آباؤنا أو أن نفعل فى اموالنا ما نشاء** » ؟ (هود — ٨٧) •

والسجود والركوع فى الصلاة هو كقولك لله ، يا سيدى لتأمرنى بما تشاء ، فسوف أنفذ اوامرك ، ولهذا جاء فى النصوص ما يفيد أن من يتبع الشهوات مع الصلاة فصلاته خالية من روح الصلاة ذاتها •

والدرجة الثانية وهى أعلى الدرجات هى أن يصبح ذكر الله جزءاً من نفسه ونفسياته فيحلق ذكر الله فوقه ويحيط به حتى يصل بذلك إلى مرحلة الشهود وتطرأ عليه حالة الحضور :

« **واسـجد واقترب** » •

وما جاء فى القرآن من ذكر « لمقام اليقين » قال عنه البعض إن الصلاة هى المقصودة بالمقام الأعلى •

« **واعبد ربك حتى يأتيك اليقين** »(الحجر — ٩٩) •

وليس المقصود من « حتى » هنا هو حد الانتهاء من الصلاة بعد الوصول إلى مقام اليقين ، ثم نبدأ بعد ذلك صلاة أخرى •• اذ كيف يمكن أن تنتهى الصلاة ؟! هذا فى الاصل إيضاح لانتهاء كيفية الصلاة وليس لانتهاء صورة الصلاة •

---

(١) العنكبوت — ٤٥ •

ترى ما هو الاقتراب أو مقام اليقين ؟ إن هذا لا يمكن التعبير عنه بالألفاظ ، فحين يصل الانسان إلى هذا المقام يشعر وكأنه يرى حقيقة غير مرئية بيقين كامل ، وأن شيئا ما يتراءى له من بعيد إلى أن يصبح قريبا جدا ، وينشغل العبد فى حديث ناجح دون وجود مخاطب وتعتلج بداخله عواطف المحبة ، أعظم محبة ، وأقوى محبة لتحقيق أمر مهيب لا يصل إلى هيبته أمر آخر ، أمر لا يمكن أبدا أن يشعر به بأية وسيلة أخرى ، فهو يصل اليه بدون وسيلة ما أو واسطة .

والسجود الذى هو منتهى الاندماج فى الصلاة هو منتهى حالة القرب من الله ، وهو بعيد كل البعد عن « وحدة الوجود » ذلك المصطلح الذى أطلق — فى شكله الأول — غالبا — للتعبير عن هذه الكيفية فقط، التى تطرأ على الانسان حين يغرق فى ذكر الله ، إلا أنه بعد ذلك أوصلت محاولات التحديد المنطقى الامر إلى درجة الفاسفة العقيمة التى لا تفهم والمتمثلة فى عبارة « هو كل شىء » وبالتالى تم التسليم لدى بعض الفلاسفة المنحرفين بهذه العقيدة السيئة وأخذت ترتبط بمفهوم الارتباط الحسى المحض .

أقول إن الكيفيـــة التى تطرأ على الانســـان وقت السجود ، (والاقتراب هو التعبير الأقرب على اللسان البشرى لإظهار هـــذه الحالة) تتحقق لحظة تسلمك هيئة السجود التى تعنى تمام العجز والخضوع إلى كمال لا حد له . حتى تضع جبهتك على الأرض وكأنك التصقت بها وحينئذ يطرأ عليك شعور واحساس كأن هناك قطرة من ماء وضعت نفسها فى بحر واسع ، وكأن الانسان قد امتزج بالله .

ما هو المراد بالصلاة الحقيقية المطلوبة فى شكل ذكر دائم ؟ من الصعب بل لا يمكن أن يوضع لها فهرس أو توضع لها قائمة فهى عمل ينقسم إلى شقين : الشق الأول يتعلق بالعبد ، والشق الثانى خاص

بالرب ، فالعبد حين يذكر ربه فى قيامه وقعوده ، فى نومه وفى يقظته (آل عمران ــ ١٩١) ينال رعاية الله ، وينال من الله بصفة خاصة كيفيات الذكر ، وكلمات الذكر ، وهو ينال على المستوى النفسى فى كل لحظة رزقاً جديداً من ربه .

ومن الواضح أن هذا النوع من الكيفيات والأرزاق لا يمكن أن يفرد له فهرس خاص إلا أنه يوجد له علامات ذكرت فى القرآن الكريم أهمهـــا :

١ ــ أن يكون الله موجوداً فى تصور العبد دائما حتى أن كل حدث يذكره دائما بالله **« الذين يذكرون الله قياماً وقعوداً وعلى جنوبهم ويتفكرون فى خلق السماوات والأرض ربنا ما خلقت هذا باطلا »** . (آل عمران ــ ١٩١)

٢ ــ أن تسيطر عليه عظمة الله لدرجة أنه يرتعد من خشية الله **« تقشعر منه جلود الذين يخشون ربهم »** **(الزمر ــ ٢٣)**

٣ ــ اذا ما ذكر الله وجل قلبه « الذين إذا ذكر الله وجلت قلوبهم» (الانفـــال ــ ٢)

٤ ــ يبكيه كلام الله **« ترى أعينهم تفيض من الدمع مما عرفوا من الحق »** (المائدة ــ ٨٣)

٥ ــ تصبح الصلاة بالنسبة له أمراً مســاعدا وقت الحــاجة **« يا أيها الذين آمنوا استيعنوا بالصبر والصلاة »** . (البقرة ــ ٤٥)

ويحكى عن حذيفة أن النبى ﷺ كان يصلى اذا واجهته مشكلة (اذا حزبه أمر فزع إلى الصلاة) وهذا هو شأن الصالحين فى هذه الأمة

على الدوام ، ويقال عن ابن تيمية انه كان اذا واجهه أمر لا يفهمه ذهب إلى مسجد خال فيصلى ويقول فى السجود : « يا معلم ابراهيم علمنى » ، وينقل أبو نعيم عن ابن مسعود أنه قال :

« مادمت فى صلاة فأنت تقرع باب الملك ومن يقرع باب الملك يفتح له » .

فالصلاة هى واحة المؤمن فى صحراء الحياة ، حين تهيمن عليه تصبح أحب الاشياء عنده ، قال ﷺ : « جعلت قرة عينى فى الصلاة » (رواه النسائى) ، وكان اذا دعا مؤذنه بلال للأذان قال له (أرحنا بها يا بلال) (رواه أبو داود) .

وهذه الصلاة لا يمكن أن ينالها المرء بقيامه بالصـــلاة اليومية فيختم القرآن مرة أو مرتين ، بل يمكن للانسان القيام بهذا أولا يسمى الأمر صلاة فمع تلاوته للآيات فى الصلاة لابد من التفكر ولابد من التدبر . فأصل الأعمال الشرعية قائم على الكيفية وليس على الكمية ، وقرأة القرآن لا تعنى أن يتلو الانسان كلماته وآياته ، بل يجب أن يخرج ذكر الله من أعماق قلبه . ومن هنا لا يمكنه أن يختم القرآن مرة أو عدة مرات فى اليوم . وكان النبى ﷺ يقضى ليلة كاملة احيـــانا يتلو سورة واحدة ، وينقل الامام أحمد عن عائشة رضى الله عنها أنها ذكرت أن بعض الناس يقرأون القرآن كله مرة أو مرتين فقالت : اولئك قرأوا ولم يقرأوا ، لقد قمت مع رسول الله ﷺ الليل كله فقرأ فقط سورة البقرة وآل عمران والنساء ، فكان اذا بلغ آية فيها من الوعيد والتهديد دعا الله وطلب اللجوء اليه وكان اذا بلغ آية فيها بشارة دعا الله أن يمنحه البشرى !!

الزكـــاة

أصل الزكاة أو الانفاق هو الإيثار (١) (الحشر — ٩) فالله تبارك وتعالى يريد أن يشعر كل شخص بأن عليه حقاً للآخرين • وأن ينشأ مجتمع على استعداد للعطاء بدلا من الأخذ ، وأن يتطلع الجميع فيه إلى تحقيق الفائدة للأخرين بدلا من النيل منهم ، وأن يولد لدى كل فرد شعور بأنه لا حق له فى هذه الدنيا (٢) ، فعليه هنا مسئوليات فقط ، ولايجاد هذه الروح الاجتماعية فرضت الزكاة ، وللزكاة أهمية كبيرة فى النظام الدينى ، فحين حضر بشير ابن خصاصة إلى رسول الله ﷺ للبيعة ، سأل الرسول ﷺ : يا رسول الله على أى شىء تبايعنى ان الصدقة والجهاد أشياء صعبة بالنسبة لى ، فأعفنى منها ، فرفع رسول الله ﷺ يده وقال : يا بشير « إلا الصدقة والجهاد فبم إذن تدخل الجنة » ؟! (رواء أحمد) •

والفتنة التى ظهرت بعد وفاة الرسول ﷺ ، كان ذلك سببها ، فقد كانت السبل الاقتصادية لدى العرب قديما محدودة للغاية ، ولهذا رغبت بعض القبائل أن تحذف الزكاة من بين فرائض الاسلام ، كما فكرت بعض القبائل المسلمة حديثا فى خلع طاعة الحكومة الاسلامية •

وقالوا : لقد مات هذا الرجـل الذى كانت العرب تنتصر به ، (يقصدون الرسول) (كنز العمال جـ ٣ ص ١٤٢)

---

(١) يقصد المؤلف قوله تعالى (ويؤثرون على أنفسهم ولو كان بهم خصاصة) • المراجـع) •

(٢) الا فى الاطار الذى حدده الاسلام وهو اطار بجعل الواجبـات مقـدمة على الحقوق (المراجـع) •

ومع أن هذه القبائل كانت قد أنكرت الزكاة فقط واعتبرت نفسها مسلمة كالعادة ، فالتزمت بالصلاة والصوم أيضا إلا أن الخليفة الأول قال : « والله لأقاتلن من فرق بين الصلاة والزكاة فإن الزكاة حق المال» .

« ان كل ما فى الأرض والسماء هو ميراث الله » [1] (الحديد ٧) « والرزق كلـه رزق الله » [2] (الملك — ١٥) والمـال كله مال الله [3] (النور — ٣٣) ومالنا له هو كله من عند الله [4] (الاسراء — ٢٠) . فلو كان الله قد جعل المال والمتاع كله نصيبا له لكان هذا حقه كاملا ، لا يملك أن يعترض عليه معترض إلا أنه قرر فقط أن ينال جزءاً بسيطاً منه ، وأن يهبنا البقية . **« وآتوا حقه يوم حصاده »** . (الانعام ١٤١)

لقد فرضت الزكاة شرعاً فى السنة الخامسة للهجرة إلا أنها كانت مطلوبة منذ اليوم الأول بشكل غير محدد وهكذا وجد ذكر الزكاة فى السـور المكية ، كما ورد فى سـورة (المؤمنون) : **« والـذين هم للزكاة فاعلـون »** وهكذا جاء فى حق المشركين فى سورة فصلت [5] **« الذين لا يؤتون الزكاة »** ، وفى السنة الخامسة للبعثة النبوية حين هاجرت جماعة من مسلمى مكة إلى الحبشة قام جعفر بن أبى طالب بالتعريف بنبى الاسلام فى بـلاط نجاشى الحبشة ، وكان من جملـة ما قاله :

---

(١) يقصد قوله تعالى : (وانفقوا مما جعلكم مستخلفين فيه) .

(٢) يقصد (هو الذى جعل لكم الأرض ذلولا فامشوا فى مناكبها وكلوا من رزقه) .

(٣) يقصد (وآتوهم من مال الله الذى آتاكم) .

(٤) يقصد (كلا نمد هؤلاء وهؤلاء من عطاء ربك وما كان عطاء ربك محظورا) . (المراجـع) .

(٥) المراد سورة فصلت .. الآية ٧ (وويل للمشركين . الذين لا يؤتون الزكاة وهم بالآخرة هم كافرون) (المراجع) .

« وأمرنا بعبادة الله ، وإقام الصلاة ، وايتاء الزكاة » كان هذا في البداية حكما عاما ، وبعد فترة تم تحديد مقاديرها واعتبرت واجبة وتقرر إمكانية تحصيلها من أجل الدولة تماما كما تحصل الضرائب ، والآن تحدد المفهوم الواجب للزكاة شرعا وأصبح مفهوما واحدا ، ولما كانت الصدقة لا تعني « الضريبة » بل هي عبادة حرة ، ومن هنا كان لها مفهوم واسع ، ومن هذا الاعتبار ، فلا حد لها ، فالانسان ينفق على قدر طاقته مما يملك من مال من أجل مرضاة الله ، تقول فاطمة بنت قيس إن رجلا من المسلمين سأل رسول الله ﷺ عن هذا الأمر فقال الرسول : « ان في المال حقاً سوى الزكاة » (رواه الترمذي) ، كما أشار القرآن الكريم إلى ضرورة الإنفاق مما يتبقى بعد استكفاء الحاجات الضرورية .

« يسألونك ماذا ينفقون قل العفو » . (البقرة ٢١٩)

وللزكاة أو للانفاق صورتان : الأولى : الصدقة والثانية : ما يقال لها « القرض الحسن » .

« إن المصدقين والمصدقات وأقرضوا الله قرضا حسناً يضاعف لهم ولهم أجر كريم » (١) . (الحديد — ١٨)

والمراد بالصدقة **« إطعام المسكين » « ولم نك نطعم المسكين »** (المدثر — ٤٤) أي الانفاق من أجل تلبية الحاجة الضرورية للمحتاجين، وعلى العكس من هذا فالمراد من القرض الحسن الإنفاق الذي يكون في سبيل الله ، أي (تقوية الدين واعلاء شأنه) فغاية ما يطلبه الله من عباده هو نشر دينه ورفع رايته والانسان ينال ثوابا كبيراً ببذله روحه

---

(١) جاءت كلمتا « المصدقين والمصدقات » في حق القسم الاول ، إلا أنه بالنسبة لذكر القسم الثاني من الناس يتغير الاسلوب الى « القرض الحسن » وهذا اسلوب القرآن للاشعار بأن الامرين متغيران .

وماله ، ولأن الهدف الأساسى لهذا الانفاق ليس مقدما لسد احتياجات الانسان بل مقدم لدين الله ومنفق فى سبيل اعلاء كلمة الله ، لهذا اعتبره الله قرضاً يؤدى حقه لعباده .

ومقدار الانفاق يتحدد فى شكل الزكاة ، إلا انه لا يوجد أى مقدار محدد « للقرض الحسن » بل يكتب الله سبحانه أسماء أصحابها فى قائمة المجاهدين بالمال ، أو الدعاة والشهداء ، وسيضمهم الصف الأول لأهل الايمان ، لأنهم قد أسلموا أنفسهم وما يملكون إلى الله .

يقول القرآن الكريم :

« أن الله اشترى من المؤمنين أنفسهم واموالهم بأن لهم الجنة » .

(التــوبة — ١١١)

ففى غزوة تبوك (٦٣٠ م) قدم أبو بكر الصديق رضى الله عنه جميع أمواله ، وقدم عمر رضى الله عنه نصف ماله ، وقدم عثمان رضى الله عنه ألف جمل وسبعين فرساً ، وعشرة آلاف دينار ، وبها تم إعداد ثلث نفقات الجيش .

هذا هو نوع الإنفاق الذى جاء ذكره فى القرآن الكريم بعبارة إنفاق « فى سبيل الله » (الحديد — ١٠) وجاء فى القرآن الكريم : **« وأنفقوا فى سبيل الله ولا تلقوا بأيديكم إلى التهلكة »** . (البقرة ١٩٥) ذلك لأن أهل الاسلام إن لم ينفقوا فى سبيل رفع راية الاسلام فهم يقضون بأنفسهم على حياتهم الاجتماعية . ولا يمكن أن تقوم لهم قائمة فى الدنيا كأمة ، وقد بشر القرآن المنفقين بمضاعفة ثواب الإنفاق إلى سبعمائة مرة ، بل وأكثر من هذا . فطبقا لما جــاء فى (الطبراني) فإن معاذ بن جبل أورد حديثاً يتعلق بالثواب العظيم لذكر

الله ، والإنفاق فى سبيل الجهاد فى سبيل الله وبعده يروى الطبرانى ما يلى :

« قال عبد الرحمن فقلت لمعاذ إنما النفقة بسبع مائة ضعف فقال معاذ قل فهمك إنما ذلك اذا إنفقوها وهم مقيمون بين أهليهم غير غزاة فإذا غزوا وأنفقوا خبأ الله لهم من خزائنه رحمة ما ينقطع عنه علم العباد وصفتهم » .

والزكاة من الناحية الشكلية ضريبة ، ومن الناحية الحقيقية عبادة، ولهذا فمن حق الدولة أن تتبع أسلوبا إجباريا فى جمعها تماما كما تجمع الضرائب الخاصة بقانون المالية ، إلا أن فاعل الزكاة سوف ينال فائدة الزكاة الاساسية حين يؤديها وهو يشعر أن أداءه لها إنما هو عمل من أعمال العبادة ... ملتزما بالشروط التالية :

١ — أن يتوقع أجراً طيباً من الله عن طريق الصدقة ، وحين يرى من الضرورى له أن يخرج أطيب ماله فى هذا السبيل .

« يا أيها الذين آمنوا أنفقوا من طيبات ما كسبتم ومما أخرجنا لكم من الأرض ولا تيمموا الخبيث منه تنفقون ولستم بآخذيه إلا أن تغمضوا فيه » (البقرة — ٢٦٧)

وقد أرادت السيدة عائشة أن تتصدق بلحم قديم عديم المذاق فقال لها النبى ﷺ : « أتتصدقين بما لا يمكن أن تأكلى » (رواه أحمد).

٢ — أن ينفق بقلب خاشع خالص .. قال تعالى :

« والذين يؤتون ما آتوا وقلوبهم وجلة » (المؤمنون — ٦٠)

وقال : « ويطعمون الطعام على حبه مسكيناً ويتيما وأسيراً ، انما نطعمكم لوجه الله لا نريد منكم جزآء ولا شكوراً ، انا نخاف من ربنا يوما عبوساً قمطريراً » (الانسان — ٨)

٣ — أن لا يمنوا على من يعطونه الصدقة ولا يقولوا لهم ما يؤذى مشـــاعرهم .

« الذين ينفقون أموالهم فى سبيل الله ثم لا يتبعون ما أنفقوا مناً ولا أذى » (البقرة — ٢٦٢)

٤ — أن ينفق المسلم بطريقة لا يشعر فيها أنه وهو ينفق فى سبيل الله انما يصاب بضرر اقتصادى أو يشعر بثقل أو عبء مما قدمه !!

« ومثل الذين ينفقون أموالهم ابتغـآء مرضات الله وتثبيتا من أنفســهم » (البقرة — ٢٦٥)

٦ — أن تقدم الصدقات سراً ، لان ذلك أطيب (البقرة — ٢٧١)، وقد كان الصحابة يتفننون فى إخفاء صدقاتهم ، جاء فيما يتعلق بعبد الرحمن بن ثابت أنه نال منحة فاشترى طعاما لأهل بيته قدر الطعام الضرورى لهم ، ثم تصدق ببقية المبلغ ، فلما سألته زوجته : ماذا حدث لبقية المبلغ ؟ أجاب الصحابى : (لقد أقرضته) . وهذا النوع من الإخفاء والسرية كان يخلق داخل البيت حساسيات كان الصحابة يعملون على تلاشيها بطريقة تتضح من الحادثة التالية :

عن حسان بن عطية قال : لما عزل عمر بن الخطاب معاوية عن الشام بعث سعيد بن عامر بن جذيم ، فخرج معه بجارية من قريش نضيرة الوجه ، فما بعث إلا يسيراً حتى أصابته حاجة شديدة ، قال فبلغ ذلك عمر رضى الله عنه فبعث اليه بألف دينار . قال فدخل بها على امرأته فقال ، ان عمر بعث الينا بما ترين ، فقالت لو أنك اشتريت لنا اداماً وطعاما وادخرت سائرها ، فقال لها أولا أدلك على أفضـــل من ذلك ؟ ندفعها إلى من يأتينا بها أحوج ما نكون اليها .

(أبو نعيم ، حلية الاولياء مجلد ١ ص ٢٤٤)

ويحكى الراوى بعد ذلك أنه تصدق بالأموال كلها فى صمت . وعرفت الزوجة فبدأت تبكى وعقدت الأمور داخل البيت وحاول الرجل أن يفهم زوجته ، وقال لها فى النهاية : (إننى لا أستطيع أن أوثرك على رضا الله والجنة .. فاختارى لنفسك ما تشائين فقد اخترت لنفسى الجنة) .

وفى النهاية سكتت الزوجة ورضيت !!

لقد زاد شوق الصحابة للحصول على رضا الله بالانفاق فى سبيله لدرجة أن رسول الله قال ذات مرة : تصدقوا « فإننى أريد أن أبعث بعثا » (١) ، ولم يكن لدى أبى عقيل الأنصارى أى شىء ، فظل يسقى حديقة أحد الناس طوال الليل ، وأخذ اجره فى الصباح صاعين من بلح (٢) ، فترك صاعاً لأهل بيته وأخذ الأخر فقدمه لرسول الله ﷺ وكان سعد بن عبادة قد خطط أن يذهب للجهاد لمدة سنة ويقوم ابنه قيس على شئون البيت ، ثم يذهب ابنه للجهاد ويقوم هو على شئون البيت بالتبادل ، أما كيف ربى أولاده وعلمهم فيمكن ان نفهم ذلك من هذه الحادثة ، لقد وصل إلى رسول الله ﷺ ضيوف كثيرون ، وفى ذلك الوقت كان سعد بن عبادة يجاهد مع جند رسول الله فوصله الخبر فقال : « إن يك قيس ابنى فسيقول يا نسطاط ! هات المفاتيح أخرج لرسول الله ﷺ حاجته ، فيقول نسطاط ، هات من أبيك كتابا ، فيدق أنفه ، ويأخذ المفاتيح ويخرج لرسول الله ﷺ حاجته » (الإصابة).

وهذا ما حدث فعلا ، فقد قام قيس بتقديم مائتى وسق من البلح لرسول الله ﷺ ، ليقدمها لضيوفه .

وقد بين أبو ذر الغفارى أهمية الصدقة بطريقة حكيمة جداً

---

(١) أريد ان أرسل جيشا « المترجم » .

(٢) حوالى خمسة ارطال (٢ كيلو تقريبا) .

فقال : فى المال ثلاثة شركاء : القدر لا يستأذنك أن يذهب بخيرها وشرها فى « الهلاك » ولا يستأذنك فى الموت ، والوارث ينتظر أن تضع رأسك ثم يسوقها وأنت ذميم ، فان استطعت أن لا تكون أعجز الثلاثة فافعل ، فإن الله عز وجل يقول : « **لن تنالوا البر حتى تنفقوا مما تحبون** » . (حلية الاولياء مجلد ١ صفحة ١٦٣)

ويروى أنس رضى الله عنه أن عائشة رضى الله عنها كانت فى بيتها فى المدينة فسمعت صياحاً ، فسألت فقيل لها : إنها قافلة تجارة عبد الرحمن بن عوف قادمة من الشام ، وكانت تضم سبعمائة جمل محملة بالأمتعة ، فقالت عائشة : سمعت رسول الله ﷺ يقول : « رأيت عبد الرحمن بن عوف وهو يدخل الجنـــة » فوصـــل هذا الأمر إلى عبد الرحمن بن عوف فقال : إذا كان الأمر هكذا فسأدخل الجنة ، وبعدها قدم القافلة بما تحمل من تجارة ومتاع فى سبيل الله ، ويقول عبد الرحمن بن ثابت : سمعت رسول الله ﷺ يقول : (سيجمع الله الناس للحساب يوم القيامة ، فيأتى فقراء المؤمنين يتبخترون كمـــا تتبختر الحمامة ، فيقال لهم : انتظروا الحساب فيجيبون : لا حساب لنا ، فأنت لم تعطنا شيا . فيقول ربهم : « صدق عبادى » افتحوا لهم أبواب الجنة ، ويدخل الناس الجنة بعدهم بسبعين سنة) .

وقد جاء ذكر حكم الزكاة فى القرآن مقابلا للربا فتذكر الآية الكريمة أن الله يزيد الزكاة ويمحق النظام الاقتصادى القائم على الربـــا .

« **يمحق الله الربا ويربى الصدقات** » . (البقرة ٢٧٦)

وجاء فى آية أخرى :

« **ومآءاتيتم من ربا ليربوا فى أموال الناس فلا يربوا عنـــد الله وماءاتيتم من زكاة تريدون وجه الله فاولئك هم المضعفون** » .

(الـــروم ـــ ٣٠)

وفى موضع آخر تذكر الآية الكريمة أن المتعامل بالربا لا يمكن أن يثبت على حال ولا يمكن أن تقوم له قائمة :

« الذين يأكلون الربا لا يقومون إلا كما يقوم الذى يتخبطه الشيطان من المس » (البقرة — ٢٧٥)

وهكذا ورد أيضا فى الحديث أن الأمة حين تترك الزكاة ، يبتليها الله بالقحط والجفاف (أوسط الطبرانى) . فالنظام الاقتصادى الذى وضعه الله تعالى ، يصاب بالخلل اذا ما مسه الربا ولهذا صدر الأمر بالجهاد ضد الربا (البقرة — ٢٧٨) (1) .

والسبب فى هذا الفرق بين الزكاة والربا ، أنه بالزكاة تدور الثروة ، وبالربا يكون ارتكاز الثروة او تجمعها داخل مركز واحد . فالنظام الذى يقوم على اساس الزكاة يقوم على أساسين اقتصاديين فى وقت واحد : أولهما أنه بدلا من جمع الذهب بالذهب يصبح من الأفضل جمع الذهب بالعمل ، والثانى : الحيلوله دون كنز الثروة وتكديسها لان الزكاة توضع على رأس المال (وليس مثل ضريبة الدخل الحالية المقررة على المنفعه فقط) ، وهكذا فلن يتكدس رأس المال دائما فى مكان واحد ، وعلى العكس من هذا فبالنسبة للربا يصبح هذان الأساسان الاقتصاديان متناقضين ، فنتيجة للربا يبدأ الحصول على الذهب بالذهب ومعناه أن من تأتى الثروة فى يده مرة فسوف يعمل بالضرورة على زيادتها دون أن يحقق أى نوع من أنواع الإضافة للاقتصاد العام ، وهذا الشىء سيخلق نوعا من السطوة الاقتصادية لا يتوقف مداها عند أى حد ، هذا بالاضافة إلى أنه فى نظام الربا لا يوجد أى عامل يمنع من تجميع الثروة بصورة مستمرة فى مكان واحد .

---

(1) يقصد قوله تعالى (يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله وذروا ما بقى من الربا) الى آخر الايات .

الحــــج

حقيقة الحج وجوهره يتلخصان فى (التضحية) فمن أجل الحج يسافر الإنسان ، وهذه تضحية بالوقت ، ثم يتحمل نفقات الســفر وهذه تضحية بالمال ، وينحر الحاج ضحيته وهذه تضحية بالروح ، ويسعى ويطوف ، وهذا معناه أنه قد قصر جميع أعماله من كل جوانبها على الله فقط .

إنها مهمة ربانية يقدم فيها المؤمن جميع هذه التضحيات ويرفع اسم الله عاليا فى الدنيا « **فإذا قضيتم مناسككم فاذكروا الله كذكركم آباؤكم أو أشد ذكرا** » (البقرة ـــ ٢٠٠)

وقال النبى ﷺ : (انما جعل رمى الجمار والسعى بين الصفا والمروة لإقامة ذكر الله) (المشكاة ، كتاب المناسك)

لقد عرض القرآن علينا رسالة الحج من خلال صورة حيــاة الداعية الأعظم سيدنا ابراهيم عليه السلام (٢١٦٠ ـــ ١٩٨٥ ق ٠ م) ذلك الذى وقف حياته كلها على المهمة الربانية التى كان منتهاها أن يضحى بابنه على هذا الطريق ، وكل عمل من أعمال الحج يذكرنا بحياة هذا الداعية الأعظم .

« قفوا على مشاعركم فإنكم على إرث من إرث أبيكم ابراهيم » (المشكاة ـــ كتاب المناسك)

وحياة سيدنا ابراهيم التى كانت كلها حياة دعوة ، انما تكرر لنا بطريقة مميزة بعض المراحل التاريخية ، فالحاج يأخذ على نفسه **عهداً مع الله أنه سيقصر حياته كلها (كما فعل سيدنا ابراهيم) على**

تبليغ دعوة الحق ونشر الدين ، وأن يثبت عليه فى كل حال من الأحوال حتى لو لم يمر بجميع هذه المراحل التى مر بهـا سـيدنا ابراهيم عليه السـلام .

لقد سأل رجل رسول الله ﷺ فقال : ما الحاج ؟ قال : الشعث التفل ، فقام آخر فقال يا رسول الله أى للحج أفضل ؟ قال : العج والثج . (المشكاة ـ كتاب المناسك)

وبألفاظ أخرى فالحج الذى يتم دون ترتيب وبأعمال مجنونة إنما هو حج تتم مراسمه بلا روح ، ولا يتعلق أبداً بأصل حيـاة الإنسان ، هذا فى الأصل تصوير للاندفاع الموجه ، ومظهر لعزم يصل إلى حد التضحية بالروح، وكأن العبد وهو يؤدى مناسك الحج إنما يعرض نفسه على ربه ، والسفر إلى الحج يعنى التضحية بالوقت ، والتضحية بالمال .

والإحرام دليل على أن العبد قد جرد يده من كل شىء عـدا الاحتياجات الضرورية .

والطواف والسعى تصوير لتقديم الإنسان نفسه وجسده وقلبه وعقله من أجل رب الكعبة .

ورمى الجمار مظهر للسلوك الذى يتبع مع أعداء الله ، وهو أنه لا يمكن أن يكون هناك مصالحة معهم أو تعاون ، بل هو الاختلاف والتصـادم .

وتقديم الذبيحة أو الأضحية عهد مع الله على الفداء وتقـديم الروح من أجل الله .

والوقوف فى ميدان عرفات هو تمثيل لجمع البشر جميعا أمام الله فى ميدان الحشر .

وهكذا فعن طريق الأعمال المختلفة للحج يلقن الإنسان دروساً فى بذل الروح والتضحية ، واستحضار الله والآخرة ، ويغرس الاسلام بداخل العبد عشقا لمولاه حتى ينطلق فيعمل فى سبيله بطريقة مجنونه من أجل مرضاته .

إن اركان العبادات الأربعه للاسلام هى وسيلة لايجاد كيفية مشتركة وهى ان يوجه الإنسان قلبه وجسده إلى خالقه ، وأن يفهم ان هدف حياته ليس إلا مرضاة الله ، والصوم يضع هذه الكيفية فى شكل حاجات طبيعية ، والصلاة تحرك هذه الكيفية عن طريق جوانح الإنسان وجوارحه ، وفى الزكاة يتم الحصول على هذا الهدف من الناحية المالية ، وفى الحج يتم الحصول على هذه الكيفية المطلوبة من خلال تمثل عملى لصفحات التاريخ الاسلامى المشرقة (١) .

وعبادة الحج لها علاقة عميقة بابراهيم الخليل ، فقد ولد خليل الله فى مدينة أور بالعراق القديم ، وكان ابوه سادناً لبيت الاصنام ، فحطم الخليل الاصنام وحاجج أباه وصدح بالحق امام الملك ، فعرف القوم هذا « الضلال » وكانت النتيجة أن صاروا جميعاً أعداء له ، فاضطر إلى ان يترك البيت ، ويخرج مع زوجته « سارة » وابن أخيه لوط خارج وطنه مهاجراً ، إلا أنه لم يترك الدعوة إلى الحق ، لكن عملية الدعوة التى اقتصرت فى البداية على مدينة أور ، قد أصبحت الآن عملية منظمة على مستوى دولى ، فأرسل الخليل ابن أخيه لوطا داعيا إلى منطقة « سدوم » وهى المنطقة التى يقال لها الآن منطقة شرق الأردن ، ولنفس الهدف أرسل ابنه الأصغر اسحاقاً إلى منطقة كنعان والتى تعرف اليوم باسم فلسطين ، وعين ابنه الأكبر اسماعيل

---

(١) المعنى اللغوى للحج هو القصد ، حججت فلانا اى ذهبت لفلان ومن أجل هذه العبادة يخرج المسلمون من بلادهم من كل انحاء العالم ، يصلون الى مكان خاص ، ولهذا سمى بالحج ، وهذا اللفظ كان موجودا زمان الجاهلية قبل الاسلام .

على منطقة مكه بالحجاز ، وأسس فى مكة مركزاً للاسلام « بيت الله »، ودعا الله قائلا : إنه جاء بأولاده إلى واد غير ذى زرع ، وذلك لنشر الدين الحنيف ، فأخرج الله من نسلهم نبيا يدعو الناس إلى الحق (البقرة — ١٢٩) وكانت نتيجة هذا الدعاء الابراهيمى أن ولد نبى آخر الزمان (محمد ﷺ) من نسله من فرع اسماعيل .

عاش ابراهيم عليه السلام ١٧٥ سنة وانتشرت دعوته من مدينة أور إلى مكة لمدة قرن تقريبا ، أما المراحل التى مر بها فى حياته من أجل الدعوة فقد تم اختصارها لتصبح رمزاً ، وذلك فى صورة الحج ومراسمه فالسفر والوصول إلى مركز الاسلام ، والطواف ببيت الله الحرام والسعى بين الصفا والمروة والسير إلى منى ، والقيام فى ميدان عرفات ، وقضاء ليلة فى المزدلفة ، ورمى الجمرات ، والتضحية فى منى‌ما هذا كله ؟ هذا كله يمثل المراحل التاريخية لحياة الدعـوة التى مر بها ابراهيم عليه السلام ، تلك التى تقوم باعادة تربيتنـا فالله تعالى فرض على المسلمين فى كل فترة أن يعيدوا هذه الأحداث فيجددوا بذلك عهد الدعوة .

« وفديناه بذبح عظيم وتركنا عليه فى الآخرين » .

(الصافات — ٨)

ويذكر القرآن الكريم أن ابراهيم عليه السـلام حين مر بكل أنواع الاختبارات والمحن وظل قائما على مهمة (دعوة الحق) فى جميع الأحوال فثبته الله تعالى فى مكانة الإمامة التى أعدها له ، وكانت فى علم الله .

« وإذ ابتلى ابراهيم ربه بكلمات فأتمهن قال إنى جاعلك للناس إماما .

(البقرة — ١٢٤)

وليس المقصود بالإمامة الحصـــول على ســـلطة سياسية بل الحصول على منصب يؤهله لايصال رسالة الهداية الالهية إلى الناس ويذكر القرآن الكريم ابراهيم ولوطاً واسحاق ويعقوب عليهم للسلام بالامامة فيقول :

« وجعلناهم أئمة يهدون بأمرنا واوحينا اليهم فعل الخيرات »
(الانبياء – ٧٣)

وهذه الإمامة واسمها الثانى « النبوة » ظلت مستمرة فى نسل سيدنا ابراهيم من بعده ، ففى البداية جاء اسحاق ابنه وأرشد الناس إلى مرضاة الله وكان آخر الأنبياء من نسله عيسى عليه السلام ، وبعده بعث محمد ﷺ (٥٧٠ – ٦٣٢ م) من أسرة اسماعيل بن سيدنا ابراهيم ، وبمحمد ﷺ انتهت سلسلة الرسل ، واكتمل الدين ، وحفظ العالمين ، وسلم إلى الأمة المحمدية ، وأصبحت مسئولية الأمة المحمدية أن ترشد عباد الله جميعهم إلى طريق مرضاة الله حتى يوم القيامة **« وجاهدوا فى الله حق جهاده هو آجتباكم »** !!

وكانت خلاصة تعاليم الصحيفة التى قدمت لســـيدنا ابراهيم كما يلى :

« أم لم ينبأ بمـــا فى صحف موسى ، وابراهيم الذى وفى ، ألا تزر وأزرة وزر أخرى • وأن ليس للانســـان إلا مـــا سعى • وأن سعيه سوف يرى ، ثم يجزاه الجزآء الأوفى ، وأن إلى ربك المنتهى » •
(النجم – ٣٦ – ٤٢)

فهذه هى أهم قضايا الإنسان عند الله ، ولهذا أخذ الله عهداً على جميع الأنبياء أن يرشدوا الإنسان بتلك الحقيقة بأى ثمن •

« وإذ أخذنا من النبيين ميثاقهم ومنـــك ومن نوح وإبراهيم وموسى وعيسى بن مريم ، وأخذنا منهم ميثاقا غليظا ، ليسال الصادقين عن صدقهم وأعد للكافرين عذابا اليما » (الاحزاب ٧ — ٨)

وكان من نتيجة الدعاء الابراهيمى (البقرة — ١٢٩) (١) ان بعث الله نبى آخر الزمان ، وحمله القرآن العربى ، وأصبحت من مهامه تعريف أهل مكة وبقية العرب بهذه الحقيقة :

« وكذلك أوحينا اليك قرآناً عربيا لتنذر أم القرى ومن حولها وتنذر يوم الجمع لا ريب فيه فريق فى الجنة وفريق فى السعير » .
(الشورى ٧ — ٨)

وقد أرسل القران إلى العرب بلغتهم ، على ان « يلحق » معهم بقية الأمم التى تؤمن وتشترك معهم بالتبعية :

« هو الذى بعث فى الأميين رســولا منهم يتلــو عليهم آياته ويزكيهم ويعلمهم الكتاب والحكمة وان كانوا من قبل لفى ضلال مبين ، وآخرين منهم لما يلحقوا بهم وهو العزيز الحكيم ، ذلك فضــل الله يؤتيه من يشاء والله ذو الفضل العظيم » . (الجمعة ٢ — ٤)

وكان من جملة الدعاء الذى رفعه ابراهيم وقت تعمير الكعبة :
« فاجعل أفئدة من الناس تهوى اليهم » (ابراهيم — ٣٧) أى اجعل هذا المكان مركزاً لعبادة الله ، وهكذا أرادت مشيئة الله فى زمان سيدنا ابراهيم ان تصبح مكة مركزاً عالميا للدعوة الاسلامية وللاجتمــاع الدولى للأمة الاسلامية . « وأذن فى الناس بالحج » (الحج — ٢٧) يقول ابن كثير فى تفسير هذه الآية : إنه حين تم تعمير بيت الله فى

---

(١) هو قوله تعالى : « ربنا وابعث فيهم رسولا منهم يتلوا عليهم آياتك ويعلمهم الكتاب والحكمة » .

مكة ، أمر الله تعالى ابراهيم عليه السلام أن يعلن فى الناس أن الله أقام لهم مركزاً يجب أن يهرولوا اليه ويحجوه .

وكان الهدف من الاجتماع فى هذا المركز هو نفسه هدف الرسول وهو نفسه هدف وجود الأمــة المحمدية أى تبليغ رســالة الله إلى العــالمين .

« ان أول بيت وضع للناس للذى ببكة مباركاً وهدى للعالمين » (آل عمران ــ ٩٦)

وحتى يتحقق هذا الهدف جعلت الكعبة مكاناً لاجتماع المسلمين جميعــا ، **« واذ جعلنا البيت مثابة للناس وأمناً .** (البقرة ــ ١٢٥)

وقد عبر الله تبارك وتعالى عن المكانة الاساسية الثانية للكعبة بقــوله : **« قيــاما للنــاس »** (المائدة ــ ٩٧)

وكأن مكة هى مكان الاجتماع الدولى لأهل الاسلام . فلهذا تقرر أن يجتمع فيها جميع مسلمى الدنيا كل سنة ، وأن يعبدوا ربهم ، وأن يخططوا هناك لتبليغ رسالة دعوة الحق العالمية ، هذه هى المكانة الأساسية لبيت الله ، والأمور الأخرى ما هى إلا توابع لهذا الهدف ، كما أمر بأن يعود المسلمون بعد الحج وقــد غرست فيهم عاطفــة الشعور بعظمة الأب والجد وبالتالى يعودون من الحج حاملين لأمانة تحلية نواحى عظمــة الله **« فإذا قضــيتم مناســككم فاذكروا الله كذكركم آباءكم »** .

وأولئك الناس الذين يعدون الحج مجرد « زيارة » ويرون أن زيادة عدد مرات الحج هو من الكمال يجب أن نقرأ عليهم قول عبد الله بن عباس الذى نقله أبو نعيم :

« لأن أعول أهل بيت من المسلمين شهراً أو جمعة أو ما شاء الله أحب الى من حجة بعد حجة » (حلية الأولياء المجلد الأول)

وحتى يظل هذا المركز آمنا محفوظا وضع ترتيب خاص لضمان تأكيد سلامة الحج ، فصدر حكم شرعى بأن يكون هذا المركز قاصراً على أولئك الذين يؤمنون بالاسلام ، وأنه لا يجوز أن يدخله غيرهم .

« وعهدنا إلى ابراهيم واسماعيل أن طهرا بيتى للطائفين والعاكفين والركع السجود » (البقرة — ١٢٥)

والدعاء الذى رفعه ابراهيم إلى الله من أجل رفع شأن اقتصاد هذا المركز كان : **« رب اجعل هذا بلداً آمنا وارزق أهله من الثمرات »** (البقرة — ١٢٦) فقبل الله هذا الدعاء ، وظل هذا المركز يتمتع برفاه الحال رغم أنه (غير ذى زرع) لمدة أربعة آلاف وخمسمائة سنة .

وفى عصرنا الحاضر أثبت البترول العربى أنه نتيجة من نتائج استجابة الله لهذا الدعاء فقد دبر مالك الكائنات هذا الأمر حتى يظل هذا المركز فى عصر الصناعة Lndusterial - age بما له من (انفساح أرضى) مركزاً غنياً ثريا ، لا يفى بحاجته من البترول فقط بل جعله قادراً على أداء مسئولية الدعوة على أعلى مستوى عالمى .

ويرى العلماء الجيولوجيون أن الصدفة الجغرافية Accident of Geogrophy قد جعلت ثلث احتياطى البترول العالمى فى هذه المنطقة التى يطلق عليها بالمصطلح الحديث منطقة (الشرق الأوسط) (١) إلا أن الحقيقة أن هذا الأمر كان نتيجة للدعاء الابراهيمى الذى قال فيه ابراهيم لربه : (وارزق أهله من الثمرات) ، وبألفاظ أخرى يقدم

---

(١) هذا مصطلح استعمارى أريد به أن يشتمل على اسرائيل ، والصحيح الشرق العربى (المراجع) .

لأهله رزقا يفيض عن حاجتهم حتى يقوم أولو الأمر منهم فى كل زمان بالإنفاق على سبل الدعوة بطريقة طيبة قوية عصرية ، وحين حمل الله ابراهيم الإمامة وجعل « بيته » مقصدا للعالمين ومثابة للناس ، أمره بأن ينادى أن يجتمع المخلصون من عباد الله الصالحين فى هذا المركز ، وأن يلتقوا بإمامهم وأن « يشهدوا » منافع دينية ودنيوية لهم « **ليشهدوا منافع لهم** » (الحج — ٢٨) ، وليعبدوا الله أيضا حيث يجتمع عباد الله الصالحون مرة كل سنة فى هذا المركز الالهى ، ليبحثوا أمورهم وقضاياهم الدينية ، وليستمعوا إلى أحكام إمامهم وليستعدوا لتجديد سنة ابراهيم ، وأخيرا ليعود كل منهم إلى وطنه .

والعبادات الموجودة فى الحج هى وسيلة للحصول على قرب الله ونصرته ، وهدف الحج الأساسى هو أن يطرح الإنسان جميع قضـايا الدنيا ، وأن يحاسب نفسه ، ويستعد لبرنامج جديد من العمل الدينى، فالنبى ﷺ الذى جاء ليحيى الأمة الابراهيمية لم يقم بتصحيح أخطاء مناسك الحج فقط ، بل جعل من بيت ابراهيم مركزاً دينياً ، وفى حجته المشهورة قام ﷺ باعلان أمر الحق (خطبة حجة الوداع) فأوضح الفرائض والأحكام الدينية وأعلن نسخة بعض المعاهدات ، وحدد بعض القواعد الدولية وأشهد أمته على نفسه لآخر مرة بمناسبة الحج حين قال بعد الخطبة ، ألا هل بلغت ؟! فقال الناس : بلى يا رسول الله ، واعطى ﷺ آخر تحذير لمنكرى الحق فى يوم الحج :

« **وأذ ان من الله ورسوله إلى الناس يوم الحج الاكبر** » .

(التوبة — ٣)

ورغم أن زمان نزول الآية كان فى الوقت الذى وجد فيه النبى فى المدينة ، الا أن اعلان البراءة كان فى مكة يوم الحج ، وهذا دليل على أن مكة هى المركز الدائم للحركة الاسلامية .

وقد جاء فى الحديث :

« إن الدين ليأرز إلى الحجاز كما تأرز الحية إلى جحرها » .

(المشكاة باب الاعتصام بالكتاب والسنة)

وما جاء ذكره فى القرآن الكريم بأن الله تعالى قد أعطى لبنى اسرائيل مقام الفضيلة ، جاء ذكره أيضا فيما يتعلق بالأمة المحمدية بأنها خير أمة (آل عمران) ، فقد اختير بنو اسرائيل قبل بنى اسماعيل (الأمة المحمدية) للقيام بارشاد الناس إلى الحق .

« ان الفريضة الوحيدة لبنى اسرائيل فى هذه الدنيا ان يكونوا شهداء لله » .

(دائرة المعارف اليهودية مجلد ٦ ص ٢)

وفرض على بنى اسرائيل القيام بالدعوة إلى وحدانية البارىء والقيام بجهاد عبدة الشمس والقمر والكواكب . وحين حمل الله بنى اسرائيل هذه المسئولية أعد لهم الله نظاما اقتصاديا خاصا وذلك فى زمان موسى عليه السلام (١٥٢٠ ـ ١٤٠٠ ق . م) ، وكان هذا هو المن والسلوى ، وكان طعامهم هذا يصلهم حتى مساكنهم بسهولة كبيرة . وأمروا أن ينصرفوا بكل قواهم إلى تبليغ دعوة الله أكثر من انشغالهم بنظامهم الاقتصادى إلا انهم لم يقدروا على فهم هذه المصلحة فبدأوا يتجهون إلى اللذات والشهوات وسهولة الحياة وفضلوا ما هو أدنى على الذى هو خير ، وفى النهاية أبعدوا عن مقام الفضيلة لأنهم أنكروا آيات الله .

« واذ قلتم يا موسى لن نصبر على طعام واحد فادع لنا ربك يخرج لنا مما تنبت الأرض من بقلها وقثائها وفومها وعدسها وبصلها، قال أتستبدلون الذى هو أدنى بالذى هو خير ، اهبطوا مصراً فإن لكم

ما سألتم ، وضربت عليهم الذلة والمسكنة وباؤ بغضب من الله ذلك بأنهم كانوا يكفرون بآيات الله » .

(البقرة — ٦١)

وما حصل عليه العالم العربى من ثروة بتروليه تماثل من حيث مكانتها ما كان لدى بنى اسرائيل من من وسلوى ، فقد كانت قيمة المن والسلوى كفيلة بتمحينهم من تبليغ « شهادة دين الله » ، وهكذا فإن الثروة البترولية وما لها من قيمة عالمية ومكانة عالية كبيرة إنما أرسلها الله لأداء مهمة تبليغ رسالة الحق ، ولضمان الاستمرار فى مهمة تبليغ رسـالة الله .

إن وجود الكعبة فى العالم العربى يجعل من هذه المنطقة مركزاً للدعوة الاسلامية باستمرار وعلى الدوام ، فمن ناحية تتمتع هـذه المنطقة بجاذبية تاريخية تجذب اليها جميع أهل الأرض ، فيفد اليها كل عام ملايين البشر ، ومن هنا جعلت المنطقة حرما امناً . وتجمعت حولها جميع وسائل الثروة لتظل دائما فى يد أهل الاسلام ، ولا يمكن أن تؤول للآخرين لا سياسيا ولا إداريا ، ثم كان هناك تدبير ثالث وهو قيام اقتصاد هذه المنطقة على أساس راسخ ثابت حتى يكتفى سكانها ويفيض عنهم فائض يمكنهم من أداء أكبر وأعظم الخدمات ولنشر دين الله ورفع لوائه وهو العمل الذى كانوا يقومون به على مر الأزمنة ...

ترى هل يعرف العرب سر نعمتهم ؟ وهل يقومون بأداء رسالة الله ؟ !!

الصراط المستقيم

ما هو الصراط المستقيم ؟

يفهم من القرآن الكريم أن الله تعالى قد حدد منهجا محكماً لجميع الكائنات . وجميع الكائنات تمضى على هذا الطريق وعلى هذا المنهج ملتزمة بالحدود التى وضعها الله (فصلت — ١١) (١) حتى أن النحل (٦٨/٦٩) تسلك سبيل ربها الذى حدده لها ، فهى تسلك سبل ربها ذللا (٦٩ — النحل) (٢) ، وفى هذا أيضا سر نجاح الإنسان ولا شك فالإنسان فى حالة اختبار دائم وامتحان مستمر ، ومن هنا تم الاكتفاء بإخباره وإرشاده فقط ، ثم وهب الإنسان الفرصة ليستخدم إرادته فى اتباع الطريق المستقيم أو الانحراف عنه (الإنسان — ٣) ، وحين أخبر الله الإنسان بمعنى « سبيل الله » وضع على عاتقه مسئولية المضى على هذا السبيل واتباعه وكله يقين على أنه هو السبيل الوحيد الذى يقوده إلى الفلاح والنجاح (ابراهيم — ١٢) ، وإذا ما تأثر الإنسان بسبب ما فسلك سبيلا آخر ، فهو ينحرف بهذا عن سبيل الله ، ومن ينحرف عن سبيل الله لا يصيب من هذه الدنيا سوى الفشل والندم (الأنعام — ١٥٣) (٤) فالإنسان عند الله هو الإنسان الذى يمضى على

---

(١) يشير المؤلف الى قوله تعالى فى الآية ١١ من سورة فصلت : « ثم استوى الى السماء وهى دخان فقال لها وللأرض ائتيا طوعا أو كرها ، قالتا أتينا طائعين » .

(٢) يشير الى قوله تعالى : « ثم كلى من كلّ الثمرات فاسلكى سبلَ ربك ذللا » .

(٣) يشير الى قوله تعالى : « انا هديناه السبيل اما شاكرا واما كفورا » .

(٤) يشير المؤلف الى قوله تعالى فى الآية ١٥٣ من سورة الانعام : « وأن هذا صراطى مستقيما فاتبعوه ولا تتبعوا السبلَ فتفرق بكم عن سبيله ، ذلكم وصاكم به لعلكم تتقون » .

الصراط المستقيم ، ومن يحيد عن الصراط المستقيم فهو ينحدر إلى مقام الحيوانية .

« أفمن يمشى مكبا على وجهه أهدى امن يمشى سويا على صراط مستقيم . قل هو الذى أنشأكم وجعل لكم السمع والأبصار والافئدة سيلا ما تشكرون » . (الملك ٢٢ — ٢٣)

ويفهم من معنى المضى على الصراط المستقيم ان يستخدم الإنسان إمكانياته وكفاءاته ، سمعه وبصره وفؤاده ليعيش حياته ، ما هو السمع والبصر والفؤاد ؟! هذه هى الأشياء التى يتميز بها الإنسان عن بقية المخلوقات ، هذه هى الأشياء التى تنقل أى كائن « حى » من هذه المنزلة إلى منزلة كونه « إنسانا » ، وعلى العكس من هذا تكون الحيوانات ، فرغم أنها تمضى وتتحرك إلا أنها حرمت نعمة السمع والبصر والفؤاد ، تلك النعمة التى خص الله بها الإنسان فقط ، ومن هنا فمن يمتلك هذه النعم الإنسانية ولا يستفيد منها فهو كمن ينحدر بنفسه من مقام الإنسانية إلى مقام الحيوانية وقد ذكر القرآن أنه كالكلب (الأعراف — ١٧٦) (١) كالحمار (الجمعة —) (٢) كالأنعام (الفرقان — ١٤٤) (٣) وأكثر من هذا فهو فى منزلة القردة والخنازير (المائدة — ٦٠) (٤) بل أسوأ :

« إن شر الدواب عند الله الصم والبكم والذين لا يعقلون » .

(الأنفال — ٢٢)

---

(١) يشير الى قوله تعالى : « فمثله كمثل الكلب ان تحمل عليه يلهث او تتركه يلهث »

(٢) يشير الى قوله تعالى : « مثل الذين حملوا التوراة ثم لم يحملوها كمثل الحمار يحمل اسفارا » .

(٣) يشير الى قوله تعالى : « ام تحسب ان اكثرهم يسمعون او يعقلون أن هم الا كالانعام بل هم اضل سبيلا » .

(٤) يشير الى قوله تعالى : « قل هل انبئكم بشر من ذلك مثوبة عند الله من لعنة الله وغضب عليه وجعل منهم القردة والخنازير وعبد الطاغوت » .

فالأمور التى تفهم بالعقل ، يحدث الا يفهمها الإنسان وكانه لا يمتلك عقلا ، وهذا الإنسان هو فى نظر الله أعمى ولا يسمع ، وقد ورد فى القرآن الكريم فى لسورة رقم ٩٥ أن الله خلق الإنسان فى أحسن تقويم ثم رده أسفل سافلين الا الذين آمنوا وعملو الصالحات (التين ٤ — ٦) [١] فالمراد بالأمر الأول هو مقام الإنسانية والأمر الثانى مقام الحيوانية ، فالله قد خلق الإنسان على مقام الإنسانية ثم وضعه فى مقام الحيوانية ، والآن يختبره ويمتحنه حتى يخرج الإنسان نفسه من مقام الذل إلى مقام الرفعة .

« ولو شئنا لرفعناه بها ولكنه أخلد إلى الأرض واتبع هواه » .

(الأعراف — ١٧٦)

وهذا القسم من الآيات التى ورد فيها ذكر هؤلاء الناس العمى والصم الذين لا يعقلون ، ليسوا عمياً أو صما بالمعنى العضوى بل هم كالمجانين فى الواقع انقلبوا على وجوههم فى الهاوية .

كان هؤلاء أناسا أعتبروا ائمة العلم فى زمانهم ، وكانوا قد بنوا القصور والقلاع ، كانوا علماء خبراء فى التجارة والزراعة والبستنة ، كانوا يقودون الأمم والدول ، وهكذا ذكر أمية بن أبى الصلت العربى الذى اشتهر ليس فقط بإمارته وكرمه بل أيضـا بشـعره وبحكمته (الآية السابقة من سورة الأعراف — ١٧٦) ثم هناك شخص آخر ولد فى آخر زمان موسى عليه السلام ويدعى بلعام بن بعور ، اشتهر بين أهل زمانه بالعراق وذاع صيته بسبب علمه وزهده ، كما يروى عن عبادة بن الصامت أنه كان يعد مصداقاً لرؤساء قريش ، وقد تولى أمر الكعبة ولهذا اعتبر قائداً للعرب أجمعين (البحر المحيط) .

---

(١) يشير الى قوله تعالى : « لقد خلقنا الانسان فى احسن تقويم ثم رددناه اسفل سافلين الا الذين آمنوا وعملوا الصالحات فلهم أجر غير ممنون » .

... ثم ماذا تعنى عبارة عمى صم ، إن فهم هذا الأمر يستلزم التعمق فى الفرق بين الإنسان والحيوان فالحيوان يملك كل ما لدى الإنسان من أشـــياء ظاهرة فالحيـــوان يمشى ويأكل ويشرب ويرى ويسمع ويشعر بالألم إذن ما هذا الشىء الذى يفصل بين الإنســـان والحيوان ، يقول علماء الأحياء إن الفرق يتمثل فى قدرة الإنســـان على الفكر التصورى Conceptuol Thougth ، وبعبارة أخرى فهو يفكر. ولا يمكن أن يقوم بأى عمل بدون أن يقتنع بما هو موجود أمامه ، مثـــل هذه القدرة لا توجد عند الحيوانات ، ومن هنا يمكن أن نفهم الفرق بين مقام الإنسانية ومقام الحيوانية ، فمقام الحيوانيـــة يعنى أن شـــيئا ما لا يمكن أن يحرك الإنسان سوى المصلحة المادية أو الضرر المادى. وعلى العكس من هذا فمقام الإنسانية هو أن يؤمن الإنسان بالشىء ذهنيا بعد إن يتأكد من حقيقته أو صدقه وطبقا عليه يبنى أســـلوب حياته ، يقول تعالى فى كتابه العزيز :

« ذلك الكتاب لا ريب فيه هدى للمتقين الذين يؤمنون بالغيب ».
(البقرة — ٢)

فالقرآن الكريم ليس هداية لأولئك النـــاس الذين يخضعون للتأثير المادى فقط أو التفكير المادى أو النفع والضرر المادى فقط بل من يهتدى بهـــذا الكتاب هم أولئك الناس الذين يؤمنون بالحقائق الصادقة التى تحمل أهمية عقلية خالصة (الغيب) ، ولا وجود لقوة تلك الحقائق التى يؤمنون بها فى هذه الدنيا ، وكأنما الإيمان بالمشاهدة هو مقام الحيوانية والإيمان بالغيب هو مقام الإنسانية .

يروى فيما يتعلق بإسلام أبى بكر رضى الله عنه أن الرســـول

ﷺ قال : (ما دعوت أحداً إلى الإسلام إلا كانت عنده كبوة وتردد ونظر إلا أبا بكر ، ماعكم (١) عنه حين ذكرته ولا تردد فيه) .
(البدايه والنهاية مجلد ٣ ص ٢٧) .

وهذه هى أعلى درجات مقام الإنسانيه التى نالها أبو بكر الصديق ، فقد كان فى إمكانه أن يفهم قدر وقيمة أى شىء على أساس جوهره الذاتى وهكذا يتأثر الإنسان بالشخصية العاليه لرسول الله ويكون مسلما . أو يتاثر بالمعجزات أو بالقرآن الكريم أو بالبركات الماديه للاسلام ويكون مسلماً ، إلا أن أبا بكر وصل إلى مقام من رفعة الفكر لدرجة أنه يتمكن من قبول الشىء على أساس الحسن والقبح المجردين ، وهكذا حين أوصى أبو بكر ، اثناء مرض موته بوصية الخلافة وعهد بها إلى الفاروق عمر ، ظهر فى الناس قلق شديد :

« فدخل عليه طلحة بن عبيد الله فقال انا رسول من ورائى إليك يقولون : قد علمت غلظة عمر علينا فى حياتك فكيف بعد وفاتك إذا أفضيت اليه أمورنا والله سائلك عنه فانظر ما أنت قائل » . إلا أن من وصل إلى هذه الدرجة العالية من مقام الإنسانية قد عبر مرحلة الظاهر إلى مرحلة الباطن ، لقد رأى ابو بكر أن شدة عمر هذه ليست خاصة بذاته هو بل من أجل الدين ، وأن القلب الخاشع فى داخل صدره هو أكبر ضمان لأن يظل عمر على الحق ، قال عثمان : لا تأخذوا على ظاهره فباطنه احسن من ظاهره (سريرته خير من علانيته) وهذه هى عبارة أبى بكر بألفاظ أخرى ، فالشخص الذى يقوم على الصراط المستقيم تنبت فيه بذرة المعرفة ، لقد سمعت قريش القرآن على لسان محمد ﷺ ، فقالوا : « هذا كلام شاعر » فكلمة شاعر هنا لم تكن كلمة كبيرة وهى عند الله تدل على قلة الإيمان « قليلا ما تؤمنون »

---

(١) عكم : أى تلبث .

(الحاقة — ٤١) (١) ، فلم يكن ايمانهم ايمانا كليا ، لقد قالوا عن القرآن ، كلام شاعر لأنهم ارادوا ان يعلنوا أنه مجرد عمل أدبى ، يضم التعاليم القديمة لملة ابراهيم . وهكذا اكتفى هؤلاء الناس بالاعتراف بالحق الأدبى للقرآن بينما الحق الأساسى للقرآن هو أن يفهم على أنه الصدق الاعلى ، وأن يسلم به على أنه « حق اليقين » ، وحين طلب رسول الله ﷺ من أبى سفيان أن ينطق بشهادة الإسلام قبل دخول مكة بيوم قال : بأبى أنت وأمى ما أحلمك وأكرمك وأوصلك ، هذه والله كان فى النفس منها شىء حتى الآن ، وبعدها حين شعر عمه العباس بدقة الموقف نطق بالشهادة ، وكان من السهل على أبى سفيان أن يعترف بعظمة النبى وأخوته لأنه بعدها حصل على هدوء نفسى إذ شعر بأنه إن كان هناك فرق فالفرق فقط فرق أخلاقى وليس فرقا خاصا بصحة أو خطأ نظرية النبى ﷺ ، ولا شك أنه من الصعب على أى انسان أن يعترف بالنظرية بالمقارنة بالاعتراف الأخلاقى .

الصراط المستقيم فى السلوك الفردى :

ما هو الصراط المستقيم الذى تم إيضاحه فى القرآن الكريم بطريقة واضحة ، فيما يتعلق بالحياة الفردية (الشخصية) وبالحياة الاجتماعية .

جاء فى القرآن الكريم فى السورة السادسة (الأنعام) :

« قل تعالوا أتل ما حرم ربكم عليكم ألا تشركوا به شيئا وبالوالدين إحسانا ولا تقتلوا أولادكم من إملاق نحن نرزقكم وإياكم ولا تقربوا الفواحش ما ظهر منها وما بطن ولا تقتلوا النفس التى

---

(١) يشير المؤلف الى قوله تعالى : « وما هو بقول شاعر . قليلا ما تؤمنون » .

حرم الله إلا بالحق ذلكم وصاكم به لعلكم تعقلون ، ولا تقربوا مال اليتيم الا بالتى هى أحسن حتى يبلغ أشده وأوفوا الكيل والميزان بالقسط لا نكلف نفسا إلا وسعها ، وإذا قلتم فاعدلوا ولو كان ذا قربى وبعهد الله أوفوا ذلكم وصاكم به لعلكم تذكرون وأن هذا صراطى مستقيما فاتبعوه ولا تتبعوا السبل فتفرق بكم عن سبيله ذلكم وصاكم به لعلكم تتقون » • (الأنعام ١٥١ — ١٥٣)

هذا هو الصراط المستقيم الخاص بالحياة الفردية • وخلاصة التوحيد : حسن السير والسلوك مع الآخرين ، الاعتماد على الله ، البعد عن الفواحش ، احترام النفس ، البعد عن الظلم ، التعامل بالحسنى إقامة العدل فى جميع الأحوال ، الوفاء بعهد الله ، اتباع التقوى فى جميع الأمور ، وأولئك الناس الذين يمضون على الصراط المستقيم هم أولئك الذين أنعم الله عليهم (الفاتحة) ، الذين خرجوا من الظلمات إلى النور (ابراهيم — ١) (١) ، الذين نالوا فضلا من الله ورحمة (النساء — ١٧٥) (٢) حتى أتم الله عليهم نعمته (الفتح — ٢) (٣) ، ومن الواضح أن حياة الناس الذين يتصفون بهذه الخصائص لا يمكن أن تكون كحياة عامة الناس ، ومن الضرورى أن يظهر اديهم هذا الإدراك — فى حياتهم — بأشكال مختلفة :

١ — وأول ما يتعلق بهذا الأمر هو أن ينالوا أعلى الكيفيات الإيمانية • يروى أن عبد الله بن رواحة قال لرجل : تعال نؤمن ساعة ، فسمعه رجل فجذبه اليه وقال : « أولسنا بمؤمنين ؟ » فأجاب ابن رواحة :

---

(١) يشير الى قوله تعالى : « الر كتاب أنزلناه اليك لتخرج الناس من الظلمات الى النور باذن ربهم الى صراط العزيز الحميد

(٢) يشير الى قوله تعالى : « فأما الذين آمنوا بالله واعتصموا به فسيدخلهم فى رحمة منه وفضل » .

(٣) يشير الى قوله تعالى : « ليغفر لك الله ما تقدم من ذنبك وما تأخر ويتم نعمته عليك ويهديك صراطا مستقيما » .

« أجل ، نحن مؤمنون ، ولكن حين نتذكر الله فاننا نزداد إيمانا على إيماننا » ، وبعد ذلك ذهب ذلك الرجل إلى رسول الله ﷺ وشكى مما قاله ابن رواحة الذى ترك إيمانه واتجه ليؤمن فترة ، فقال النبى ﷺ :

« يرحم الله ابن رواحة أنه يحب المجالس التى تتباهى بها الملائكة » (رواه أحمد عن انس بن مالك) •

وكان ما قاله ابن رواحة من جملة للكيفيات الإيمانية العالية ، لكن الشخص الذى وقف عند حد الإسلام دون « الإيمان » لا يمكن أن يفهم هذا المستوى •

٢ — يعنى الإيمان لمثل هؤلاء الناس أنهم قد أسلموا نفوسهم تماماً لله ، وهذه الفكرة تجعلهم يرتجفون وتخشع قلوبهم خوفا من أن يقضى الواحد منهم حياة تكون بعيدة عن صراط الله المستقيم ، وحين نزلت الآية القرآنية **« الذين يكنزون الذهب والفضة »** (التوبة — ٣٤) ، قال رسول الله ﷺ : « تبا للذهب ، تبا للفضة » ، وكان هذا الأمر من الصعوبة على أصحابه لدرجة أنهم قالوا فيما بينهم : فأى مال نتخذ ، وحمل عمر هذه القضية وذهب إلى رسول الله ، فقال :

« ليتخذ أحدكم لساناً ذاكراً ، وقلبا شاكرا وزوجة مؤمنة تعين أحدكم على إيمانه » •

(تفسير ابن كثير مجلد ٢ صفحة ٣٥١)

٣ — أن تولد بداخلهم بذرة الاعتراف بالذنب بدرجة كاملة • ركب أحد الصحابة ويدعى جابر بن الأزرق على ناقته ، وكان يمضى مسافراً مع رسول الله ، وفى الطريق حط الرسول رحاله ودخل إلى

خيمته ، وكان هناك زحام شديد على باب الخيمة . قال جابر بن الأزرق: لقد دفعنى شخص وأراد أن يبعدنى عن الباب ، فقلت له : لقد دفعتنى وسوف أدفعك وإذا ضربتنى ضربتك ، وسمع الرجل هذا فقال له : يا شر الرجال ، فقال له : بالله أنت شر منى . فقال له الرجل : كيف هذا ؟ . فقال : لقد جئت من أطراف اليمن لأسمع شيئا من رسول الله وأعود لأخبر الناس الذين من خلفى ، وأنت منعتنى ، وسمع جابر بن الأزرق الغافرى هذا وهدأ . وقال على الفور : صدقت نعم والله لأنا شر منك . (كنز العمال) .

٤ — أن يشعر بمسئولياته تجاه الناس أكثر من شعوره بحقوقه . يروى عن أم سلمة فى مسند الإمام أحمد أن رجلين اختصما ، فجاءا إلى رسول الله ﷺ ، يحتكمان اليه فى نزاعهما على إرث ، وكان كل واحد منهما يقول : هذا حقى ، ولم يتمكن أحدهما من إثبات حقه بطريقة بينة ، فقال رسول الله ﷺ : (إنكم تختصمون إلى ، وإنما أنا بشر ، ولعل أحدكم ألحن من الآخر بحجته فأحكم له ، فمن حكمت له بشىء من حق أخيه فإنما أعطيته جمرة من النار يوم القيامة) . وسمع الرجلان قول رسول الله ﷺ فبكيا وصار كل منهما يقول : « حقى لأخى حقى لأخى » .

٥ — أن يوجد فى الإنسان سمو النظرة وارتفاع النفس ، فيرعى الصغير كما يرعى الكبير ، وقد أرسل الأمير معاوية فى زمان حكومته إلى أنصارى مبلغ خمسمائة دينار ، فرأى الأنصارى أن هـذا المبلغ قليل ، فقال لابنه خذ هذا المبلغ واذهب لمعاوية وألق به فى وجهه وعد ، واستحلف ابنه على أن يقوم بما أمره به ، فأخذ الإبن المبلغ وذهب إلى معاوية وقال : يا أمير المؤمنين : لقد أمرنى أبى وأنا لا أقدر على مخالفته ، فوضع معاوية يده على وجهه وقال له : افعل كما أمرك أبوك،

ولكن تصرف بلين مع عمك • فخجل الابن وترك المبلغ وذهب فضاعف معاوية المبلغ وأرسله إلى الأنصارى • (تاريخ الفخرى)

٦ — أن تظهر بداخلهم معرفة الحقيقة ، التى تجعل الرجل العادى ينطق بأمور تضع كبار الناس فى حيرة ، ففى زمان خلافة عمر رضى الله عنه حين انتصر سعد بن أبى وقاص فى معركة القادسية (فارس) . تبادل مع رستم قائد جيش الفرس (الرسل) وفى تلك الأثناء ، حين وصل أحد الرسل بعتاده وملابسه العادية إلى بلاط رستم صاحب الفخامة والهيلمان استحضره ، وقال له مشيرا إلى رمحه : ما هذا الذى فى يدك كالمغزل ، فقال له الرسول بهدوء مجيباً عليه : « لا يقلل من شأن قطعة الفحم أن تكون صغيرة » • (تاريخ الفخرى)

٧ — أن تظهر فى الإنسان « بصيرة » تمكنه من رؤية أدق شباك العدو وفخاخه ، فقد كان من بين المهاجرين مع عمر رضى الله عنه شخص يدعى عياش بن ربيعة ، وحين عرفت قريش أنه وصل إلى المدينة ، وصل وراءه كل من أبى جهل بن هشام والحارث بن هشام وكانا من بين أقاربه، وقالا عياش بن ربيعة عد معنا إلى مكة فأمك أصيبت بصدمة كبيرة من جراء ذهابك ، فأقسمت بأنها لن تمشط شعرها ، ولن تستظل بظل طالما لم تشاهدك ، ووصل الأمر إلى عمر ، فقال لعياش بن ربيعة إنها مؤامرة تستهدف عودتك لا تتلق لكلامهما • فوالله لو قد آذى أمك القمل لامتشطت ، ولو قد اشتد عليها حر مكة لاستظلت » •

(البداية والنهاية مجلد ٣)

إلا أن عياش بن ربيعة لم يفهم ذلك ، وعاد إلى مكة ، وهناك ابتلاء الناس بالامتحان والعذاب والقتل •

هؤلاء هم للناس الذين بشروا بالأجر العظيم (الطلاق — ٥) (١) والذين تتبدل سيئاتهم حسنات . (الفرقان — ٧٠) (٢) ، فالحقيقة أن هذه الأخطاء يتعرض لها الجميع ، المؤمن وغير المؤمن إلا أن من وصل إلى مقام العبودية حين تصدر عنه سيئة يتجه إلى الله بشدة تضاعف ما كان عليه من قبل ، وهكذا تصبح هذه السيئة التى ارتكبها سببا فى أن يستعيد حالة إيمانه بأشد مما كانت عليه ، وعلى العكس من هذا فمن يضل طريقه وسط ظلمات السيئات ، فان سيئاتهم بدلا من أن تعطيهم غذاء إيمانياً متجدداً تضيف إلى قساوتهم .

« إن الذين اتقوا إذا مسهم طائف من الشيطان ، تذكروا ماذا هم مبصرون وإخوانهم يمدونهم فى الغى ثم لا يقصرون » .

(الأعراف ٢٠١ — ٢٠٢)

الصراط المستقيم الاجتماعى :

كما وصلتنا الصلاة وكما وصلنا الصوم عن طريق النبى فقد وصلنا منه أيضا كيف يمكن للحركة الإسلامية أن تمضى على الطريق ، وكيف يمكن أن ينتشر الإسلام فى الدنيا ، وبعبارة أخرى فكما يوجد صراط مستقيم للحياة الفردية يوجد أيضا صراط مستقيم للحياة الاجتماعية فصلح الحديبية (٦٢٦ م) هو من أهم احداث الكفاح الاجتماعى الإسلامى وتقول سورة (الفتح) عن هذا الصلح :

« ولتكون آية للمؤمنين ويهديكم صراطاً مستقيما » .

(الفتح — ٢٠)

---

(١) يشير الى قوله تعالى : « ومن يتق الله يكفر عنه سيئاته ويعظم له أجرا »

(٢) يشير الى قوله تعالى : « الا من تاب وآمن وعمل صالحا فأولئك يبدل الله سيئاتهم حسنات » .

وهذه الآية التى تتعلق بصلح الحديبية توضح أنه كما يوجد صراط مستقيم للعبادات وللأخلاق فهناك أيضا صراط مستقيم لأمور الصلح والأمن والقتال .

فالشخص الذى يمضى على الصراط المستقيم وبعبارة أخرى الذى يمضى على مقام الإنسانية حيث تكون القرارات كلها قائمة على أساس السمع والبصر والفؤاد ، وليس على أساس العناد ورد الفعل ، فهو ينال بصيرة خارقة ، ويتخلص من جميع الدوافع العاطفيـــة والجوانب الإضافية والثانوية ويبدأ فى إدراك جوهر الحقيقة مباشرة ، وطبقا لهذه الحقيقة فخططه تكون صحيحة وقاطعة،وإصابته تكون صحيحة لاتخطىء أبداً ولهذا جاء فى الحديث :

« اتقوا فراسة المؤمن فإنه ينظر بنور الله » .

وفى الوقت الذى يذكر فيه للقرآن الكريم أن المؤمن يغلب عشرة أمثاله ، فإنه يحدد أن سبب الهزيمة هو أن هؤلاء رغم كثرة عـــددهم لا يفقهون شيئاً .

« إن يكن منكم عشرون صابرون يغلبوا مائتين وإن يكن منـــكم مائة يغلبوا ألفاً من الذين كفروا بأنهم قوم لا يفقهون »

(الأنفال ــ ٦٥)

وصلح الحديبية مثال بارز على هذا الأمر ، فمن الواضح أن هذا الصلح تم تحت ضغط ، فالعقل الغرائزى لم يكن مستعدا لأن يوقع ألف وخمسمائة من الفدائيين المسلمين مثل هذا الصلح الذى كتبت مسودته فى معظمها بناء على مطالب العدو ، إلا أن العقل الإنســـانى البصير الذى وهب القدرة على أن يميز بين الحقائق فى شكلها النقى الصافى قد استشف أن هذه هى قضية « الفتح المبين » (الفتح ــ ١)[1]

---

(١) يشير الى قوله تعالى : « انا فتحنا لك فتحا مبينا » .

وهكذا فقد ذكر الصراط المستقيم أو سبيل الله من أجل شئون الحياة جميعها ومن أجل قضايا الدنيا والآخرة ، وجميع الكائنات تمضى على هذا الصراط ، وهذا هو سبيل نجاة الإنسان ووسيلة نجاحه وتوفيقه ، ومع هذا الفرق فإن الكائنات ملتزمة بالمضى على هذا الصراط المستقيم طوعا وكرها (فصلت — ١١)(١) والإنسان يمضى عليه باختياره .

وكما حدد القرآن خطوط الصراط المستقيم الذى ينطلق عليه الفرد فى رحلته الذاتية فقد اهتم أيضا بإيضاح الصراط المستقيم فى المعاملات الاجتماعية ، فمن ناحية قدم لنا أمثلة فى شكل تجارب حقيقية كبيان حكم صلح الحديبية ، يقول تعالى : **« ويهديك صراطاً مستقيما »** (الفتح — ٢) ، ومن ناحية أخرى يذكر القرآن الكريم بعض الأصول الأساسية التى تحيط بمعظم المعاملات العملية فإذا ما سما الإنسان بنفسه عن مقام الحيوانية ، ووصل إلى مقام الإنسانية فإنه لا يمكن أبدا أن يخطىء فى فهم الأسلوب أو السلوك الذى يجب أن يتبعه فيما يتعلق بأى أمر اجتماعى خاص يأخذ بيده إلى طريق النصر الإلهى والفتح .

١ — إن أول الأصول الأساسية فيما يتعلق بهذا الأمر هو عدم اتخاذ أى اجراء أو عمل بتفكير سلبى ، يجب أن يضع المرء هدفه الأساسى أمامه بطريقة إيجابية ، ثم يحاول بعد ذلك أن يطبق جميع خططه الاجتماعية طبقا لهذه الأهداف الإيجابية .

« يا أيها الذين آمنوا كونوا قوامين لله شهداء بالقسط ولا يجرمنكم شنآن قوم على ألا تعدلوا اعدلوا هو أقرب للتقوى » .

(المائدة — ٨)

---

(١) يشير الى قوله تعالى : « ثم استوى الى السماء وهى دخان فقال لها وللارض ائتيا طوعا أو كرها ، قالتا أتينا طائعين » .

وإذا نظرنا بعمق شاهدنا أن معظم مآسى الفشل عبر التاريخ إنما كانت نتيجة للاقدام على عمل بعد التأثر بالعناد والكراهية والبغض والعنجهية ، وحين يخضع فرد ما أو جماعة ما لمثل هـذا النوع من العواطف وبعدها يرسم خططه العمليـة فهو بالضرورة يمضى على الطريق المعوج ، وعلى العكس من هذا فإذا ما وضع أمامه الهداية الأساسية وسما بعقله الحيوانى ووصل إلى المستوى الإنسـانى ، فلا يمكن حينذاك أن يروح ضحية للعواطف السلبية ، وهكذا يجب أن يضع خطته على أسس إيجابيـة ، فالخطط التى توضـع على أسس إيجابية لا يمكن أن تفشـل أبداً ، وقد تم إيضاح هـذه الأصـول الأساسية للصراط المستقيم فيما يتعلق بالمعاملات الاجتماعية وذلك فى نهاية ملحق صلح الحديبية :

« إذ جعل الذين كفروا فى قلوبهم الحمية حمية الجاهلية ، فأنزل الله سكينته على رسوله وعلى المؤمنين وألزمهم كلمة التقوى وكانوا أحق بها وأهلها وكان الله بكل شىء عليما » .

(الفتح — ٢٦)

فإذا كانت لدى الفريق الثانى حمية الجاهلية فعلينا أن نتحملها ونتمسك بقوة كلمة التقوى . وبعبارة أخرى لا يجب أن نتخذ أى قرار أبداً نتيجة رد فعل تحت أى تأثير نفسى ، يكون نتيجة للتأثر بسلوك العدو ، بل علينا أن نقوم بالتخطيط لبرنامجنا الاجتمـاعى بنفسية ايجابية فى ضوء أهدافنا المستقلة وأصولنا المحـددة وأن ننظر إلى المستقبل بدلا من أن ننظر إلى الحاضر .

٢ — ومن أهم أصول الهداية الاجتماعية الأخرى اتباع سبيل الله (الأنعام — ١٥٣) (١) وقد ذكر القرآن الكريم الشجرة كمثال على

---

(١) يشير الى قوله تعالى : « وأن هذا صراطى مستقيما فاتبعوه ولا تتبعوا السبل فتفرق بكم عن سبيله » .

هذا الأمر ، فالشجرة تثبت جذورها أولا فى الأرض ، ثم ترتفع بعد ذلك رويداً رويداً ومن هنا فإن القوة الداخلية لها الأهمية الأولى فى بناء الأمم ، إذ لا يجب اتخاذ أى إجراء خارجى قبل تدعيم الجذور الأساسية ، فالقرآن الكريم يقدم نصيحة القدرة الإلهية التى ترشدنا إلى اتباع الأسلوب الذى تتبعه الشجرة فيما يتعلق ببناء الأمة !!

« ألم تر كيف ضرب الله مثـلا كلمة طيبـة كشجرة طيبـة أصلها ثابت وفرعها فى السماء تؤتى أكلها كل حين بإذن ربها ويضرب الله الأمثال الناس لعلهم يتذكرون ومثل كلمة خبيثة كشجرة خبيثة اجتثت من فوق الأرض مالها من قرار يثبت الله الذين آمنوا بالقول الثابت فى الحيـاة الدنيا وفى الآخرة ويضل الله الظالمين ويفعل الله ما يشاء » .

(ابراهيم ٢٤ — ٢٧)

فلتفكروا فى الأمثلـة التى يقوم فيهـا فريق باتهام فريق آخر باتهامات تدل على أن هذا الفريق إنما غرس « شجرة خبيثة » والحقيقة أن البناء الاجتماعى إذا ما وضع على أساس نظرية الشجرة الطيبة فمن المستحيل أن يتهم أى فريق فى المجتمع فريقاً آخر بأنه أفسـد شجرته .

٣ — وفى السنة الثالثـة للهجرة وقعت غزوة بـدر وكان أمام المسلمين هدفان : الأول : قافلة قريش التجارية التى كانت عائدة إلى مكة من الشام ، وتضم ألف جمل محملة ببضائع قيمتها خمسون ألف دينار ، والثانى : جيش قريش وقوامه نحو ألف جندى يتقدمون إلى المدينة ، وكان من بينهم أبو جهل وكبار رؤساء قريش ، فاستشار النبى ﷺ المسلمين ، فرأى البعض منهم الاتجاه ناحية القافلة التجـارية القادمة ، وكان هذا هو الرأى الرائج قبيل الفترة السابقة لذلك العهد ، فقد كان العرف المعمول به لمدة سنة ونصف بعد الهجرة ، هو الهجوم على القوافل التجارية لمشركى مكة المتجهة إلى الشام . إذ أن الهجوم

عليها يقضى على القوة الاقتصادية للعدو ، ويقوى الحـالة المالية للمسلمين ، وبعد الهجرة بسنة حدثت غزوات صغيرة مثل الأبواء والبواط والعشيرة وغيرها (١) مما تذكرها الأحاديث وكتب السيرة ، وكانت كلها من مثل هذا النوع • إلا أن النبى ﷺ رأى ومعه كبار الصحابة مواجهة جيش قريش •

« وإذ يعدكم الله إحدى الطائفتين أنها لكم وتودون أن غير ذات الشوكة تكون لكم ويريد الله أن يحق الحق بكلماته ويقطع دابر الكافرين »

(الأنفال — ٧)

فالعقل الحيوانى لا يمكن أن يفهم أبداً أن أهل المدينة الذين كانوا فى مسيس الحاجة إلى الرخاء الاقتصادى سوف يتركون القافلة التجارية التى لا تحرسها أية قوة ويخرجون لمواجهة جيش جرار ربما زاد عن ثلاثة أمثال جيشهم ، وكان يمكن فقط للشخص الذى سما إلى مقام الإنسانية أن يفهم كيف يكون لتحطيم قوة جيش كبير من نتائج عظيمة حتى أن قيل الرخاء الاقتصادى يمكن — بالمنطلق البعيد — أن يتحقق من خلال هذا الأسلوب ، لا عن طريق ترك الجيش والاتجاه ناحية القافلة ، فالدرس الذى نستفيده من هذا هو ألا نربط أقدامنا (بالفوائد العاجلة) بل يجب أن نضع أقدامنا دوماً على الفوائد الثابتة التى تأتى من بعيد وتكون أصولها الأساسية قائمة على إحقاق الحق وإبطال الباطل ، وليس الحصول على مصالح دنيوية ، لأن الأهداف الدنيوية إنما تتحقق عاجلا أو آجلا بذاتها ، فما هى الضرورة لجعلها هدفاً ؟

---

(١) فى السنة الاولى للهجرة خرجت سرايا العيص ، والحزار ، ورابغ ، وفى السنة الثانية خرجت سرايا نخلة ، وعصماء ، وأبى عفك ، وودان ، والبواط ، والعشيرة ، وبدر الاولى ، وبدر الكبرى ، وبنو قينقاع ، والسويق (المراجع) .

٤ ـ وهناك أصول لوضع العمل الاجتماعى على قاعدة (الصراط المستقيم) عن طريق استعمال الفرص التى تأتى فى وقتها ، وليس اتخاذ قرارات كبيرة على أساس تفاؤلات المستقبل . وصحيفة المدنية التى أرسى الرسول دعائمها فى السنة الأولى للهجرة هى مثال من أمثلة العمل الاجتماعى فحين هاجر النبى ﷺ من مكة ، وقدم إلى المدينة كان بها بالإضافة إلى المؤمنين جماعة كبيرة من المشركين واليهود أيضا ، ورغم أنه قدر للمشركين ولليهود أن تكون نهايتهم ـ فيما بعد ـ فى المدينة ، إلا أنه فى المرحلة الأولى رأى رسول الله ﷺ أن يتبع معهم أقل درجات المواجهة فأصدر صحيفة اعترف فيها بوجودهم ، وأعلن أن (لليهود دينهم وللمسلمين دينهم) فهذا الاعتراف الذى هدف إليه اليهود ـ أو بتعبير آخر المهادنة الإسلامية ـ كان يعد شيئا من « الدرجة الثانية » إلا أن الرسول ﷺ اقتنع بهذا الأمر فى المرحلة الأولى ، ودلت النتائج فيما بعد على صدق هذه الكلية التاريخية ، فالشخص الذى يقتنع فى المرحلة الأولى بأن الأمر الثانى هو الأفضل سيفوز فى النهاية بالشىء الطيب الأول وعلى العكس من هذا فمن يجرى منذ اليوم الأول وراء الشىء الأول فلن يناله ولن ينال ما هو أقل منه أيضاً .

٥ ـ يجب تجنب مواجهة العدو فى حالة وجود عملية ردع بشعة، وذلك إلى آخر حد ممكن فالبرنامج المستقبلى أمام المسلمين كان هو السيطرة بقدر الإمكان على المواقع الحيوية لدرجة أن الفريق الثانى كان يضطر إلى اخلاء الميدان بعد أن يضيق عليه ويروى عن على رضى الله عنه أنه قال :

« وألجئهم إلى مضائق الطريق » (رواه الترمذى)

وهذه هى الحقيقة التى عبر عنها القرآن بقوله :

« أفلا يرون أنا نأتى الأرض ننقصها من أطرافها أنهم الغالبون »

(الأنبيــاء)

فهذه الآية تشير إلى أن الإسلام انتشر دوماً عن طريق عملية التبليغ التى تتم فى صمت ، وهكذا أسلمت أهم الشخصيات فى مكة ودخلت قبائل (غفار وهزينة وجهينة) وبقية أطراف مكة فى الإسلام، كما أسلمت قبيلتا المدينة (الأوس والخزرج) ، وهكذا دخل معارضو الإســلام إلى حظيرة الإســلام تدريجيا ، وأخذت تتســع دائرة الإسلام ، وقريباً يأتى الوقت الذى لا يكون فيه أمام أهل مكة من مخرج ســوى أن يحاصروا من جميع الأطراف فيســلموا أسلحتهم ويستسلموا أمام الإســلام .

لقد أمر الإسلام باعداد القوة ، لكن ليس من الضرورة الاستخدام السريع لها بل هى قوة لارهاب أعداء الإسلام **« ترهبون به عدو الله وعــدوكم »** . ولهذا يقول نبى الإسلام :

(نصرت بالرعب مسيرة شهر) ويريد الرسول أن يقول : إننى أخبرت بأسلوب للعمل أقــوم فيه بالاكتفاء باظهار القوة بــدلا من استعمالها ، ويتم النصر عن طريق مجرد الإرهاب والتخويف ، وكان من نتيجة هذا الأسلوب انه رغم قيام النبى بنحو ثمانين غزوة وسرية، فإن الغزوات التى حدث فيها قتال لم تتعد التسع غزوات فقط ، أما الغزوات الأخرى فقد حصــل فيها النصر على الأعــداء بالإرهاب والتخويف .

ولقد أدى انتشار العلم والرقى الصناعى فى العصر الحديث إلى وجود فرص جديدة لا حصر لها لهذا الاسلوب من العمل ، فقد قامت اليابان بعد الحرب العالمية الثانية باستعمال طريقة كان من نتيجتها أن

ضاقت الحياة بأمريكا فى اليابان مما اضطرها إلى ترك اليابان ، بينما اليابان لم تستعمل أية قوة عسكرية أو سياسية ضد أمريكا •

٦ - والأصل الأخير بل الأهم فى هذا الأمر هو الميل إلى الواقعية والحقيقة ، ومعروف أن تقبل الحقيقة أمر صعب على النفس البشرية ، إلا أن الله قد أرشدنا عن طريق رسوله ﷺ إلى أسلوب عملى من أجل الجهاد الاجتماعى •

وهنا لابد لنا أن نسأل : ما معنى الواقعية وقبول الحقيقة •• ؟ معناه اللجوء إلى تحكيم العقل فى لتخاذ الأمور بدلا من اتخاذها فى حمية رد الفعل العاطفى • وإدراك الأسباب والعوامل الحقيقية بدلا من الانسياق وراء الرغبات والميول الظاهرية والعمل طبقا لها •

إن قبول الحقيقة يقتضى رسم خطط العمل بناء على الفرص البعيدة بدلا من الحصول على انتصارات فورية سريعة • ويجب وضع القوى الحاسمة كهدف يمكن بعد تحقيقه أن يصبح العدو بلا تأثير وبلا حول ولا قوة •

لا يمكن أن نجد كلمة أكثر تعبيراً من « الواقعية » (وحب الحقيقة) نصف بها المنهج الذى أمضى عليه ﷺ الدعوة الإسلامية ، كان أمامه فى مكة ، بل فى حرم مكة (٣٦٠ صنماً) (وفى بعض الروايات أكثر من هذا)• إلا انه لم يجر أية عملية سريعة أو عنيفة لاخراجها من الكعبة ، وكان على بينة من (النوايا الاستعمارية) للعرب المحيطين بها ، ومع هـذا لم يصدر « أى بيان » ضدهم ، ولقد حاك أهل مكة المؤمرات لقتله ، إلا أنه لم يتصرف كقائد (ثورى) فيقدم نفسه لهم ليروح شهيداً بل ترك مكة وخرج فى صمت،وحين قدم وفد الانصار إلى مكة وتمت البيعة قال قائدهم :

« يا رسول الله والذى بعثك بالحق إن شئت لنميلن على أهل منى غداً بأسيافنا » (تهذيب سيرة ابن هشام مجلد ١ ص ١٠٩)

فقال له الرسول : (نحن لم نؤمر بهذا ، عودوا إلى دياركم) .
وكانت خيبر بصفة دائمة مركزاً لإحاكة المؤمرات ضد النبى ، إلا انه لم يتخذ ضد أهل خيبر أى عمل عدوانى مثل أن يعقد معاهدة مع أهل مكة حتى لا يشتركوا مع أعدائه ويحاربوه . واثناء صلح الحديبيه ثار قادة قيش ثورة عارمة لدرجة أن جميع الصحابة غضبوا وثاروا ما عدا « أبا بكر » إلا أن النبى ﷺ قام بصبر وتحمل بإثبات (خاتمه الشريف) على معاهدة الصلح .

فقد أعطى القرآن الكريم أهمية كبيرة لأسلوب العمل هذا الذى يتصف بالواقعية والحقيقة والصبر .

وقد جاء فى آخر سورة هود إرشاد للمسلمين بألا يغرنهم النجاح العارض لبعض الناس فيظنوا أن أسلوبهم فى العمل افضل من الأسلوب المقدم لهم فيسلكوا سبيل أولئك الناس . إن مثل هذا البلاء ابتلى به اليهود ، فظهرت بينهم الفرقة ، وحادوا عن الطريق المستقيم إلى طرق معوجة ، فلا تفعلوا هذا وإلا فاخشوا أن تمسكم النار فتحرموا من عون الله ، وهذا هو الفلاح الحقيقى (١) .

أسس النصر وقواعده

وعد الله الإنسان الذى يمشى على الصراط المستقيم أن ينال النصر :

« ويهديك صراطاً مستقيما ، وينصرك الله نصراً عزيزا » .
(الفتح — ٣)

---

(١) يقصد المؤلف قوله تعالى : « وما كان ربك ليهلك القرى بظلم (الى قوله تعالى) الى قوله تعالى) وانتظروا انا منتظرون !

وبقدر ما يكون النصر الالهى مؤكداً بقدر ما يكون هذا الأمر مؤكداً أيضاً وهو أن أحدا لن ينال نصر الله بدون حق ، وهذه سنة الله ولا تبديل لسنة الله(١) ، (فاطر ٤٣) أما اذا كان هناك إنسان وصل لحالة الاضطرار ، فانما يكفيه الدعاء لينال النصر شريطة أن يكون قد بذل كل جهده البشرى .

« أمن يجيب المضطر اذا دعاه ويكشف السوء » .

(النمل — ٦٢)

وكأنما شرط استحقاق الإنسان المضطر للنصر هو أن ينطق فقط بكلمات الدعاء ، فينال نصر الله ، إلا أن الإنسان أو الجماعة التى لا تكون فى مقام الاضطرار ، فيلزمها بالاضافة إلى الدعاء ، شرطان آخران : الأول : أن يعمل الإنسان وأن تعمل الجماعة طبقا لهذا الدعاء :

« اليه يصعد الكلم الطيب والعمل الصالح يرفعه » .

(فاطر — ١٠)

ويستعين بهذا الدعاء الإنسان الذى يطلب النصر فى أمر ما ، فاذا ما دعا شخص ما أن يهبه الله معرفة اسرار واحكام القرآن فعليه أن يعمل بما يطابق هذا الدعاء ، أى عليه ان يتدبر ويتفكر فى كتاب الله ، واذا ما قام شخص ما بطلب النصر والتوفيق فى أمور المعاش فعليه أن يبذل ما أمكنه من جهد على طريق الكسب والمعاش(٢) ، ولو طلب الانتصار والتوفيق ضد اعدائه فعليه أن يتحد مع إخوانه :

« واعتصموا بحبل الله جميعا ولا تفرقوا » . (الأنفال — ٤٦)

---

(١) يقصد قوله تعالى : « فلن تجد لسنة الله تبديلا ولن تجد لسنةالله تحويلا » .

(٢) يقصد المؤلف قوله تعالى : « فاذا قضيت الصلاة فانتشروا فى الارض » .

واذا أريد الدعاء بالنصر على اعداء الإسلام فإن الطريقة هى القيام بدعوتهم إلى الله ، ومحاججتهم بشتى الطرق ، فسنة الله هى ألا يهلك جمـاعة ما دون أن يختبر سـلوكهم اطـلاعاً كاملا (١) • (الأنعام — ١٣١) •

والضرورة الثانية لإثبات استحقاق فضل الله هى الصبر أمام المعارضين ، أى للصبر على ايذائهم (٢) ، (ابراهيم — ١٢) ، وهذا الصبر هو الجانب السلبى من العمل الايجابى سابق الذكر ، والهدف من هذا هو عدم اتخاذ أى إجراء انفعالى ضد المعارضين • فبدلا من الخضوع له نتفوق عليه ، وبدلا من تقديم الخدمات له نتحمل المصائب والمتاعب التى يسببها ، وبدلا من أن نسأله ونقف على بابه ، نتبع طريق المقاومة الصامتة •

وقد وعد الله بتحقيق النصر العظيم ، اذا تحققت هذه الشروط ، وحتى لو كان المسلمون عشرين فسيغلبون من أهـل البـاطل مائتين **« إن يكن منكم عشرون صابرون يغلبوا مائتين »** ، ويمكن أن تقل النسبة عن هذا ، كما أثبتت الأحداث والوقائع المتعددة فى التاريخ الإسلامى، إلا أن الأساس هنا هو أن الفرق بين الجماعتين هو فرق باعتبار الكمية وليس النوعية ، فما لدى أهل الباطل اذا كان يساوى (مائتين) فيجب أن يساوى لدى أهل الحق (عشرين) من الشىء ذاته وليس من شىء آخر ، أى أن أهل الباطل إن سلحوا بمائتى (بندقية) فيجب أن يكون لدى المسلمين أيضاً عشرون بندقية • وعلى العكس من هذا فإذا وجد لدى طرف مئتا بندقية ولدى طرف آخر عشرون سيفا ، فإن هذا الوعد لن يتحقق ، لأن الفرق فى هذه الحالة لم يعد فى الكمية بل فى النوعية •

---

(١) يقصد المؤلف قوله تعالى : « ذلك أن لم يكن ربك مهلك القرى بظلم » •

(٢) يقصد قوله تعالى « ولنصبرن على ما آذيتمونا » •

وهكذا فإذا كان لدى المسلمين علم تاريخى أدبى ، ولدى أهل الباطل علم تقنى فنى أو إذا كان المسلمون مسلحين بالعاطفة بينما يحمل أهل الباطل خزائن العقل والفكر (١) ، وإذا كان لدى المسلمين جهل بالتاريخ واطلع أهل الباطل على التاريخ وألموا بدلالاته وإذا كان لدى المسلمين ثروة من الاختلافات بينما أهل الباطل متحدون متكاتفون ، وإذا كان لدى المسلمين فوضى واضطراب ، وتمتع أهل الباطل بالتخطيط ، وإذا امتلك أهل الإسلام القوى القديمة كلها بينما امتلك أهل الباطل القوى الجديدة ، فلا يجب حينئذ أن يتوقع المسلمون استحقاق النصر من الله ضد أعدائهم ، لأنه فى الحالات السابقة جميعها فإن الفرق (فرق نوعى) (٢) ، وإذا ما وجد الفرق النوعى ، فلن ينزل أى نصر من الله على أى عدد مهما كان ، وهكذا فعلى المسلمين أن يقضوا على هذا (الفرق النوعى) إن وجد ، حتى يرتفعوا على مستوى الفرق الكمى ، وبعدها يستحقون النصر الإلهى ، فالشأن فيمن يثبت على الصراط المستقيم أن ينال نصر الله ، وليس معنى هذا أنه لن يصاب بأى ضرر ، فلا شك أنه أثناء الكفاح والجهاد سيتعرض لأنواع من المصائب والمتاعب ، ويتعرض لهزيمة مؤقتة تماماً مثله مثل الفريق التالى ، إلا أن النصر النهائى سيكون مع ذلك الفريق الذى تمسك بصراط الله المستقيم وظل قائماً عليه لا يحيد عنه !!

لقد تعرض المسلمون عبر التاريخ الإسلامى إلى العديد من الأضرار والمصائب ، ونال المسلمون هزيمة ثقيلة فى غزوة أحد (شوال سنة ٣ هـ) نظراً لتصرفهم المنحرف ضد الأوامر النبوية العسكرية ، وفى

---

(١) هذه مقارنة ممتازة من المؤلف تستحق التنويه بها (المراجع) .

(٢) أضع متعمدا أقواسا حول مصطلح (الفرق النوعى) حتى يتأمله القارىء الكريم . فهو أمر مصيرى فى فقهنا لسنة الله (المراجع) .

غزوة حنين (سنة ٨ هـ) لم يكن نظام المسلمين فى التجسس قد اكتمل بعد ، فحين نزل الجيش الإسلامى إلى الوادى قام العدو الذى كان يختفى خلف الجبلين بامطار جيش المسلمين بوابل من السهام ، ولم يكن أمامهم من سبيل للنجاة .

وفى حصار الطائف (ذى القعدة ٨ هـ) اضطر المسلمون إلى فكه والعودة منه بعد أن أصيبوا بخسائر جسيمة لمدة ثلاثة أسابيع .

وفى مؤته (جمادى الأولى سنة ٨ هـ) وهى الغزوة التى استشهد فيها سبعمائة من بين ثلاثة آلاف مسلم ، ورأى القائد العسكرى المسلم خالد بن الوليد أن يعود إلى المدينة وينجو ببقية الجيش ... فى تلك الغزوات . لا يمكن تقدير الأمر على انه كان فى نوعية استعدادات العدو ... بل هو لمحض اختبارات من الله !! .

وقد آمن الناس ـ طبقاً لوعد القرآن الكريم أن هذه الهزائم هزائم وقتية يتعرض لها الجهاد الإنسانى وملأهم اعتقاد عظيم عام ساد بين المسلمين فحواه أن ما يصيب البعض منهم ليس خسارة ، لأن من يستشهد يذهب إلى الجنة بعد استشهاده ؛ وتضحيته هذه تعطى للأحيـاء منهم حق النصر الإلهى ، الذى يفتح لهم باباً جـديداً من الانتصـار .

وفى أيام خلافة عمر الفاروق رضى الله عنه حين ذهب ربعى بن عامر إلى بلاط رستم وعرض عليه الإسلام قال لرستم : اننا سـوف نجاهد حتى ننال وعد الله ، فقال له رستم ، ما هو وعد الله ؟ أجاب ربعى بن عامر : « الجنة لمن مات على قتال من أبى والظفر لمن بقى » .

(البداية والنهاية)

ولا شك أن معيار العزم والفداء الذى أظهره أصحاب رسول الله ، لو ظهر فى جماعة أخرى ، فإن نصر الله يصبح يقيناً ومؤكداً ... فسنة الله تحكم الجميع .

لقد كان هؤلاء الذين نصروا الإسلام هم الرجال الذين رأوا وهم يبايعون رسول الله أن معنى وضعهم يدهم فى يد الإسلام (بيعتهم) إنما يعنى أداء فرائض ومستلزمات هذه البيعة إلى آخر مدى ، حتى لو اضطروا إلى الفناء تماما على هذا الطريق ، فالبيعة تعنى بالنسبة لهم الموت .

فكان معنى الطاعة فى داخلهم يعنى استعدادهم الفورى لتنفيذ ما يطلب منهم .

عن أبى ثعلبه الخشنى رضى الله عنه قال : كان الناس إذا نزلوا تفرقوا فى الشعاب والأودية ، فقال رسول الله ﷺ : إن تفرقكم فى الشعاب والأودية انما ذلكم من الشيطان فلم ينزلوا بعد ذلك منزلا إلا انضم بعضهم إلى بعض حتى لو بسط عليهم ثوب لوسعهم .

وحين دخل كل صحابى الإسلام لم يكن يبق لخط نفسه شيئاً فخط الإسلام هو الخط الذى لا خط لسواه !!

وحين سأل النبى ﷺ الناس رأيهم قبل غزوة بدر قال سعد بن معاذ الذى كان يمثل الانصار : يا رسول الله خذ من أموالنا ما شئت وأعطنا ما شئت وما أخذت منا كان أحب الينا مما تركت .

إن هؤلاء هم الناس الذين حرروا أنفسهم وخلصوها من جميع أنواع العقد النفسية ، ومن جميع التحفظات ثم دخلوا دين الله ، ومثل هؤلاء الناس إذا اجتمع منهم عدة مئات ، أمكنهم ان يحركوا التاريخ الإسلامى حركة لا ينتهى تأثيرها إلا إذا انتهى ـ فى عالم العقول والنفوس ـ ذلك المنهج الذى كانوا قد قاموا على هديه بحركتهم !!

منهج الدعوة إلى الإسلام

يقول عز وجل فى محكم آياته :

« **شرع لكم من الدين ما وصى به نوحا والذى أوحينا إليك وما وصينا به إبراهيم وموسى وعيسى أن أقيموا الدين ولا تتفرقوا فيه كبر على المشركين ما تدعوهم اليه** » (الشورى — ١٣)

وهكذا لم تقل الآية القرآنية (أقيموا الدين واقضوا على الباطل) بل جاء فيها « **أقيموا الدين ولا تتفرقوا** » هذا فيما يتعلق باقامة الدين، فالحالة التى جاء فيها الأمر بالايجاب والحالة التى جاز فيها الأمر بالمنع والنهى هما — طبقاً لما ورد فى الآية الكريمة — حالتان تتعلقان بالدين ذاته ، وقد جاء الأمر بترك حالة واتباع آخرى وكأن الأمر الذى جاء فى الآية لم يكن إقامة الدين فى مواجهة إقامة الباطل بل جاء الأمر باقامة الدين فى مواجهة التفريق فى الدين .

لقد كتب المفسرون أن المقصود بالدين فى هذه الآية هو الدين الأساسى ، لأن الدين الأساسى كان واحداً بين جميع الأنبياء ، وفيه يمكن أن تكون التبعية المشتركة للجميع ، أما الشريعة المفصلة فيوجد فيها اختلاف طبقاً لتصريح القرآن الكريم « **لكل جعلنا منكم شرعة ومنهاجاً** » ، ومن هنا فلا يمكن اتباع جميع الأنبياء فى وقت واحد فيما يتعلق بالشريعة المفصلة ، ولم يكن الفرق الموجود بين الأنبياء بالنسبة للشريعة المفصلة قائماً على أساس أى تطور تشريعى بل كان قائماً على أساس الفرق بين الظروف ومراحل الدعوة . وهذا الفرق موجود الآن أيضا بين مختلف الفرق الإسلامية وسوف يظل على الدوام ، ويمكن أن نعبر عن هذا الأمر بعبارة أخرى

وهى أن الدين ينقسم إلى قسمين : قسم مطلوب بحالة واحدة على الـــدوام ، وآخر يكون تابعـــاً للظروف ، والأول يتعلق بالتعـــاليم الأساسية وقد جاء ذكره فى القرآن الكريم باسم « الشورى » والقسم الثانى الشريعة أو المنهاج أى القوانين الفرعية وأسلوب العمل ، والقسم الأول عبر عنه القرآن بكلمة « سبيل » والقسم الثانى من الدين ذكر باسم « سبل » ولهذا فالقسم الأول يظل باقياً على الدوام واحداً ويظل معمولا به لجميع الأزمنة وسيظل السبيل الواحد ، وعلى العكس من هذا فان القسم الثانى من الدين يتعلق بالظروف ، ويمكن أن يكون فيه احتمال أكثر من شكل واحد ، والحكم هو : أقيموا الدين ، دعوة الدين ، ولا تقيموا سبلا متفرقة ، انشغلوا باقامة الدين المتفق عليه ، ولا تندفعوا وراء لدين المختلف فيه فتتفرقوا .

ويخاطب القرآن الكريم المؤمنين فى عدة مواضع فيقول :

« إن الله قد حدد لكم صراطاً أو سبيلا فامضوا عليه ولا تتبعوا سبلا أخرى متفرقة ، وإلا ضللتم وابتعدتم عن الصراط المستقيم . وعبر القرآن الكريم عن هذا السبيل بأنه الدين القيم (١) ، حبل الله (٢) سواء السبيل (٣) الصراط المستقيم (٤) وغيرها ، وفى سورة الأنعـــام وبعد تقديم بعض الأحكام الأساسية ، يقول تعالى :

« وأن هذا صراطى مستقيماً فاتبعوه ولا تتبعوا السبل فتفرق بكم عن سبيله ذاكم وصاكم به لعلكم تتقون » (الأنعام — ١٥٣)

وليس المقصود بالسبل فى تلك الآية طرق الكفر والشرك بل تلك السبل التى تخرج فى الدين باسم الدين ، (قال مجاهد : السبل البدع — القرطبى) .

---

(١) البينة .
(٢) آل عمران .
(٣) المـــائدة .
(٤) الانعام .

فما يريده الله تبارك وتعالى من عباده جاء ذكره بوضوح فى القرآن الكريم ، أما كيف يتم تطبيق التعليمات القرآنية بصورة عملية فى الحياة فهذا موجود فى حياة الرسول وأصحابه ، فيجب على الإنسان أن يقوم على الدين الثابت من ناحية العقيدة والعمل الذى صح عن رسول الله .. أما اسقاط الآراء والأهواء على الدين فهذا أمر لا يقبل اسلامياً بلا خلاف بين المسلمين الفقهين بدينهم .. وهو من الضلال والتفرق على سبل مختلفة ، وشأنه أن يبعد الإنسان عن الصراط الإلهى الأساسى ، فالإنسان نفسه يعتقد أنه يمشى على هدى الدين بينما هو لا علاقة له بالدين الإلهى الأساسى .

الفرق بين الدين والشريعة

ما الـدين ؟

الدين هو التوحيد وجوهره عتراف المخلوق بخالقه ومالكه ، وجعله محوراً لجميع اهتماماته فهو كل شىء بالنسبة له ، يسلم له نفسه ، ويخضع له ، ... هذا هو أصل الدين ، فمن ملكه ملك كل شىء ومن أضاعه أضاع كل شىء ، وعندما يضيع دين الإنسان الحقيقى فلا يبقى للانسان أى شىء حتى ولو زعم بشكل تمثيلى أو بأسلوب جدلى أنه متدين . والأمر الذى جاء فى القرآن الكريم باقامة الدين يتعلق بذلك الدين ، وما جاء فى بعض سور القرآن عن هدف إقامة الدين إنما يعنى فى الأصل إقامة التوحيد أى أن يلجأ العبد الى الله وحده لجوءاً حقيقياً ، وأن يعبده وحده لا يشرك به أحدا فيعبده — بالتالى — حق عبادته ، فاذا قامت جماعة ما باثارة نزاع فقهى حول جزئيات العبادة أو المسائل المختلف عليها ، أو راحت تقيم جبهة سياسية تخدم الجماعة الحاكمة حتى ولو كانت معادية للاسلام باسم إقامة الدين فهذا لا يعنى أبداً « اقامة الدين » بل هو — بالعبارة القرآنية —

(اتباع للسبل التفرقة) وهو أمر ممنوع تماماً فى الدين وإن اثارة المعارك حول الأمور الثانوية أو القضايا المختلف فيها إنما يقضى على وحدة الأمة فالأمة حين تتفرق إلى فرق مختلفة فهى تحرم من نصر الله الاجتماعى ، وإقامة الدين إنما هو اسم للجهاد من أجل القضية (المتفق عليها) وهى قضية عبادة الله حق عبادته ، وليس اثارة جدل ونزاع بين المسلمين فى المسائل المختلف فيها .

فإذا كان المراد أصلا من الدين التوحيد فسوف يضم بداخله دائماً جميع المسائل المتفق عليها فى القرآن والسنة والتى لا تحتمل وجود آراء أخرى .

وعلى سبيل المثال فإن قضايا (وجود الله) ووحدانيته ، والدعوة إلى ربوبيته بين الناس ... مثل هذه الأمور ليس فيها اختلاف بين الأمة ، لأن هذه العقائد ثابتة بحكم الآيات والأحاديث ، وعلى العكس من هذا فإذا ما أخرجت لحلبة الصراع أبحاث مثل : هل لله جسم أو لا ؟ أين عرش الله ؟ ، هل الله قادر على خلق نظيره أم لا ؟! [1] وغيرها من الأمور التى لا يمكن أن تتفق فيها الأمة كلها على رأى واحد ، لأن جميع هذه الأمور أمور استنباطية والخوض فيها يجعل البعض يأخذ اتجاهاً ما طبقا لاستنباط شخص آخر بينما يأخذ البعض الآخر اتجاها آخر ، وهكذا تظهر نتائج مختلفة ، وتتجمع حول كل (نتيجة) جماعة من المؤمنين بها ، لدرجة أن يتحول الدين الواحد إلى عدة أديان .

وهكذا يبدو لنا أن الجهاد فى مجال المعتقدات (المتفق عليها) سابقة الذكر ، إنما هو وحده (الإقامة للدين) وعلى العكس من هذا فالقسم الثانى (أى المعتقدات الجدلية) سوف يوجد شقاقات وشروخاً

---

(١) لم يضيع المسلمين فى تاريخهم ولم يبددو طاقتهم الا الانشغال بهذه الجدليات التافهة التافهة التى نهى رسول الله عن الانشغال بها (المراجع) .

كثيرة فى المعتقدات ، وهو ما يسمى بالمصطلح القرآنى « التفريق فى الدين » والشىء الأول مطلوب والشىء الثانى غير مطلوب .

هذا هو أسلوب معاملة تلك الأمور التى يقال لها عبادات ، فمثلا : الوضوء من أجل الصلاة مسألة متفق عليها ، إلا أن الأراء المتعلقة بعدد أركان الوضوء وشروطه آراء كثيرة ، وبصرف النظر عن عدد السنن والمستحبات هناك اختلاف فى الرأى بين الفقهاء فيما يتعلق بفرائض الوضوء ، فعند الحنفية فرائض لوضوء أربعة وعند المالكية سبعة وعند الشافعية والحنابلة ستة (١) ، فإذا ما جعل تحديد تعداد هذه المسائل المختلف فيها موضوعاً للبحث والمباحثة فلا يمكن أن تتفق الآراء فيما يتعلق بعددها ، وهذا سيكون سبباً فى ظهور الاختلافات والفرقة ، وسوف يقسم الأمة الواحدة إلى عدة أمم ولهذا صدر الحكم فى جعل مدار الدعوة قائما على الأمور المتفق عليها ، وعدم جعل مدار الدعوة من الأمور المختلف عليها .

هذه المعاملة هى السياسة الإسلامية ، فإذا قام شخص فدعا الله أن يصلح الحكام ، والتقى بهم لقاء فردياً ونصحهم أن يعبدوا الله ويتعظوا بالآخرة ، ثم أوضح جوانب السياسة الإسلامية عن طريق الكتابة والخطابة بأسلوب واضح متزن ، فلن يكون هناك أى تفريق أو اشاعة للفتن بين رجال الأمة ، وعلى العكس من ذلك ، إذا رفع بعض الناس راية الاحتجاجات والمطالبات وكونوا جبهة سياسية وقاموا بحركة تهدف إلى تنحية الحكام عن السلطة ، فإن النتيجة الواجبة هى أن تصبح الأمة جماعات متفرقة ، إذ تنحاز فرقة إلى الحكام بينما هناك فرق أخرى ستعمل على تنحية الحكام عن السلطة ، وهكذا تنقسم الأمة إلى جبهتين تحارب إحداهما الأخرى ، وهكذا يظهر التفريق فى الدين باسم إقامة الدين .

---

(١) راجع الفقه على المذاهب الاربعة .

أما فيما يتعلق بآداب الوضوء وقواعده فهذه مسألة استنباطية ، وهذا هو السبب فى وجود آراء مختلفة لدى أهل العلم وذلك بالنسبة لتحديدها ، وهذه الحالة هى حالة الرسالة السياسية للأمة الإسلامية ، وهى كلها أيضاً معاملة استنباطية ، لأنه لا يوجد فى القرآن والحديث نص يحدد صراحة نوعية المهمة السياسية وكانت النتيجة ظهور عـدة آراء متعددة لدى أهل العلم فى هذا الباب ، وترى جماعة من جماعات وقتنا الحاضر — بإصرار — أن الهدف الأساسى للأمة المسلمة هو الجهاد لتأسيس حكومة إسلامية ، بينما يرى آخرون أن الحكومة أمر وعـد الله المسلمين به أى أنها منحة من عند الله وليست هدفاً يبذل من أجله الكفاح والجهاد (١) ، وترى جماعة ثالثة أن أساس العمل هو اصلاح المجتمع وليس اصلاح الحكومة ، فإذا ما أصلح المجتمع ظهرت تلقائياً الحكومة الصالحة ، وبالاضافة إلى هذه الاختلافات النظرية يوجد اسلوب يضم أموراً عملية حساسة جداً بالنسبة للحكومة وذلك حين تتم محاولة تنحية جماعة تسيطر على الحكم وسلبها الحكم ، فهى بالضرورة ستستخدم قوتها ضد معارضيها السياسيين ، ونتيجة لذلك سيحدث سفك للدماء بين المسلمين ، وتنتج عن محاولة « إقامة الدين » « تفريق فى الدين » وهكذا تكون نتيجة إقامة الدين (لتفريق فى الدين) وهناك أمر يتعلق بالشريعة أيضاً إذ يحتمل وجود أكثر من وجهة نظر واحدة تتعلق بأمر واحد من أمور الشريعة ، وتكون نتيجة محاولة تجميع الناس تحت راية واحدة ظهور العديد من الرايات ، ولهذا صدر الحكم دائماً بألا نجعل الأمور الإختلافية أساساً للحركة الإسلامية بل يجب أن تقوم حركتنا على أساس الأمور المتفق عليها فقط .

---

(١) يقصد المؤلف أن الله يمنحها عندما يملك المسلمون مؤهلات القيادة والخلافة فى الارض ويكونوا فى مستوى الخلافة (المراجع) .

ونتيجة لهذه الأسباب تحول نظام الخلافة إلى نظام ملكى فى الصدر الأول ، وظلت على هذا الحال لمدة ألف عام إلا أن مسلمى الأمة الصالحين لم يخرجوا على هذا النظام ، فقد قاموا بتقديم نصائح فردية للحكام إلا أنهم لم يقوموا بحركة انقلاب لتنحيتهم عن السلطة ، فهذا فقط هو دين الحركات المنظمة فى العصر الحاضر ، إذ ظهر بين المسلمين بعض الناس يقولون بأن الثورة السياسية هى أصل مهمة الأمة الإسلامية .. وكانت النتيجة أن أصبح المسلمون فى كل بلد مسلم منقسمين إلى جبهتين : جبهة الحكام وجبهة المعارضين الثوار ، وتدور رحى الحرب السياسية بطريقة لا نهائية بين مجموعتى المسلمين ، ولا تقدم لهم من هدية سوى هلاك البشر على المستوى الإسلامى العام ، وكل ما يحدث ـ للأسف ـ يحدث باسم « إقامة الدين » .

وفيما يتعلق بنوعية المهمة السياسية توجد آراء عدة بين علماء الأمة ، وهذا دليل على أن قضية الحركات السياسية هى قضية فرعية « للسبل المتفرقة » وليست مسألة فرعية (الدين) ولهذا فيحق للمصلح أن يقوم باصلاح حال الحكام المسلمين بالنصيحة إذا ما شاهد فيهم اعوجاجاً ، إلا أن لصدام السياسى مع الحكام باسم إقامة الدين يعنى الانحراف عن كتاب الله وهو اتباع للسبل المتفرقة وليس إقامة الدين فى حقيقة الأمر .

وليس معنى هذا التقسيم أن المطلوب من الدين هو الكليات فقط وأن الجزئيات ليست مطلوبة فالهدف فقط هو ملاحظة الفرق بين المطلوب الحقيقى والمطلوب الاضافى ، واتباع أسلوب التسامح فى الأجزاء الاضافية مع التشديد على الأجزاء الحقيقية . ويمكن أن نفهم هذا من خلال مثال محدد ، فهناك قضية تتعلق بالطعام ، ما هو الفرق بين الحرام والحلال ، فالمؤمن يجعل من الحلال غذاء له ولا يدخل إلى حلقه

أى طعام حرام ، والقضية الثانية هى مسألة آداب الطعام ، فمثــلا هل يتناول الطعام بيده أو بالملعقة ؟! هل يتناول الطعام جالساً على الأرض أو يتناوله جالساً على الكرسى إلى المنضدة ؟! هل يتناول الطعام منتعلا حذاءه أو خالعاً إياه ؟! إلى غير ذلك ، فالمسألة الأولى تدخــل فى كليات الدين فالنطق باسم الله يوضح بطريقة محددة ما هو الحلال وما هو الحرام بالنسبة للعبد ، ولكن بالنسبة للأمر الثانى فلا يوجــد بالنسبة له أى تحديدات فهناك أكثر من نموذج فى سيرة النبى ﷺ وفى حياة الصحابة الكرام ، ففى مثل هذه الحالة إذا ما قام رجل بالتشدد فى مسألة الحلال والحرام المنصوص عليها ، وجعل منها هــدفاً يركز عليه ، فلن تنقسم الأمة لأن التأكيد والتشدد هنا إنما يكون على نفس الأمور التى يتفق عليها علماء الأمة ولا توجد فيها أى خلاف فيما يتعلق بالآراء المختلفة ، وعلى العكس من هذا لو تم التشديد على قضــايا آداب الطعام فلن يكون هناك أى اتحاد فى الرأى على أى مسلك تنتهجه الأمة كلها ، وعلى سبيل المثال سيقول البعض أن هذه ليست مســألة انعدام شرعية لأمر جائز بل هى مسألة يمكن فيها اتباع الأمر السهل ، لأن الحديث يقول : « اخلعوا نعالكم فانها اروح لاقدامكم » ومن هنا فالمنهج الصحيح هو « كلوا من الطيبات واعملوا صالحاً » [1] وعليه يتم التشديد والتأكيد ولكن يجب اتباع التسامح فى الأشياء المتعلقة بنوعية آداب الطعام .

وحركة « أهل الحديث » هى فى شكلها الأصلى والأســاسى كانت خاصة بهذا الفهم المتمسك بالجزئيات ، ومع أنها لم تقدر على البقاء على هذا المسلك ، إلا أنها كانت — على الأقل — هى الحركة التى انتشرت على مستوى العامة بهذا الفهم !!

---

(١) المؤمنون — ٥١ .

الدين الكامل كيف يتحقق ؟

إن الصراع الذى يدور بين مختلف البلدان بين حاملى لواء الثورة الإسلامية الشاملة » وبين « حملة الدين المرحلى » هو فى الحقيقة قائم على أساس لفهم الخاطىء « للدين الشامل » فالناس يرون إن الإسلام دين كامل على أساس القوانين الحضارية ، ومن هنا فإن إقامة الدين تستلزم اقامته كنظام حضارى كامل ، فإذا كان معنى ادين الشـــامل هو هذا ، فإنه يعنى إن دين إبراهيم عليه السلام كان ديناً ناقصاً ، فمن المعروف انه لم يقدم جميع القوانين والضوابط الحضارية ، وهكذا الأمر بالنسبة لمعظم الأنبياء بينما نص القرآن الكريم صراحة بقوله :

« شرع لكم من الدين ما وصى به نوحاً والذى أوحينا إليك وما وصينا به إبراهيم وموسى وعيسى أن أقيموا الدين ولا تتفرقوا فيه » (١)

فالأصل إن الدين إنما جعل ، ليكون الإنسان موحداً بجميع المعانى، وكمال الدين هو فى الأصل كمال التوحيد • فالإنسان بقدر ما يعبد ربه بقدر ما يجعل من دينه ديناً كاملا ، وبقدر ما ينسى ربه بقدر ما يكون دينه ديناً ناقصاً ، ومهما كتبت من مواد قانونية فلن تستكمل هـــذه المواد معنى « الدين » وعلى سبيل المثال فإذا أدرجت جميع الأحكام المتعلقة بعالم القرن السابع الميلادى فى القرآن الكريم ، فستظل هناك أمور قانونية كثيرة لم تستكمل مثل القوانين البحرية والقوانين الخاصة بالفضاء وغيرها ، وذلك لأن هذه القضايا لم يكن لها وجـــود فى ذلك الزمـــان •

(١) الشورى — ١٣ •

والحقيقة أن الدين الكامل إن أخذ على هذ المعنى فإن الإسلام لا يبدو أيضا ديناً كاملا .

الأمير همدانى (نموذج للمسلم المثالى)

هناك مثال على المنهج الاسلامى سابق الذكر ، نجده فى تاريخ كشمير ، وكشمير منطقة مشهورة بجمال طبيعتها ، إلا أن فيها ما هو أجمل واعظم من جمال طبيعتها وهو نموذج المنهج الاسلامى الذى نجده فى حياة الأمير سيد على همدانى (١٣١٤ — ١٣٨٤ م) وقد اشتهر فى كشمير باسم « أمير كبير » وقد ترك بسيرته نموذجا قابلا للاحتذاء قل أن نجد له مثالا فى القرون الحالية ، فكشمير هى كالجنة بطبيعتها الخلابة وهى (بأمير كبير) قدمت منهجا للدعوة الاسلامية، وهذا المنهج أعظم كثيرا من جناتها ، وقد قال محمد اقبال (١٨٧٧ — ١٩٣٨ م) عن الأمير همدانى :

« إن فى يده منهج بناء الأمم » .

وهذا الرأى صحيح مائة بالمائة ، فكشمير المسلمة اليوم انما هى ثمرة جهاده ، الذى لم يتبع فيه أسلوب « السيف والرمح » أو « التصادم مع الزمان » بل أتبع فيه أسلوب الهداية المحببة لدى معظم القادة المسلمين فى الوقت الحاضر ، لقد حقق الأمير همدانى النجاح والفلاح بعد أن ترك « السيف والرمح » وكان اعظم درس قدمه فى حياته هو قوله : « ان اردتم بقاء الاسلام حياً فادفنوا إلى الأبد فكرة التصارع والتناحر ، وتجنبوا تماما إثارة الصراعات المذهبية والسياسية ، وبعدها ستنالون نصر الله وتوفيقه ، وسيتحقق للاسلام العزة والرفعة ويعز الله المسلمين بإسلامهم » .

كان (الأمير سيد على همدانى) — من سكان ايران — معاصراً لتيمورلنك (١٣٣٥ — ١٤٠٥ م) وقد غضب عليه شاه تيمور لسبب

ما ، وأصدر حكما بنفيه من إيران ، ولم يكن امام الأمير همدانى من سبيل إلا إعلان الجهاد ضد تيمورلنك والعمل على اقامة حكومة صالحة فى إيران ، حتى ولو كانت النتيجة الاستشهاد ، ولكنه (أمير كبير) أبتعد ــ فى أسلوبه ــ عن التصادم السياسى ، بل أخذ رفاقه الأربعين وخرج من وطنه (همدان) ، ووصل بهذه القافلة إلى كشمير سنة ٧٨١ هـ مارا بافغانستان ، وكان قد زار كشمير للسياحة من قبل فى سنة ٧٦٢ هـ .

ووصل إلى كشمير فواتته فرصة لإعلان حركة سياسية مناهضة للشاه تيمور ، وكان هناك أناس فى زمان تيمور يكرهونه لأسباب سياسية ، كان يمكن للأمير كبير أن يقيم معهم تحالفاً للقضاء على السلطة التيمورية ، إلا أنه تجنب لأقصى حد أى نوع من هذا العمل ، وهكذا فتح الطريق أمامه ليمتلك زمام القيادة ، وكانت هناك قضية تتعلق بالحقوق الاقتصادية والاجتماعية لمسلمى ذلك الوقت ، ومع أن أمير كشمير كان من أسرة مسلمة إلا أن مسلمى كشمير كانوا يمثلون أقلية فقيرة مستضعفة حتى قيل أنهم كانوا يضطرون إلى دفع نذور المعابد الهندوكية ، وكان يمكن للأمير همدانى أن يقود حركة الزعامة التى تهدف إلى المطالبة بحقوقهم ، ويتمكن من أن يصبح قائداً للمسلمين إلا أنه لم يهتم بهذا النوع من السياسة الطائفية !!

وهكذا اتجه (همدانى) إلى الطريق الذى ارتضاه وهو أن يبلغ رسالته باسم « الإنسانية » وأن يقدم عظاته وخطبه بطريقة سلمية لجميع فرق كشمير المختلفة ، وتمكن بسرعة كبيرة من أن ينال مكانة محببة لدى الفريقين المتصارعين فى كشمير ، لأن الفريقين أعجبوا به ، فقد راح يعمل على ايجاد وحدة بين الفريقين دون اثارة مسألة الحق والباطل ، وبطريقة لا يشعر فيها أى من الفريقين انه خاضع لضغط ما .

وجدير بنا أن نقول فى مجال المقارنة بين أسلوب همدانى والأسلوب الثورى السياسى — إن النوع الثورى من الحركات مهما بدا ناجحاً على مستوى الاجتماعات والخطب (والشعارات) فإنه قد أثبت بصورة عملية وعلى الدوام أنه أسلوب فاشل ، بالاضافة إلى أن هذا الأسلوب ليست له علاقة مباشرة بالدعوة الإسلامية ، وهو أسلوب من العمل رغم ما يبدو فيه من جانب ظاهر طيب إلا انه يركز على قضايا الدنيا فقط بينما هدف الدعوة الإسلامية هو توجيه النـــاس إلى قضـــايا الآخـــرة .

وبرنامج « همدانى » لم يكن قائماً على عملية رد فعل مضاد للشاه تيمور أو رد فعل متأثر بالظروف الوقتية لمسلمى كشمير الذين كان يحكمهم فى ذلك الوقت حاكم مسلم هو (سلطان قطب الدين) وكان يؤمن بالعديد من الاعتقادات الفاسدة ويرتكب الكثير من الأعمال السيئة ، لكن همدانى أرسل إلى السلطان رسائل عديدة مليئة بالنصح والارشاد واهتمت بضرورة اصلاح الأحوال . وهكذا لم يؤسس همدانى حركة ثورية تهدف إلى عزل السلطان عن الحكم ووضع حاكم صالح مكانه ، بل ارتفع « همدانى » فوق هذه العوامل واقام برنامجه الاصلاحى على أساس فكر ثابت ، ولم يكن لهذا البرنامج ميثاق (!!) فقد كان برنامجه برنامجا عمليا ، لقد انتشر هو ومن معه من اخوانه فى نواحى منطقة كشمير وبدأوا يبلغون الإسلام لأهالى هذه المناطق، تعلموا لغة الكشميريين وتأقلموا مع ظروف المنطقة ، وتحملوا المتاعب الناتجة عن استيطان بلد غير بلدهم .

وهكذا عاش (أمير كبير) حياة الصبر والتحمل ، وقام بحركته الاصلاحية فى صمت وهدوء .

الإسلام فى كشمير

مع أن دخول الإسلام فى كشمير بدأ على يد محمد بن القاسم الثقفى (٦٦ — ٩٦ هـ) فإن انتشار الإسلام بدأ بصورة واضحة فى كشمير أيام (سيد بلبل شاه قلندر التركستانى) ، وقبل سبعمائة سنة كانت كشمير امارة خاضعة لأمير بوذى يدعى (رنيجن شاه) وقد أسلم هذا الأمير البوذى على يد سيد بلبل شاه ، ولما كان الناس — فى ذلك الزمان (١) — على دين ملوكهم ، اسلم عدد من الكشميريين ، وكان بلبل شاه تابعا للمذهب الحنفى ، وهكذا اتبع المسلمون الكشميريون آنذاك المذهب الحنفى فى عبادتهم ، وحين قــدم (الأمير سيد على همدانى) إلى كشمير وبدأ النـــاس يسلمون على يديه ظهرت مســألة خلافية تتمثل فى أى المذاهب يسلكون فى عبادتهم ، فقد كان (همدانى) نفسه شافعى المذهب بينما كان مسلمو كشمير على مذهب أبى حنيفة !! فإذا ما قام (أمير كبير) بتلقين هؤلاء المسلمين الجدد المذهب الفقهى الشافعى فالنتيجة الحتمية هى انقسام المسلمين إلى جماعتين من حيث المذهب : الجماعة التى أسلمت على يده ثم بقية مسلمى كشمير ، فقد كان الخلاف بين الحنفية والشافعية يتعــدى انفصـــال مدارســـهما ومساجدهم إلى أصل عملية التبليغ ، فى محاولة كل منهما اثبات صحة وأفضلية مذهبه الفقهى ، فاذا ما أصبح المسلمون فى كشمير جماعتين منفصلتين ، بدأت كل جماعة تتصارع مع الأخرى فتضيع فيما بينهم تلك القوة التى كان يجب أن تبذل فى سبيل نشر كلمة « الحق » وتمضى الأجيال ويستمر الاختلاف الذى لا ينتهى أبداً •

---

(١) ولازالوا (المراجع) .

ولهذا قام (الأمير سيد على همدانى) بتبليغ أسس الدين فقط. ولم يثر أبداً أى بحث يتعلق بالمذاهب الفقهية ، ولقد احتاط حتى إنه أخفى عن متبعيه مذهبه الشافعى وكان يصلى مع المسلمين جميعا بالطريقة الحنفية ، وكان ينصح زملاءه بأداء العبادات طبقا للمذهب الحنفى ، وكانت النتيجة أنه وجد فرصاً مناسبة ليؤدى — دون نزاعات جانبية — رسالته فى كشمير ، ففاز بتعاون جميع الطبقات ، وظل فى أمن ، بعيدا عن الدخول فى متاهات القضايا الفرعية ، وقد نجح فى نشاطه فى سبيل الدعوة الإسلامية حتى أصبحت كشمير منطقة تضم أغلبية مسلمة حتى الآن ، ولو قام (أمير كبير) باثارة جدل حول المذهب الحنفى والمذهب الشافعى لما حالفه النجاح فى تلك المنطقة ، ولو حقق بعض النجاح فسيكون على حساب انقسام مسلمى كشمير إلى فريقين متصارعين .

وليس معنى هذا ان الناس الذين يمضون على هذا الطريق لا ينشأ بينهم اختلاف . وأحوال « أمير كبير » نفسه تدل على هذا ، فحين كان فى الثالثة والسبعين قدم له بعض الأشرار من منطقة (بكهلى) (بكشمير) السم فكانت وفاته إلا أن هذا النوع من الاختلاف انما يكون نتيجة لأسباب شخصية ، تهدف إلى الاضرار الشخصى بالداعية فقط ، بينما إنشاء فرقة دينية عن طريق تحويل مسألة غير دينية إلى مسألة دينية يعد جرماً كبيراً ، اذ يسلب الجماعة المسلحة جميع النعم التى قدرها الله لها كجماعة تحمل كتابه وتستمسك بصراطه المستقيم .

وحياة (أمير كبير) إنما هى مثال عملى ناجح تماما لاسلوب العمل الاسلامى ، فالشىء الذى ركز عليه فى كفاحه ونشاطه من أجل الدعوة كان قضية (التوحيد والآخرة) ، ولم يثر على الإطلاق أية

قضايا أخرى كالقضايا السياسية أو الاقتصادية أو الفقهية فقد كان يركز أساساً على أصل الدين ، وليس على فرعيات الدين • وليس معنى هذا أن السياسة والاقتصاد عنده أمور خارجة عن الدين ، أو أنه كان يعدها أموراً غير ضرورية من ناحية الآداب والمناسك • فقد كان يعرف أهمية كل منها ، واتبع كل شىء اتباعا عمليا إلا أن الشىء الذى ركز عليه كأساس لعمله هو الدين المتفق عليه وليس « السبل المتفرقة » !!

كان « أمير كبير » يصلى مراعيا جميع شروط الأحكام الفقهية ، ولم يسع أبداً وراء الاختلافات الفقهية أو اثبات خطأ مذهب ما وترجيح مذهب آخر ، وقد اتخذ أيضا منهجا اقتصاديا ، والا فكيف كان يمكنه ورفاقه أن يعيشوا ، ولكنه لم يجعل حل القضايا الاقتصادية أو العمل على وحدة الأمة كلها قضية يقيم عليها أساس حركته ، وهكذا ورغم أنه لم يرفع شعار السياسة إلا أنه كان يتبع سياسة عميقة وراسخة، ولو لم يتبع هذا الأسلوب لما كانت لكشمير اليوم هذه المكانة ، فهى الولاية الوحيدة بالهند التى بها وزارة مسلمة ، ولا مجال لقيام أية وزارة من أديان أخرى • وهذه الهيبة السياسية التى تتمتع بها كشمير انما هى نتيجة لدعوة « أمير كبير » •

ومع أنه لم يمض حياته كلها على أى برنامج سياسى بالمعنى المعروف ، ولم يعترف به أحد « كقائد سياسى » ومع أنه لم يسـع وراء شىء كهذا ، وقام فقط بالاستمساك بالحقيقة المطلقة • فإن كل الأشياء قد سعت اليه بعد ذلك ، ونال كل ما أراد أن يحققه من نشر دين الحق بين أهل منطقة كشمير !!

والخلاصة ان أهمية الدين تكمن أساسا فى نجاة الانسان كلية من الشرك ، وتركيز جل أهتمامه على الله الواحد فقط ، وهكذا تدين له الحياة بأكملها • ومن الضرورى لنا أن نؤكد قبل كل شىء على هذا

الأمر ، وأن نجعل من هذا الأمر أساسا للدعوة والتبليغ ، وبعدها يلزم اتباع طريقة ما فيما يتعلق بالمستلزمات الدينية المطلوبة فى المعاملات التفصيلية ، تتطابق مع الظروف ، وبالتالى لا يجوز أن نتخذ من تلك الأشياء أساسا لحركة الدعوة ، فالانسان حين يتخذ من مسألة ما أساسا لحركة الدعوة فهو يجعل للمسألة الفرعية نفس مكانة المسألة الأساسية، ومثل هذا النوع من العمل من شأنه أن يصيب نظام الدين بالاضطراب، ويدخل عليه الفوضى — فاذا أعجبــك مذهب فقهى خاص أو رأى ما فلتتخذه مذهباً أو رأيا لك ، ولكن لا يجوز أن تقيم على أساسه مسجداً أو مدرسة ، وإذا كنت تحترم طريقة ما فليكن لك ما تشاء ، ولكن لا تجعها أساساً أو ميزاناً إسلاميا تقيس به الآخرين ، فإذا أقام حاكم مسلم نظاماً على أساس الملكية أو الجمهورية • ورأيت أنت أن النظام الصحيح هو أى نظام آخر فلا تجعل من تلك المسألة محل نزاع سياسى فى البــلاد ، وإذا كانت لديك بصــيرة ، ورأيت حقوق أمتك الاقتصادية والاجتماعية قد سلبت فاغرس لدى أفراد الأمة العاطفة التى تمكنهم من القيام بالدفاع عن حقوقهم بقوة وأمانة وحل قضيتهم، ولكن لا تثر فيضانات الاحتجاجات والمطالبات ضد من تفترض أنت أنهم ظلمة ، فمثل هذا النوع من السلوك انما هو ابتعاد عن سبيل الدين الواحد ، وهو سعى وراء السبل المتفرقة • ومثل هذه المحاولات مهما كانت تحمل من حسن النوايا فهى تنشر — فى الواقع — الفساد فقط ، إذ هى لا تبعد الانسان عن عبادة الله الحقيقية فقط ، بل تصبح سبباً فى تمزيق الأمة وتفريق الجماعات ، والله لا يحب بث الفرقة بين أهل أمته ، ولا يمكن لمن نالوا نصر الله — إن فعلوا هذا — أن ينالوه مرة ثانية ، كما أن الفرقة لا يمكن أن تعيد للأمة وحدتها السابقة ؟

---

(١) هذه المحاضرة القيت فى الاجتماع السنوى لجمعية اهل الحديث (جمون وكشمير) فى سرينكر ٣٠ يوليه ١٩٧٨ م ٠

السيرة النبوية النموذج الأعلى للحركة الإسلامية

ان كتب السيرة التى تناولت حيـاة النبى ﷺ هى من حيث المجموع تتحدث عن نبى الاسلام كشخصية من الشخصيات المعجزة — فهذه الشخصية — كما تصورها معظم هذه الكتب قامت بأساليب فوق الطاقة البشرية للسيطرة على العرب جميعا .

وكتب السيرة تتحدث عن قصص الكرامات والمعجزات التى لا نجد لها مثيلا فى التاريخ الانسانى وقد بولغ فى هذا الأمر لدرجة أن الناس اضافوا خيالات لتلك الأحداث التى لا توجد فيها جوانب تتسـم بالاعجاز ، وعلى سبيل المثال فإن ما جاء فى أمر هجرة صهيب بن سنان الرومى رضى الله عنه حين تحرك من مكة فاعترضه بعض شباب قريش ، فقال صهيب : اذا ما أعطيتكم مالى وعتادى تركتمونى ، فقالوا له : فأعطاهم صهيب بعض ما كان عنده من ذهب ووصل إلى المدينة سالما .

وتنسـب هـذه الرواية إلى البيهقى اذ يقول : « فلما رآنى (أى الرسول) قال : يا أبا يحيى : ربح البيع فقلت يا رسول الله ما سبقنى اليك أحد ، وما أخبرك إلا جبريل عليه السلام » .

إلا أن (ابن مردويه) (وابن سعد) ينقلان نفس الواقعة هكذا :

« فخرجت حتى قدمت المدينة فبلغ ذلك النبى ﷺ فقال : ربح صهيب ، ربح صهيب » (مما يوحى بأن النبى كان قد بلغته القصة !!)

فالحقيقة أن حياة النبى ﷺ بأكملها كانت فى الواقع حياة انسانية بسيطة ، ولهذا فهو مثال يحتذى للمسلمين ، ونموذج رائع ننتهج نهجه ،

فهو إنسان يمشى على الطريق ، ويتعثر أيضا كغيره من عامة الناس ، ولهذا كان الناس يتعجبون : « فانك تقوم بالأسواق وتلتمس المعاش كما نلتمسه » • (البداية والنهاية)

والحقيقة ان عظمة حياة النبى ﷺ تتمثل فى الجانب الانسانى لهذه الحياة وليس فى قصص إعجازه المليئة بالأسرار وتوفيقه كامن فى نصر الله له ، ومن هذا الجانب فهو بلا شك شخصية معجزة • ومن هنا فإن ظهور هذه المعجزة الالهية انما كان على مستوى « التبشير بالرسول » وليس على مستوى الكرامات الشخصية •

وتتطابق صورة رسول الله فى القرآن مع صورته الحقيقية على ظهر هذه الأرض •

بدايـــة الدعـــوة

حين نزل الوحى على رسول الله ﷺ وهو فى غار حراء • وكان فى الأربعين من عمره ، ترك لديه رد فعل قوى ، وهو رد فعل كان يمكن ان يحدث لأى « انسان » عادى ، فقد عاد إلى بيته خائفا مرتعداً ، حيث تقيم زوجته خديجة ، وكانت هى نفسها بصرف النظر عن حادثة الوحى فى وضع يمكنها من أن تقيم رأياً محايداً ، فقالت للنبى ﷺ : « كلا والله ما يخزيك الله أبداً ، انك لتصل الرحم وتحمل الكل وتكسب المعدم وتقرى الضيف وتعين على نوائب الحق »

(متفق عليه عن عائشة) •

وفيما يتعلق بحركة الدعوة ، فقد كان ما حدث للنبى شيئا طبيعيا ، وتعرض لما يتعرض له أى داعيـــة فى بيئة جــديدة ، فقد استلزمت الظروف أن يبدأ دعوته سراً •

« ذكر ابن اسحاق أن على بن أبى طالب جاءهما وهما يصليان ، فقال على : يا محمد ما هذا ؟ ، قال : دين الله الذى اصطفى لنفسه ، وبعث به رسله فأدعوك إلى الله وحده لا شريك له ، وإلى عبادته وان تكفر باللات والعزى فقال على : هذا أمر لم اسمع به قبل اليوم فلست بقاض أمراً حتى أحدث به أبا طالب ، فكره رسول الله ﷺ أن يفشى عليه سره قبل أن يستعلن أمره ، فقال له : يا على اذا لم تسلم فاكتم ، فمكث على تلك الليلة ثم إن الله أوقع فى قلب على الاسلام ، فأصبح غاديا إلى رسول الله ﷺ حتى جاءه فقال : ما عرضت على يا محمد ؟ فقال له ، رسول الله ﷺ : تشهد ان لا اله الا الله وحده لا شريك له وتكفر باللات والعزى وتبرأ من الأنداد ، ففعل على وأسلم، ومكث يأتيه على خوف من أبى طالب ، وكتم على إسلامه ولم يظهره (١).

وحين عاد المسلمون الأوائل من الأوس والخزرج إلى يثرب كانت هذه أيضا هى طريقتهم ، أى القيام بالدعوة سراً ، (فرجعوا إلى قومهم يدعونهم سرا — الطبرانى) .

لقد اهتم النبى ﷺ طوال حياته اهتماما شديدا بألا يتخذ أى اجراء قبل أن تتهيأ له القوة اللازمة لاتخاذ هذا الاجراء ، تقول عائشة رضى الله عنها : إنه تجمع لدى النبى ﷺ ٣٨ صحابيا ، فطلب أبو بكر رضى الله عنه من النبى ان « يظهر » وأصر على ذلك ، (أى أن يأتى أمام النـــاس ويبلغهم دعـــوته جهراً) فما كان من النبى إلا أن قال : « يا أبا بكر إنا قليل » وهكذا حين اسلم عمر فى السنة السادسة للبعثة قال للنبى : يا رسول الله لم نخفى ديننا ونحن على الحق ؟ فدين الآخرين ظاهر بينما هم على باطل ؟ . فأجابه النبى : « يا عمر إنا

---

(١) البداية والنهاية مجلد ٣ ص ٢٤ .

قليل » ، وظل هذا هو أسلوب النبى ﷺ حتى كانت الهجرة ، ونظمت القوة الاسلامية ، وتركزت فى مكان واحد ، وقدمت قريش بجيشـها لاستئصال هذه القوة ، وهنا صدر الاذن بالمواجهة ، وفى غزوة بدر حين بدأ أصحاب الرسول فى مواجهة اعدائهم قال لهم النبى ﷺ : « هذا يوم له ما بعده ، وكأن وقت اتخاذ الاجراءات العملية قد حان ، وذلك حين أصبح المسلمون فى وضع يمكنهم من تشكيل مستقبل جديد للدين الحنيف عن طريق اتباع هذه الاجراءات العملية التى بداوها آنذاك ، وقبل ذلك لم يسمح لهم باتخاذ مثل هذه الاجراءات العملية.

ونحن نعرف من الروايات أن النبى ﷺ حين كان يكلف بمهمة ما تتعلق بالدعوة العامة ، كان يشعر بضخامة هذا العمل وعظمته . فكان ينصرف إليه انصرافا كاملا لقد أراد أن يتكفل به أهل بيته من الناحية الاقتصادية حتى يتمكن من أن يدير الأمور بطريقة طيبة ، فجمع فى بيته أسرة عبد المطلب وكانت تضم فى ذلك الوقت أربعين شخصا تقريبا وطبقا لاحدى الروايات تجمع ثلاثون شخصا ، فأعلن أمامهم أن الله بعثه اليهم وطلب منهم أن يتعاونوا معه حتى يتمكن من أداء هذه المهمة .. قال :

« يا بنى عبد المطلب ، إنى بعثت إليكم خاصة ، وإلى الناس عامة فأيكم يبايعنى على أن يكون أخى وصاحبى ، ووارثى . ويكون معى فى الجنة ويكون خليفتى فى أهلى » (أخرجه أحمد عن عائشة)

لم تكن عائلته على استعداد لتحمل مسئوليته الاقتصادية . كان عمه العباس بن عبد المطلب من الناحية الاقتصادية فى وضع يمكنه من تحمل المسئولية ، إلا أنه سكت أيضا ، « فسكت العباس خشية أن يحيط ذلك بماله » ، الا أن الله تعالى نصره ، فقد أعانه اقتصاديا

فى حياته المكية أولا بمال زوجته خديجة ـ رضى الله عنها ـ وبعد ذلك بأبى بكر الصديق .

لقد كان النبى حريصا حرصا شديدا فى تبليغه دعوة الحق للناس : فينقل ابن جرير عن عبد الله بن عباس أن بعض كبار أهل مكة تجمعوا حول الكعبة بعد غروب الشمس وطلبوا الحديث مع رسول الله فبعثوا إليه ـ كما تقول الرواية ـ ان اشراف قومك قد اجتمعوا لك ليكلموك، ثم تقول الرواية :

« فجاءهم رسول الله ﷺ سريعا وهو يظن أنه قد بدا لهم فى أمره بدء وكان عليهم حريصا يحب رشدهمويعز عليه عنتهم » .

(ابن جرير عن ابن عباس)

إلا أن الذين دعوه كانوا قد فعلوا ذلك رغبـة فى الجدال فقط لا للاقتناع ، وهكذا عاد رسول الله ﷺ بعد حوار طويل : (ثم انصرف رسول الله ﷺ إلى أهله حزينا آسفا لما فاته مما كان يطمع به من قومه حين دعوه ولما رأى من مباعدتهم إياه) .

(تهذيب سيرة ابن هشام مجلد ١ ص ٦٨)

وهكذا حين تجمع الناس حول أبى طالب فى مرض وفاته فقالوا : لقد كان لنا مع ابن أخينا قبل موتك أمراً (فخذلنا منه وخذله منا ، ليكف عنا ولنكف عنه ، فدعاه أبو طالب وسـأله : ما تريد من القوم ؟ فقال : « تقولون لا اله الا الله وتخلعون ما تعبدون من دونه » الا أن القوم لم يكونوا على استعداد للايمان بما جاء به ، وبعد أن انصرف القوم قال أبو طالب (طبقا لرواية ابن اسحاق) : (والله يا ابن أخى

ما رأيتك سألتهم شططا) . (فطمع رسول الله ﷺ فيه) فجعل يقول له : (أى عم ! فأنت فقلها استحل لك بها الشفاعة يوم القيامة) .

(البداية والنهاية)

لقد كان ﷺ يتحمل ثورة المدعوين وهيجانهم إلى آخر حد ، بعد فتح مكة حضرت هند بنت عتبة بن ربيعة لتبايع رسول الله ، وكما هو متبع فى مثل هذا الموقف ، وحين كان النبى ﷺ يقرئها كلمات البيعة قال : « لا تقتلوا أولادكم ، فقالت له هند : أو هل تركت لنا أولادا نقتلهم » (ابن كثير)

إلا أن هذه الجملة الساخرة لم تترك لدى النبى أى أثر ، وأخذ منها البيعة منشرحا مسروراً .

لقد اتجه رسول الله ﷺ بكل قوته العقلية والجسدية ، وكرس كل وقته فى سبيل الدعوة ، بل ضحى بكل ما يملك من أجلها إذ قبل النبوة كان الرسول قد تزوج من سيدة غنية نال بزواجها مالا كثيرا .

ومن وقائع الدور المكى الأول أن قادة قريش أرسلوا عتبة بن ربيعة ممثلا عنهم الى رسول الله ، وصل عتبة إلى رسول الله فأصابه الخوف وملأته الرهبة ، وعلاه الرعب ولم يخرج إلى أهله ، واحتبس عنهم ، فقال أبو جهل :

« والله يا معشر قريش ما نرى عتبة إلا صبأ إلى محمد وأعجبه طعامه وما ذاك إلا من حاجة أصابته ... انطلقوا بنا اليه ، فأتوه ، فقال أبو جهل : والله يا عتبة ما جئنا إلا أنك صبوت إلى محمد وأعجبك أمره فإن كان بك حاجة جمعنا لك من أموالنا ما يغنيك عن طعام محمد ، فغضب واقسم بالله لا يكلم محمدا أبدا » .

(البداية والنهاية مجلد ٣)

وهكذا يحكى عن عبد الله بن عباس أن الوليد بن المغيرة جاء اليه فأسمعه رسول الله ﷺ القرآن فتـأثر بالقرآن كثيرا ، وعرف أبو جهل أن الوليد بن المغيرة تأثر بكلام الرسول ، فقال له : « ان كنت تريد أن يجمع الناس لك مالا جمعوا لك لأن بك رغبة فى مال محمد » .

وهكذا كانت حالة النبى المالية جيدة فى بداية عهد النبوة ... ولكن فى السنة الثالثة عشرة حين هاجر إلى المدينة لم يبق معه شىء حتى انه اقترض من أبى بكر ليعد متاع السفر .

لغــــة الدعــوة :

مع أن النقاط الأساسية للدعوة الإسلامية محددة على أساس منطقى ، إلا أنها تتسم بالتماثل الشديد ، فإن كلمات الدعوة حين تخرج من لسان الداعى فهى تضم شيئا آخر ، وهى ذات الداعى نفسه ، وتعد هذه إضافة تسجل للمضمون المحدد للدعوة وتجعله عملا خالدا ، ورغم كونه عملا واحدا إلا أنه يبدو بأشكال متنوعة لا يمكن أن يوضع لها فهرس محدد ، ففى صدر الداعى قلب يرتجف من خشية الله وهو يتمنى بكل اخلاص أن يتقبل المدعو الايمان ، ويحمل الداعى بداخله عاطفة تجعله يود لو أستطاع جذب عباد الله إلى دين الله لينال بذلك رضا الله . هذه الأمور لا تضيف تأثيراً خاصا فقط إلى طبيعة الكلمات التى تنطلق من لسان الداعى بل تمنح الدعوة تنوعا كبيرا من الناحية الشكلية لأن عاطفة الشوق التى تؤثر فى المدعو تجبر الداعية على أن يراعى عقلية كل شخص مراعاة تامة وهو يعرض عليه دعوته .

ويتضح هذا الأمر بجلاء فى حياة النبى ﷺ ، لقد انشغل بتبليغ الدعوة ليل نهار ، إلا أن أسلوبه لم يكن متمثلا فى ترديد عدة ألفاظ محددة أمام كل شخص بل كان يعرض حديثه مراعيا نوعية المخاطب.

ففى العصر المكى الأول قام بدعوة ابى سفيان وزوجته هند ، وطبقا لرواية ابن عساكر ، قال :

« يا ابا سفيان بن حرب ويا هند بنت عتبة والله لتموتن ثم لتبعثن ثم ليدخلن المحسن الجنة والمسيىء النار » .

وينقل ابن خزيمة أن الرسول ﷺ خاطب شيخا يدعى حصين فقال : « يا حصين ! كم تعبد من اله ؟ قال : سبعا فى الأرض وواحدا فى السماء . قال فاذا اصابك الضر فمن تدعو ؟ قال الذى فى السماء . قال فاذا هلك المال فمن تدعو ؟ قال الذى فى السماء . قال فيستجيب لك وحده وتشركهم معه ؟ » (١) .

وينقل الامام أحمد عن أبى أمامة ان رجلا من أحدى القبائل قدم إلى رسول الله ﷺ ليعرف بماذا يأمرهم به . فقال له الرسول :

« بأن تصل الأرحام وتحقن الدماء وتؤمن السبل وتكسر الأوثان وتعبد الله وحده لا تشرك به شيئا » .

وبعد وصول النبى إلى المدينة أرسل الى أهل نجران كتابا يدعوهم فيه إلى الايمان جاء فيه :

« إنى أدعوكم إلى عبادة الله ونبذ عبادة العباد وأدعوكم إلى ولاية الله ونبذ ولاية العباد » .

لقد كان القرآن الكريم على الدوام هو الوسيلة الهامة للدعوة والتبليغ ، فكان الرسول ﷺ اذا ما قابل شخصا أسمعه بعض آيات القرآن الكريم . وجاء فى معظم الروايات ما يلى : (ثم ذكر الاسلام وتلا عليهم القرآن) ، وفى رواية آخرى : (فعرض عليهم

---

(١) الاصابة : المجلد الأول .

الاسلام وقرأ عليهم القرآن) . وكان لجاذبية القرآن وقع فى نفوس العرب لدرجة أن بعض مخالفى الاسلام العتاة كانوا يخرجون بالليل، ويختفون بجوار بيت الرسول فيسمعون القرآن وهو يتلوه ..

لقد كان للأدب السماوى القرآنى تأثير لا حد له على العرب . حين قدم الوليد ابن المغيرة ممثلا لقريش إلى النبى ﷺ تلا عليه النبى آيات من القرآن ، فارتجف ، ولما رجع قال لقريش : إنه كلام يفوق كل كلام : (وانه ليعلو ولا يعلى عليه وانه ليحطم ما تحته) . وتلاوة القرآن من أجل التبليغ كانت الطريقة المعروفة فى ذلك الزمان ، فحين وصل مصعب بن عمير إلى المدينة مبلغا كانت طريقته أن يتحدث مع الناس ويتلو عليهم القرآن (يحدثهم ويقص عليهم القرآن) وقد اشتهر بالمقرىء نظرا لاقرائه الناس القرآن (وكان يدعى المقرىء) (١)

وفى مكة استمرت دعوته بأسلوب ثابت متزن فى ظل الأدب القرآنى الرفيع ، ولم يكن لدى المعارضين من شىء سوى السب والشتم حتى انه بدأ يقال بين جماعات مكة المتزنة أنه لا يوجد لدى معارضى محمد من جواب دامغ يمكن أن يجيبوا به عليه ، وقد قام أشراف مكة فى اجتماع خاص بدعوته ، وأعدوا خطة للحديث معه ، والسبب طبقا لرواية ابن جرير هو أن يبرئوا ذمتهم ، أمام قومهم (ابعثوا إلى محمد فكلموه وخاصموه حتى تعذروا فيه (٢)) .

كفاية العرب وصلاحيتهم :

فيما يتعلق بقبول الدعوة ، كان أمرها يعتمد على صدق الدعوة وجهاد الداعى ، وفوق هذا كان أمرها يتوقف على ظروف المدعو ،

---

(١) حلية الاولياء ، المجلد الاول .
(٢) الطبرى .

وكان للعنصر الانسانى الذى تجمع فى بلاد العرب قيمة عظيمة ، فمن ناحية احتفظ العنصر العربى بالاضافة الى ما لديه من جاهلية عربية قديمة وبداوة وضراوة احتفظ ببساطة الفطرة ، فقد ضمت مساحة الثلاثمائة ألف كيلو من الأرض المسطحة الساخنة • أعلى وأسمى المثل الانسانية فالعربى الذى جعل من ناقته الوسيلة الوحيدة لمعاشه يقوم بذبحها ليقدمها طعاما لضيوفه حتى لا يجوعوا ، وكان اذا ما لجأ مظلوم إلى خيمة عربى ، حمل هذا العربى سيفه وقام بحمايته ، فلا يتمكن أحد من قتل المظلوم قبل قتل صاحب الخيمة ، وكان الأشرار اذا ما قاموا بعمليات السلب والنهب ، وأرادوا الاستيلاء على ملابس أو مجوهرات النساء لم يتمكنوا من تجريد النساء من ملابسهن • وما كانوا أبدا ليلمسوهن ، فقد كانوا يرون أن من الضرورى سلب المجوهرات حين تكون المرأة فى كامل ملابسها ، وكان المهاجمون والمغيرون يحولون أنظارهم حتى لا تقع على النساء العاريات •

وليس من الصحيح القول بأن عرب البادية كانوا أصحاب عقول بسيطة قليلة الادراك ••• لا ••• لقد كانوا على درجة عالية من الادراك والوعى وكان يمكنهم الوصول إلى ادق معانى الكلمات بل إلى بطون الكلمات •

لقد قدم سبعة من المسلمين الجدد من احدى القبائل إلى رسول الله ﷺ ، وأثناء حديثهم معه قالوا : لقد تعلمنا من الجاهلية خمسا سنظل عليها حتى تمنعنا إياها :

(قال وما الخصال التى تخلقتم بها فى الجاهلية ؟ قالوا : الشكر عند الرخاء ، والصبر عند البلاء ، والصدق فى مواطن اللقاء والرضا

بمر القضاء ، وترك الشماتة بالمصيبة اذا حلت بالأعداء ، فقال رسول الله ﷺ ، فقهاء أدباء . كادوا أن يكونوا أنبياء) (١) .

وكان (ضماد) رجلا من قبيلة (أزدشنوءه) ، وكان يقوم بأعمال السحر والشعوذة ، وقدم ذات مرة إلى مكة ، فأخبره الناس أن النبى ﷺ ، حل به أثر من الجن ، فذهب ضماد إلى النبى وفى نيته أن يعالجه بما لديه من معلومات ، ولكن حين سمع (ضماد) كلام النبى قال : « بالله لقد سمعت كلام الكهنة والسحرة ، ورأيت كلام الشعراء ، إلا أننى لم أسمع مثل هذا الكلام أبدا فمد يدك أبايعك » .

وكالعادة لم يخطب النبى خطبة طويلة بل قال فقط ما كان يقول فى هذه المناسبة الاسلامية :

« إن الحمد لله نحمده ونستعينه ، من يهده الله فلا مضل له ومن يضلل فلا هادى له ، اشهد أن لا اله الا الله وحده لا شريك له » .

إلا أن (ضمادا) وجد فى هذه الكلمات المختصرة كنزا من المعانى (فقال له ضماد) أعد على كلماتك هؤلاء فلقد بلغن قاموس البحر) (٢) .

ولم يكن هناك أى فرق بين قول العربى وفعله ، لقد كان ﷺ صادقا قولا وعملا ، وكان يرى الأخرين أيضا هكذا ، فما يراه مصدقا عقلا يؤمن به على الفور ، يروى ابن اسحاق عن عبد الله بن عباس أن قبيله بنى سعد أرسلت ضمام بن تعلبة ممثلا لها عند رسول الله ﷺ ، فقدم إلى المدينة فأناخ ناقته على باب المسجد وربطها ، ودخل المسجد بعد ذلك ، وكان رسول الله ﷺ جالسا مع أصحابه فى ذلك الوقت،

---

(١) كنز العمال ١ — ٦٩ .

(٢) البداية والنهاية ج ٣ ص ٣٦ .

وكان ضمام رجلا شجاعا عاقلا وقف أمام مجلس النبى وقال : « أيكم ابن عبد المطلب ؟ » فقال رسول الله ﷺ : « انا ابن عبد المطلب ، فقال ضمام : يا محمد ، قال رسول الله ، نعم • قال : يا ابن عبد المطلب أريد أن أسألك وسوف أشتد فى سؤالى فلا تتأثر من هذا ، فقال رسول الله ﷺ : أنا لا اتأثر بهذا ، أسأل وأخرج ما فى قلبك ، قال ضمام : استحلفك بمعبودك ، وبمعبود أولئك الناس من قبلك ، وبمعبود من بعدك (آالله بعثك الينا رسولا ؟!) فقال ﷺ : نعم ، قال ضمام : استحلفك بمعبودك وبمعبود أولئك الناس من قبلك وبمعبود من بعدك هل قال الله لك أن تأمرنا أن نعبده وحده ولا نشرك به أحدا وأن نترك هذه الأصنام التى كان يعبدها ويقدسها آباؤنا وأجدادنا ؟ قال ﷺ : نعم ، قال ضمام : أستحلفك بمعبودك وبمعبود أولئك الناس من قبلك وبمعبود من بعدك هل أمرك الله أن نصلى الصلوات الخمس ؟ • قال رسول الله : نعم ، يقول الراوى وهكذا ذكر الزكاة والصوم والحج وجميع أحكام الاسلام ••• كان يستحلفه بالطريقة السابقة ، ويسأله عن كل فريضة حتى اذا ما فرغ قال :

« فانى أشهد أن لا إله إلا الله وأشهد إن محمدا رسول الله . وسأؤدى هذه الفرائض وأجتنب ما نهيتنى عنه ثم لا أزيد ولا أنقص » (١) •

ثم ركب ناقته وعاد ، ووصل إلى قومه وأخبرهم بالأمر كله ــ وطبقا لاحدى الروايات ــ لم تغرب شمس ذلك اليوم حتى أسلم جميع من كانوا فى مجلسه رجالا ونساء •

لم يكن فى العرب نفاق ، لم يعرفوا شيئا ثالثا بين الاقرار أو الانكار ، فحين يقولون قولا يطبقونه على كل حال ، حتى لو قدموا

---

(١) البداية والنهاية المجلد الخامس .

الروح من أجله ، وقدموا أغلى التضحيات . ومن خطب قبائل يثرب (الأوس والخزرج) ما يدل على أخلاق العرب ، وهى الخطب التى قالها ممثلو تلك القبائل بمناسبة بيعة العقبة الثانيـــة ..

لقد ورد فى بعضها :

« إن القوم لما اجتمعوا لبيعة رسول الله ﷺ ، قال العباس بن عبادة بن نضلة أخو بنى سالم بن عوف : يا معشر الخزرج ، هل تدرون علام تبايعونه ؟ على حرب الأحمر والأسود من الناس ، فان كنتم ترون أنكم اذا أنهكت أموالكم مصيبة وأشرافكم قتلا أسلمتموه من الآن فدعوه ، فهو والله ان فعلتم خزى الدنيا والآخرة وان كنتم ترون أنكم وافون بما دعوتموه اليه على نهكة الأموال وقتل الأشراف فاثبتوا .. فقالوا .. فما لنا بذلك يا رسول الله أن نحن وفينا ؟ قال : الجنة . قالوا : أبسط يدك ، فبسط يده فبايعوه !!

وأثبتت الأحداث أن هذا لم يكن مجرد كلام ، بل تم تنفيذ هذا العهد بحذافيره !! ، وحتى حين ساد الاسلام وانتصر ، ظلوا أيضا مقدمون التضحيات دون مطالبة بأى تعويض سياسى بل ارتضوا تسليم الخلافة للمهاجرين ، ومضوا من الدنيا على هذا الحال .. واحـــدا واحـــدا .

شمولية الدعوة الاسلامية :

يروى ابن اسحاق عن عبد الله بن عبـــاس أن أشراف قريش تجمعوا عند أبى طالب ذات مرة ، وكان من بينهم بعض قادة قريش من أمثال عتبة بن ربيعة ، وشيبة بن ربيعة ، وأبو جهل بن هشام ، وأمية بن خلف ، وأبى سفيان بن حرب ، وسأل هؤلاء الناس — بواسطة أبى طالب — النبى ﷺ ماذا يريد منهم بعد كل هذا ؟ فقال ﷺ :

« كلمة واحدة ، تعطونيها تملكون بها العرب وتدين لكم بهـا العجم » (١) .

فكلمة التوحيد إن كانت فى الظاهر كلمة عقائدية إلا أنها تحمل بين طياتها سر جميع أنواع الفتوحات الانسانية ، أنها صوت الفطرة الانسانية ولهذا فهى تصل إلى اغوار النفسية البشرية ، وتحول أكثر المعارضين لها إلى أقوى المدافعين عنها ، أسلم خالد بن الوليد قبـل فتح مكة بفترة ، إلا أن صدق الاسلام كان قد وصل إلى قلبه قبـل ذلك ، وقد أعلن هو نفسه عن هذا الأمر بعد إسلامه ، فذكر أن هذا الأمر وقع فى قلبه قبل ذلك بكثير وهو ان الحق لم يكن فى جانب قريش بل كان فى جانب محمد ، ويجب عليه (على خالد) ان يكون معه ... قال : (لقد شهدت هذه المواطن كلها على محمد ﷺ ، فليس فى موطن أشهده إلا أنصرف وأنا أرى فى نفسى أنى موضع فى غير شىء) (٢) .

وهكذا يروى عن الكثير من الناس أن الاسلام كان قد دخل فى قلوبهم قبل أن يعلنوا اسلامهم حتى أنهم بدأوا يشاهدون فى أحلامهم أنهم على وشك أن يسقطوا داخل حفرة من نار ، وهناك من يود أن يدفعهم ليسقطهم فيها ، وبينما هم كذلك إذا نبى الاسلام يأتى وينقذهم من السقوط فى النار .

ورغم انه لا صلة بين الدعوة والاقتصاد فى الظاهر إلا أن الدعوة هى فى ذاتها عملية اقتصادية بطريقة غير مباشرة لأن الانسان حين يقبل الاسلام تصبح جميع وسائله ومصادره تابعة بالتالى للاسلام . ففى الزمن المكى الأول أفادت ثروة خديجة رضى الله عنها الاسلام ، وبعد

---

(١) البداية والنهاية المجلد ٢ ص ١٢٣ .

(٢) البداية والنهاية مجلد ٤ .

ذلك آمن أبو بكر الذى كان يربح من تجـارته أربعين ألف درهم ، فساعد رأس ماله فى دفع الحركة الاسلامية اقتصاديا ، وفى أثناء الهجرة أخذ ستة آلاف درهم وخرج من البيت وهى التى غطت جميع تكاليف السفر ، وفى غزوة تبوك ، قدم عثمان رضى الله عنه عشرة آلاف دينار كانت بمثابة ثلثى ما كان يحتاجه الجيش ، وقدم عبد الرحمن بن عوف فى مناسبة واحدة خمسمائة فرس للجهاد ، وهكذا قدم هؤلاء الناس الذين أسلموا أموالهم مع أرواحهم لتصبح جزءا من خزانة الاسلام.

ونظرية التوحيد نظرية مكتملة لا مجال فيها لتقسيمات اجتماعية أو امتيازات طبقية ، ولهذا فحين تمضى أية حركة على أساس هـذه النظرية ، فانها تؤثر فى عامة الناس بطريقة مذهلة لأنهم يشعرون بأنه فى ظل التوحيد يمكنهم أن يصلوا إلى المقام الحقيقى للمساواة . والعظمة الانسانية انما تكون فى ظل التوحيد .

ولقد كان لخطبة مغيرة بن شعبة حين قدم بلاط فارس أعظم الأثر فى نفوس أهل البلاط ، يروى ابن جرير :

« فقالت السفلة : صدق والله العربى ، وقالت الدهامتين : والله لقد رمى بكلام لايزال عبيدنا ينزعون اليه قاتل الله أولينا ما كان احمقهم حين كانوا يصغرون أمر هذه الأمة » (١) .

وصل النبى ﷺ مع أبى بكر إلى المدينة فى السنة الثالثة عشرة للبعثة ، فتجمع هناك حوالى خمسمائة رجل من سكان المدينة واستقبلوهما فقالوا : (انطلقا آمنين مطاعين) (٢) .

فكيف تمكن النبى ﷺ من قيادة المدينة ؟! إن الاجابة هى أنه

---

(١) تاريخ الطبرى مجلد ٣ ص ٣٦ .

(٢) البداية والنهاية مجلد ٣

تمكن من ذلك عن طريق الدعوة فان أول من دعاء النبى إلى الاسلام من سكان يثرب هو فى الغالب سويد بن الصامت الخزرجى ، ذكر له الاسلام فقال : (لعل لديك ما هو لدى) فقال ﷺ : « ماذا لديك ؟ فقال : حكمة لقمان ، فقال ﷺ : أوضح ، فأسمعه بعض الأشعار فقال النبى : لدى القرآن أفضل منها ، وبعد ذلك تلا عليه القرآن ، فأسلم على الفور . وحين رجع إلى يثرب حمل رسالة الاسـلام الى قبيلته فقتلوه » (١) .

وبعد ذلك قدم أحد زعماء يثرب ويدعى أبا الهيثم أنس بن رافع إلى مكة مع جماعة من شباب بنى الاشهل ، وكان هؤلاء الناس قـد قدموا إلى مكة ليتعاهدوا مع قريش لحماية قبيلة الخزرج ، فعلم النبى ﷺ بقدومهم فذهب إليهم وقال : « ألا ادلكم على أمر أفضل مما جئتم له ؟ » وبعد ذلك عرض عليهم التوحيد ، فقال شاب منهم يدعى إياس بن معاذ : يا قوم والله إن هذا لأفضل مما جئتم له ، إلا أن الوفد لم يفهم هذا الأمر ، فقالوا : « دعنا منك قد جئنا لغير هذا » وعادوا إلى يثرب ، وبعد ذلك بفترة قصيرة اشتعلت نيران الحرب بين الأوس والخزرج ، تلك التى اشتهرت باسم « بعاث » .

ويقول حبيب بن عبد الرحمن أن شخصين من يثرب قدما إلى مكة وهما (سعد بن زرارة وذكوان بن قيس) فأقاما عند عتبة بن ربيعة ، وسمعا عن النبى فأرادا أن يلتقيا به فدعاهما الرسول ﷺ إلى الاسلام وتلا عليهما القرآن ، فأسلما ثم لم يعودا إلى مضيفهم عتبة بن ربيعة ، بل عادا مباشرة إلى يثرب . وكان هؤلاء هم الرجال الذين بلغوا أهل يثرب الاسلام فى البداية . وهذه الواقعة كانت فى السنة العاشرة للهجرة .

---

(١) تاريخ الطبرى ج ٣ ص ٢٣٢ .

وفى السنة الحادية عشرة للبعثة خرج ستة رجال من قبيلة يثرب للحج وبايعوا النبى وعادوا إلى بلدهم حيث بدأوا تبليغ الاسلام ، وفى السنة التالية (سنة ١٢ من البعثة) بايع أثنا عشر رجلا النبى واشتهرت بيعتهم فى التاريخ الاسلامى باسم بيعة العقبــة الأولى (٦٢١ م) . وفى السنة الثالثة عشرة للبعثة زاد هذا العدد وحضر إلى مكة ٧٥ من أهل يثرب ، ثم كانت بيعة « العقبة الثانية » .

وعلى العكس من مكة اتسمت يثرب بأمر خاص ، اذ أسلم فى المرحلة الأولى عظماء المدينة وأشرافها ، وكان هذا هو العصر القبلى ، وكان من الشائع فى القبائل أن تكون القبيلة على دين رئيسها ، ومن هنا بدأ الاسلام ينتشر فى يثرب بسرعة (حتى لم تبق دار من دور الانصار إلا وفيها رهط من المسلمين) ، وهكذا حين أصبح المسلمون أكثرية بين سكان يثرب كان من الطبيعى أن تكون هذه المدينة ذات تأثير كبير (فكان المسلمون أعز أهلها وصلح أمرهم) (١) .

إرهاصــات الدعــوة :

فى كل زمان هناك أناس يبتعدون بأنفسهم عن تأثيرات الزمان ، يعيشون على الفطرة . وفى المجتمع العربى وجد عدد من الناس يبحثون عن الصدق والحق ولم تعجبهم عبادة الأصنام ، وكان وجود هؤلاء الناس نتيجة للبساطة الفطرية ، ولبقايا تأثير الأمة الابراهيمية ، وعرف هؤلاء «بالحنفاء» . ومنهم على سبيل المثال : «قيس بن ساعدة» «وورقة بن نوفل » وغيرهما . وكان هناك حنفى يدعى جندب بن عمرو الدوسى، كان يقول فى زمان الجاهلية :

---

(١) اخرجه الطبرانى عن عروة .

« إن للخلق خالقا لكن ما أدرى من هو » (١) .

وحين علم بخبر بعثة النبى ﷺ قدم بخمسة وسبعين رجلا من أهل قبيلته وأعلنوا الاسلام جميعهم ، وكان أبو ذر الغفارى من بين هؤلاء الناس الباحثين عن الحق . علم بخبر النبى ﷺ فأرسل أخاه إلى مكة ليأتيه بالخبر فعاد الأخ وحمل اليه تقريراً جاء فى احـــدى فقراته : « رأيت رجلا يسميه الناس الصابىء هو أشبه الناس بك »(٢)

مثل هؤلاء الناس لم يواجهوا أية صعوبة فى فهم دعوة النبى ﷺ ، وحين تبدأ الدعوة فى أى مجتمع فان بذورها تنبت فى أماكن لا يمكن حتى للداعى نفسه أن يتوقعها ، ولم يكن معنى قبول من أسلم « مؤخرا » من العرب ، أن الاسلام قد انبثق أمامهم فجاة . فالواقع ان حياة النبى ﷺ الأخلاقيه السامية ، وانهماكه فى دعوته وتبليغه ليـــل نهـــار ، بالاضافة إلى المعارضة التى واجهته وذيوع صيته وذيوع رسالته ... كل هذا جعل من وجوده مثار تساؤل الجميع ، ومثل هذه الأمور غرست بذرة الاسلام فى أذهان العديد من العرب .

ونتيجة للعصبية القبلية كان الشخص يصاب بالعناد الظاهرى إلا أنه لا يستطيع أن يوقف تغلغل الاسلام ونموه فى داخله ، فقـــد اشتهر بالنسبة لاسلام عمر رضى الله عنه أن حادثة مفاجئة كانت سببا فى إسلامه فى النهاية . ولا شك أن هذه الحادثة كانت سببا مباشرا فى إسلامه إلا أن بذرتها الأولى كانت قد وقرت فى قلبه قبل ذلك بكثير .

أخرج ابن اسحاق عن عبد العزيز بن عبد الله بن عامر بن ربيعة عن أمه أم عبد الله بنت أبى حثمة رضى الله عنها قالت ، والله إنا لنترحل

---

(١) ابن عبد البر فى الاستيعاب جـ ٢ .

(٢) أخرجه مسلم عن طريق عبد الله بن الصامت .

إلى أرض الحبشة وقد ذهب عامر فى بعض حاجتنا ، إذ أقبل عمر ، فوقف على وهو على شركه ، فقالت وكنا نلقى منه أذى لنا وشدة علينا قالت فقال : انه الانطلاق يا أم عبد الله قلت نعم ، والله لنخرجن فى أرض من أرض الله إذ آذيتمونا وقهرتمونا حتى يجعل الله لنا مخرجا ، قالت فقال : صحبكم الله ، ورأيت له رقة لم أكن أراها ثم انصرف وقد أحزنه فيما أرى خروجنا (١) .

ففى كل زمان توجد أفكار تتغلغل فى أذهان عامة الناس فاذا لم تتحطم جدران هذه الافكار فلا يمكن لأى صوت أن يجد صدى لديهم على اساس من الحقائق الفلسفية فقط ، ولم تكن مظاهر الاختلاف التى ظهرت بين العرب فى الزمان الأول قائمة على أساس المصلحة والعدوان ، بل كانت قائمة على أساس عدم قدرتهم على فهم امكانية وجود دين صحيح أو حق غير ما وجدوا عليه سدنة الكعبة ، وقد ظلت القبائل العربية المجاورة لليهود بعيدة عن مثل هذا التعقيد العقائدى لأنهم كانوا يسمعون من اليهود أنه مكتوب فى كتابهم أن نبيا سيظهر من العرب .

« فلما سمعوا قوله أنصتوا واطمأنت أنفسهم إلى دعوته ، وعرفوا ما كانوا يسمعون من أهل الكتاب من ذكرهم إياه بصفته وما يدعوهم اليه فصدقوه وآمنوا به » (٢) .

وفى سوق عكاظ حين قدم عليه السلام إلى خيام بنى كنده ، عرض عليهم الاسلام ، فوقف شاب وقال :

« يا قوم اسبقوا إلى هذا الرجل قبل أن تسبقوا اليه فوالله إن أهل الكتاب ليحدثون أن نبيا يخرج من الحرم قد أظل زمانه » .

---

(١) البداية والنهاية مجلد ٣ ص ٧٩ .

(٢) الطبرانى .

(٣) أبو النعيم فى الدلائل .

والسبب فى إقدام قبائل المدينة من الأوس والخزرج على الاسلام هو وجود هذه الفكرة الذهنية لديهم . أما بالنسبة لأهل مكة ومعظم قبائل العرب فقد كانت سلطة الكعبة هى معيار الحق عندهم ، وكانت مكانة الكعبة بين العرب قديما مثل مكانة « التاج » بين الأنظمة الملكية. وبالاضافة إلى مكانة التاج فقد كان أمر الكعبة مرتبطا أيضا . بتصور السلطة السياسية فقط ، وتزيد مكانة الكعبة درجة أخرى .. فبالاضافة الى السلطة كانت هناك تقاليد مقدسة تماما ، إذ كان العرب يفهمون بعقليتهم البسيطة أن من بيده أمر الكعبة هو نفسه بيده الحق والصدق، يحكى ذو الجوشن الضبائى من بنى عامر ما جرى بينه وبين رسول الله :

(قال يا ذا الجوشن ألا تسلم فتكون من أول هذا الأمر ؟ فقلت لا ، قال لم ؟ قال قلت رأيت قومك قد ولعوا بك قال : كيف بلغلك عن مصارعهم ببدر ؟ قلت قد بلغنى ، قال فانا نهدى لك ، قلت إن تغلب على الكعبة وتقطنها ، قال لعلك إن عشت ترى ذلك ... قال فوالله إنى بأهلى بالغور إذ أقبل راكب فقلت ما فعل الناس ؟ قال : والله قد غلب محمد على الكعبة وقطنها ، قلت هبلتنى أمى ولو أسلمت يومئذ ثم أسأله الحيرة لأقطعنيها) (١) .

وهذا هو السبب فى أنه حين فتحت مكة دخل الناس فى الاسلام أفواجا !! .

رد فعل حركة الدعوة :

بدأ رسول الله ﷺ حركة الدعوة ، وبدأت الأحداث التى تظهر عادة فى حالة ظهور صوت جديد فى أى مجتمع ، تحير بعض النـــاس حول ماهية هذا الشىء ؟

---

(١) الطبرانى .

وينقل ابن حميد فى مسنده أن قادة قريش اختاروا ذات مرة عتبة بن ربيعة ليمثلهم عند رسول الله ، فوصل عتبة إلى النبى وألقى خطبته الطويلة التى عارض فيها النبى ﷺ وحين انتهى قال النبى ﷺ ، (فرغت) فقال نعم فقال النبى ﷺ : (بسم الله الرحمن الرحيم وقرأ عليه من (حم فصلت) ثلاث عشرة آية ، فسمع عتبة ولم يحر جوابا ، وقال : احسبك ما عندك غير هذا ؟) فقال النبى : لا ، وتحكى الرواية بعد ذلك ... (فرجع إلى قريش فقالوا ما وراءك ؟ قال ما تركت شيئا أراكم تكلمونه فيه إلا كلمته ، قالوا فهل أجابك ؟ فقال نعم ، ثم قال : ألا والذى نصبها بينه ما فهمت شيئا مما قال غير انه انذركم صاعقة)(١)

وقد رأى بعض الناس الذين ألفوا الاطار التقليدى للدين أن فى دعوته ﷺ تحقير السلف ، فلقد نقل أبو نعيم فى (دلائل النبوة) كما نقل النسائى والبغوى وغيرهم أن ضمادا قدم إلى مكة ليعتمر فجلس ذات يوم فى مجلس كان فيه أبو جهل وعتبة بن ربيعة وامية بن خلف .. فقال أبو جهل :

هذا الرجل الذى فرق جماعتنا وسفه احلامنا وأضل من مات منا وعاب آلهتنا فقال أمية : الرجل مجنون من غير شك (٢) .

ودعا عمرو بن مرة الجهنى أهل قبيلته « جهينة » إلى الاسلام فقال رجل :

« يا عمر بن مرة ، أمر الله عيشك اتأمرنا برفض آلهتنا وأن نفرق جمعنا وأن نخالف دين آبائنا الشيم العلى ، إلى ما يدعونا اليه هذا القرشى من أهل تهامة ــ لا حبا ولا كرامة » (٣) .

---

(١) البيهقى .
(٢) الاصابة مجلد ٢ ص ٢١٠ .
(٣) البداية والنهاية مجلد ٢ .

وبعد ذلك أنشد ثلاثة أشعار ، كان آخرها :

ليسفه الأشياخ ممن قد مضى

من رام ذلك فلا أصـــاب فلاحا

وكان الحسد مانعا لبعض الناس من أن يسلموا ، لأنهم كانوا يريدون اعلان نبوتهم ، وبألفاظ أخرى يرى هؤلاء الناس أن لديهم علم الحقيقة ، ويصبح من أصعب الأمور على الانسان أن يعترف بأن الله قد أعطى علم الحقيقة الذى يدعيه لشخص آخر • ينقل البيهقى عن مغيرة بن شعبة أن أبا جهل بن هشام انفصل عنه ذات يوم قائلا :

والله أنى لأعلم أن ما يقول حق ولكن يمنعنى شىء — ان بنى قصى قالوا : فينا السقاية فقلنا نعم ، ثم قالوا فينا الندوة فقلنا نعم ، ثم قالوا فينا اللواء فقلنا نعم ، حتى قالوا منا نبى والله لا أفعل (١) •

وبعض الناس عارضوا النبى لأنهم رأوا فى دعوته وفى ايمانهم بدعوته خطرا على اقتصادهم ، فقد كانت الكعبة من أكبر بيوت الأصنام قبل الاسلام ، وضعت فيها اصنام جميع المعتقدات حتى انه وضعت بها صور للمسيح ومريم أيضا ، وهكذا كانت الكعبة مزارا لأهل الأديان جميعا ، وكان هذا هو الهدف من الأشهر الأربعة الحرم ، ففيها كان يفد على مكة أتباع جميع الأديان آنذاك ، فاذا ما رفعت الأصنام من الكعبة فلن يأتى أحد لزيارة الكعبة ، وسيغلق سوق مكة الذى كان ينعقد لمدة أربعة أشهر ، ولهذا شعر أهل مكة بخطر دعوة النبى ﷺ واعتقدوا أن دين التوحيد لو انتشر فان المنطقة (وهى غير ذى ذرع) سوف تنتهى تماما ، كما أن ولاية الكعبة أيضا كانت تجعل لقريش مكان الصدارة بين القبائل المختلفة •

---

(١) البداية والنهاية مجلد ٣ •

يكتب أحد المؤرخين فيقول : « كانت أموالها وتجارتها تسافر فى الشرق والغرب فى ظلال معاهدات تجارية بينها وبين امم وثنية مثلها كفارس وأمم مسيحية كالحبشة وكمثل بيزنطة وكانت قريش تتصور أن تأييدها لرسالة محمد إنما يعنى شيئا واحدا هو أن تتحلل الأمم المجاورة لها بل وقبائل العرب نفسها المقيمة على الوثنية من تعهداتها بحماية تجارة قريش وقوافلها وإذا حدث ذلك فهذا يعنى موت قريش تجاريا واقتصاديا وانتهاء عصر سيادتها على العرب • وكما جاء فى تفسير آية من سورة الواقعة (وتجعلون رزقكم أنكم تكذبون) أى تجعلون الكذب غذاء لكم ، أى انكم تعتقدون أن انكار التوحيد الذى يدعو اليه نبى الاسلام إنما يمكن أن يحفظ اقتصادكم وأموالكم •

وكانت نتيجة دعوته أن أصبح حديث الناس تساؤل ، ويسأل الناظر الشخص الآخر قائلا : « أهو هو ؟ » •

(ويمض بين رجالهم وهم يشيرون اليه بالاصابع) (١) •

وكان اذا ما جاء شخص إلى مكة عاد ليخبر رفاقه بأخبار رحلته، ومعها يخبرهم بأن محمة بن عبد الله تنبأ ، وقد تبعه ابن أبى قحافة ، وقد وضعت قريش اسم (مذمم) بدلا من محمد (اسم النبى ﷺ) فقد اتهموه بتحميق الأسلاف وتسفيه الآباء ، وفى الليل كانوا يلقون القاذورات فى طريقه ، وذات مرة رآهم النبى ﷺ ، فقال : يا بنى عبد مناف أى جوار هذا ؟ (٢) ••

وحتى فى حياة أبى طالب لم يكن أحد يجرؤ على اتخاذ أى اجراء عدائى تجاه النبى ﷺ وذلك طبقا للتقاليد القبلية ، فان قتاله يعنى قتالا

---

(١) رواه احمد عن جابر •

(٢) تهذيب سيرة ابن هشام •

مع قبيلة بنى هاشم ، وحين أخذ عمر بن الخطاب ـ قبل أن يسلم ـ السيف • وخرج عازما على قتله ، كانت الجملة التى اطلقها أحد الناس كافية لتهدئته ، إذ قال له : (ويحك كيف تأمن بنى هاشم اذا قتلت محمدا) وكان هذا هو ما يواجه أى شخص يعزم على اتخاذ أى عمل عدوانى ضد النبى ﷺ ، وكان هذا هو السبب فى أن المظالم والاعتداءات التى حدثت فى مكة كانت فى معظمها ضد العبيد والاماء •

ينقل الامام أحمد وابن ماجة عن عبد الله بن مسعود أنه فى الدور الأول كان هناك سبعة أفراد مسلمين فى مكه هم (رسول الله ﷺ ، أبو بكر ، عمار ، سعيد ، صهيب ، بلال ، ومقداد) •

فأما رسول الله ﷺ فمنعه الله بعمه واما أبو بكر منعه الله بقومه واما سائرهم فأخذهم المشركون فألبسوهم دروع الحديد وصهروهم فى الشمس) (١) •

يروى الامام البيهقى عن عبد الله بن جعفر انه حين توفى أبو طالب زعيم بنى هاشم قام أحد رجال قريش السيئين بالقاء التراب على النبى ﷺ ، فعاد إلى بيته ونظفت إحدى بناته التراب من فوقه فقال ﷺ حينئذ : « لم يحدث أن اصابنى مكروه من قريش حتى الآن ، لقد مات أبو طالب فبدأوا يفعلون هكذا ، وفى رواية لأبى هريرة : « لما مات أبو طالب تجهموا بالنبى ﷺ فقال يا عم ! ما أسرع ما وجدت بعدك »(٢)

فبعد وفاة أبى طالب بدأت قريش تستشير أهلها فى أمر قتله ، فنصح أبو جهل بأن يضعوا سيفا فى رأسه ، ورأى عقبة بن معيط أن

---

(١) رواه احمد •

(٢) أبو نعيم ـ الحلية ٨

يلقوا بساطا على رقبته ويسحبوه ، فمن الواضح أن الطريق صار ممهدا لارتكاب الأعمال العدائية ضد النبى بعد وفاة أبى طالب ، ولقد ظلت هذه الأحداث نوعا من العار والخجل لأنها كانت الوحيدة من نوعها فى تاريخ العرب بالاضافة إلى أن بعض المشركين كانوا يقولون بحمايته بوازع من ضمائرهم ، فمثلا حين قام أبو جهل بالضغط على رأسه ورقبته ﷺ ليخنقه علم أبو البخترى بذلك فحمل السوط وقدم إلى الكعبة حيث كان يجلس أبو جهل مع رفاقه جلوس المنتصر ، وحين عرف أبو البخترى بصحة الواقعة (بعد بحث وتحقيق) ضرب أبا جهل على رأسه بالسوط ضربات جعلته يصرخ !!

ويخبرنا تاريخ الأديان أن الشرك يكون دائما حساسا لأقصى درجة لسماع أى نقد يوجه ضده ، ولما كان أساس النظام الاجتماعى قائما على الشرك قديما فلقد تجمعت الوسائل السياسية أيضا مع هذه الشدة وعضدتها وساندتها ، وهكذا استلزمت دعوة التوحيد فى بيئة مكة من النبى ﷺ الكثير من الصبر والمثابرة ، وفى السنوات الثلاث الأولى لم يؤمن بالرسول إلا عدد قليل من الناس ، وكما أنه لا يمكن لشجرة واحدة أن تظل مكة التى بلغت مساحتها حوالى كيلو مترين مربعين فإن رفاقه كانوا أيضا لا يجدون من يظلهم ... فقد كان بجواره ﷺ أربعة أشخاص فقط ، (خديجة وعلى وزيد وأبو بكر) ، ومع أن عائشة بنت أبى بكر كانت معهم أيضا إلا أنها كانت أول من يولد مسلما ، وهكذا كانت جبهته ﷺ تتكون من خمسة أفراد فقط .

ومضى الأمر على هذا الحال لمدة ثلاث سنوات فكان إذا خرج من بيته أستقبل من أناس كالمجانين .

ومرة خرجت جماعة خطط لها أبو جهل لتسبه وتشتمه ، وكان هذا سلوكا لا يمكن قبوله من أشراف مكة ، ومر شخص منهم فرأى هذا

الموقف فذهب إلى عمه حمزة وقال له : أين غيرتك ؟ إن الناس يسبون ابن أخيك وأنت لا تساعده ، وامتلأ حمزة بن عبد المطلب بالغيرة والحمية العربية ، فوصل إلى أبى جهل فضربه بقوسه الحديدى على رأسه وقال : منذ اليوم أنا على دين محمد فافعلوا ما شئتم (دينى دين محمد فامنعونى ذلك إن كنتم صادقين) .

وكان حمزة من أبطال العرب المشهورين ، فزادت همة الناس ، ووصل عدد المسلمين إلى أربعين شخصا ، وفى ذلك الوقت كان فى مكة شخصان من أصحاب النفوذ والأثر ، الأول عمر بن الخطاب والثانى أبو جهل ، فدعا رسول الله ﷺ بدعائه المشهور (اللهم أعز الاسلام بعمر بن الخطاب أو بأبى جهل بن هشام) وتقبل الله دعاءه لأول من نطق باسمه ، وفى السنة السادسة للنبوة كان لاسلام عمر أثر كبير فى إسلام الكثير من الناس ووصل عدد المسلمين إلى أربعين .. كان هذا فى وقت اتخذ فيه المسلمون من دار ابن الأرقم مركزهم السرى ، وذكر صاحب البداية والنهاية أن عدد المسلمين الذين كانوا يتجمعون فى دار ابن الأرقم كان تسعة وثلاثين مسلما إلا أن أولئك الناس الذين كانوا مع النظام السائد كانوا بالتالى يمتلكون القوة ، وهكذا وبعد توقف عارض بدأت سلسلة من المظالم من جديد ، ورغم محاولات إيذاء النبى بشتى الطرق إلا أن احدا لم يتمكن من قتله ، لأن التقليد القبلى يعنى أن قتل أحد افراد القبيلة هو بمثابة حرب مع القبيلة كلها ، كانت هذه هى القضية التى على أساسها قيل لشعيب : (ولولا رهطك لرجمناك)[١] .

ولقد طالبت قريش زعيم بنى هاشم وعمه أبا طالب بن عبد المطلب أن يخرجاه من القبيلة حتى تتمكن قريش من قتله إلا أن حمية أبى طالب

---

(١) هود ٩١ .

لم تجعله يفكر أو يكون على استعداد لهذا ، وذات مرة قال أبو طالب للرسول بعد شكوى قريش له : لا تعيب آلهتهم . فظن النبى أنه سيسلمه لقريش (فظن انه قد بدا لعمه فيه وانه مسلمه) إلا أن ابا طالب قال يطمئنه : والله لا أسلمك بسوء أبدا (١) .

وتجمعت قريش ونفذت معاهدة اجتماعية تقاطع بمقتضاها بنى هاشم وأعلنت المقاطعه ، وكان ذلك فى السنة السابعة للبعثة ، وبعد هذا أخذه أبو طالب وأخذ معه أسرته وخرج من مكة ، وأقام فى مكان يطلق عليه (شعب أبى طالب) وهو هضبة وعرة لا يوجد فيها سوى بعض الأشجار التى تنمو طبيعيا ، وظلوا على هذا الحال لمدة ثلاث سنوات ، يقتاتون على أوراق الشجر وجذورها ، هذا باستثناء الأشهر الحرم الأربعة حين كان أهل أسرته يذهبون إلى مكة ويحملون معهم لحم القرابين فيجففونها ويتناولونها لفترة طويلة .

وبعد ثلاث سنوات وفى السنة العاشرة للبعثة انتهت المعاهدة إلا أنها أثرت على أبى طالب نظرا لقسوتها وشدتها ، وبعد أن توفى أبو طالب أصبح أكبر أفراد القبيلة هو عبد العزى (أبو لهب) من بنى هاشم ، فعين زعيما لها ، وهكذا يجلس الآن العدو على كرسى القاضى فأعلن عن براءة القبيلة منه وأعلن إخراجه منها .

---

(١) تهذيب سيرة ابن هشام ، مجلد ١ ص ٦٠ .

الإخـراج من القبـيلة

إن إخراج فرد من قبيلته هو فى حياة الصحراء كمن يلقى بشخص فى بحر ، ففى النظام القبلى حين لا تكون هناك حكومة تتحمل المسئولية فى البلاد ، فأى شخص يمكن أن يعيش حياته فى ظل حماية أية قبيلة .

وأثناء إقامة النبى ﷺ فى منى قام بعرض دعوته على إحـدى القبائل ، ورفضت القبيلة التسليم بدعوته ، رغم أنه يتضح من كلام أحد أفراد القبيلة ويدعى ميسرة بن مسروق العسى أنه تأثر بدعوة النبى ولاحظ النبى ذلك (فطمع رسول الله ﷺ فى ميسرة فكلمه فقال ميسرة : ما أحسن كلامك وأنواره ولكن قومى يخالفوننى وانما الرجل بقومه) (١) .

وكانت حادثة إخراجه ﷺ من القبيلة من أصعب الأمور على نفسه ، وهكذا لم يعد له ظل يظله فى بلده ، وكان أمامه حل واحد وهو أن يبحث عن قبيلة أخرى تحميه ، وكانت أولى محاولاته فى هذا المجال هى خروجه من مكة ، وذهابه إلى الطائف ، وقال رسول الله ﷺ عن هذا السفر لعائشة :

« إذ عرضت نفسى على ابن عبد يا ليل بن عبد كلال » .

ويقول عروة بن الزبير :

« ومات أبو طالب وازداد من البلاء على رسول الله ﷺ شـدة فعمد إلى ثقيف يرجو أن يؤووه وينصروه (٢) » .

---

(١) البداية والنهاية ، مجلد ٣ .

(٢) أبو نعيم فى دلائل النبوة .

إلا أن الناس هناك سلكوا معه سلوكا وحشيا همجيا فدعا الله وهو عائد من الطائف بقوله :

« اللهم إليك أشكو ضعف قوتي وقلة حيلتي وهواني على الناس يا أرحم الراحمين » (١) .

وقال لأهل الطائف وهو يعود منها : « لا تبلغوا أهل مكة ما صنعتم بي وإلا ازدادوا جسارة » (٢) .

عاد النبي من الطائف وأقام مرة ثانية خارج مكة وأرسل إلى الناس يطلب منهم موافقة أحدهم على حمايته حتى يتمكن من البقاء في مكة ، وفي النهاية قبل مطعم بن عدي حمايته ، ودخل مكة في ظل سيوف أولاده .

ووضع النبي خطة للذهاب إلى القبائل التي تسكن أطراف مكة ، والتي كانت تفد عليها في الأعياد والأسواق وذلك ليجهز هذه القبائل ويهيئها لقبول حمايته ، قال لعمه العباس :

« لا أرى لي عندك ولا عند أخيك منعة فهل أنت مخرجي إلى السوق غدا حتى نقر في منازل قبائل الناس »(٣) .

فكان النبي ﷺ يذهب إلى موقع كل قبيلة ويسألهم : (كيف المنعة فيكم ؟) ويعرض عليهم نفسه ويقول لهم إن قبيلته كذبته وأخرجته ويسألهم حمايته وإيواءه حتى يبلغ عند الله عز وجل ما أرسله به ، ويروي المؤرخون أن النبي ﷺ اتصل بخمس عشرة قبيلة ، قابل أفرادها فرداً فرداً .

---

(١) البداية والنهاية مجلد ٣ .

(٢) تهذيب سيرة ابن هشام ، ص ٩٨ .

(٣) البداية والنهاية ، مجلد ٣ .

إلا أن القبائل كانت تعرف مدى خطورة قبول شخص أخرجته قريش من حمايتها ، وهكذا رفضت القبائل كلها إيواءه وحمايته ، وهناك قبيلة أظهر أهلها تسامحا إلى حد ما ، قال أحد أشرافها : (أخرجته عشيرته وتؤوونه ؟! أنتم تحملون حرب العرب) [(١)] . فحماية شخص أخرجته قبيلته تعنى فى العرف العام إعلان الحرب على تلك القبيلة ، فإذا حدث ذلك مع قبيلة قريش التى تملك السيادة على البلاد كلها فإنه يكون أمرا بالغ الصعوبة ، وكما تقضى التقاليد العربية فإنه من الأمور الشائنة جدا أن يطلب شخص الحماية ثم لا يجدها ، فهذه هى أول حادثة واضحة من نوعها فى التاريخ العربى : أن يظل عليه الصلاة والسلام يدور بين القبائل طالبا الحماية لعدة سنوات ، فلا يجد أحدا على استعداد لحمايته ، لا أهل الطائف ولا أهل القبائل العربية الأخرى . والسبب هو أن أمر النبى هذا كان يحمل نوعية خاصة ؛ فالقبيلة التى (طردته) كانت قبيلة قريش زعيمة العرب قاطبة ، وتقديم الحماية للشخص الذى تطرده قريش يعنى إعلان الحرب على العرب قاطبة .

كانت هذه هى الخلفية التى على أساسها قال أبو الهيثم بن التيهان رضى الله عنه لأصحابه وهو يأخذ البيعة من الأنصار :

« فاعلموا أنه إن تخرجوه رمتكم العرب عن قوس واحد »[(٢)] .

وعلاوة على ذلك فهناك سبب آخر للأحداث السابقة وهو أن القبائل التى كانت تسكن أقاليم الحدود كانت تربطها مع جيرانها من غير العرب معاهدات أخرى ، وكانت تخشى أن تؤوى هذه الشخصية المتنازع عليها فتبدأ مشاكل ونزاعات مع تلك الحكومات .

---

(١) ابو نعيم فى دلائل النبوة .

(٢) الطبرانى .

جاء فى البداية والنهاية أنه ﷺ ذهب إلى سوق فى « منى » وتحدث مع زعماء بنى شيبان ابن ثعلبة ، فاستحسنوا رسالته ، ولكن هانى بن قبيصة عقب قائلا : نحن نعيش على حدود كسرى (ملك فارس) وبيننا وبينهم معاهدة .

(ولعل هذا الأمر الذى تدعو إليه تكرهه الملوك)(١) .

ويمكن تقدير الحالة التى وصل اليها رسول الله ﷺ فى ذلك الزمان من تلك العبارة التى وردت فى إحدى الروايات حين ذهب ذات مرة إلى قبيلة يقال لها (بنو عبد الله) :

« فدعاهم إلى الله وعرض عليهم نفسه حتى انه ليقول : يا بنى عبد الله إن الله قد احسن اسـم ابيكم ، فلم يقبلوا منه ما عرض عليهم »(٢) .

وهكذا قضى النبى ﷺ السنوات الثلاث الأخيرة فى الحيـاة المكية باحثا عن الحماية بين القبائل ، ورغم محاولاته وكفاحه إلا أن أية قبيلة لم تكن على استعداد لحمايته ، لدرجة أن بعض القبـائل قالت :

« أما آن لك ان تيأس منا ؟! » وأخيرا وفق الله قبائل يثرب (المدينة) الأوس والخزرج إلى هذا الأمر ، وكان وراء استعداد كل من الأوس والخزرج لحماية النبى خلفية نفسية ، فهاتان القبيلتان كانتا تسكنان بجوار قبائل اليهود ، وكان يهود خيبر يسيطرون على أخصب الأراضى بالمنطقة ، وكانت التجارة فى أيديهم أيضا ، وهكذا كان اقتصاد عرب (الأوس والخزرج) بيثرب فى معظمه فى يد

---

(١) البداية والنهاية جـ ٣ .

(٢) البداية والنهاية .

اليهود ، ومما هو جدير بالذكر أنه بعد الهجرة قام النبى وأصحابه بتعمير المسجد النبوى بأيدى أجراء اليهود ، فورد هذا البيت على لسانه ﷺ :

هذا الحمال لا حمال خيبر   هذا أبر ربنا وأطهر (١)

وكانت نتيجة التفوق الاقتصادى اليهودى والسيطرة العربية حدوث عدة حروب بين الأوس والخزرج وكانت اليهود تقول إن كتابنا بخبرنا بظهور بنى من العرب قريبا ، وحين يأتى سنكون معه وسنحاربكم ونقضى عليكم تماما ، وقد أشار القرآن إلى قول اليهود هذا فى الآية الكريمة : (وكانوا من قبل يستفتحون على الذين كفروا) (٢) .

سمع أهل الأوس والخزرج دعوة النبى فقالوا : بالله هذا هو النبى الذى حدثتنا اليهود عنه فلنؤمن به قبل أن يسبقنا اليهود إليه ولنصبح من جماعته ، وبالاضافة إلى هذه الخلفية كانت هناك أسباب أخرى تاريخية واجتماعية جعلت عشائر الأوس والخزرج قادرة على فهم كلام النبى ﷺ والايمان به بسهولة أكثر من بقية القبائل العربية وجعلتهم يمدون أيديهم لمبايعته .

والآن جاء الوقت الذى كان ينتظره من سنوات ، فقد وجد قاعدة يمكن أن ينطلق منها كفاحه ونشاطه بشكل مؤثر وتحت حماية القبائل ، وأن يجمع مسلمى مكة وأطراف مكة فى مكان واحد يجعل منه مركزا إسلاميا . وقبل عدد كبير من أهل يثرب الدين الجديد ودخلوا فى الإسلام مما جعل من الممكن أن تتجمع الطاقات الإسلامية

---

(١) البداية والنهاية ج ٣ .
(٢) البقرة ٨٩ .

المتفرقة فى مركز واحد حتى يمكن لنشاط دعوة الحق أن يستمر بتأثير أكبر وهكذا يذكر المؤرخون عن مبايعة الأوس والخزرج للنبى ﷺ :

« قال ، فلم يلبث رسـول الله ﷺ إلا يسـيراً حتى خرج إلى أصحابه فقال لهم : احمدوا الله كثيرا فقد ظفرت اليوم أبناء ربيعة بأهل فارس (١) » .

أعد ﷺ عدة الهجرة ، ورغم الحذر الشديد فى إخفاء الخبر إلا أن قريشا عرفت بالأمر . ينقل الطبرانى عن عروة :

« ان مشركى قريش أجمعوا أمرهم ومكرهم حين ظنوا أن رسول الله ﷺ خارج وعلموا أن الله قد جعل له بالمدينة مأوى ومنعة وبلغهم إسلام الأنصار ومن خرج إليهم من المهاجرين فأجمعوا أمرهم على أن يأخذوا رسول الله ﷺ فإما أن يقتلوه وإما أن يسجنوه وإما أن يوثقوه وإما أن يخرجوه » (٢) .

وبعد إيمان الأوس والخزرج بالنبى قام ﷺ فرسم خطة محكمة وبعدها خرج فى صمت من مكة .

الهجـــرة :

والمساعدة التى قدمتها قبال المدينة (الأنصـــار) للنبى ﷺ وللمسلمين تمثل حادثة تاريخية محيرة فى الواقع ، فالناس إذا أعطوا شيئا أعطوه نظير مقابل أو نتيجة لخوف أو نتيجة لوجود « بركة » معينة ، وهناك بعض النـــاس (أحيـــاء أو اموات) يفترض فيهم « العظمة » ، والإنفاق عليهم أو الإغداق عليهم — طبقا لهذا التصور —

---

(١) البداية والنهاية ، مجلد ٣ ، ص ١٤٥ .

(٢) اخرجه الطبرانى عن عروة مرسلا .

إنما يكون مصدرا لوجود بركة تحل بالاولاد أو تكثر الاموال إلى آخره مما هو وارد فى هذا الباب ، إلا أن ما حدث من الأنصار كان أول مثال بارز فى التاريخ الإنسانى على الإيثار والتضحية ، فلم يحدث أن قامت أمة باكملها بفتح ابوابها كاملة للمهاجرين على اسس الاخوة الخالصة، فالأنصار لم يقدموا للمهاجرين بيوتهم فقط بل أقاموا بينهم وبين المهاجرين مؤاخاة واعتبروهم كأشقائهم ، فقسموا بينهم ممتلكاتهم ، فعلوا كل هذا وهم يعرفون أن هذا العون المقدم للمهاجرين ليس مجرد عون اقتصادى بل هو إعلان للحرب ضد العرب والعجم ، وتصور العبارة التى قالها « على » هذا الأمر تصويرا دقيقا :

(كانوا صدقاء صبراء) (١) .

حين ترك المهاجرون وطنهم ووصلوا إلى يثرب كان كل واحد من الأنصار يود أن يحصل على شرف استضافة أحد المهاجرين حتى انهم اقترعوا على ذلك (ولقد تشاحوا فينا حتى ان كانوا ليقترعون علينا ثم كنا فى أموالهم أحق بها منهم) ورغم هذا الإيثار الخاص قاموا بمبايعة الرسول كما هو متبع وعلى أن يتم ترجيح الآخرين عليهم فى تقسيم العهد (أثرة علينا) على (أن لاننازع الأمر أهله)(٢) .

وهكذا فبعد الهجرة لم تكن حياة المدينة حياة هدوء بالنسبة للنبى ، فقد ظهر العداء العربى المتحد فى أسوأ مظاهره . يقول أبى بن كعب :

« لقد قدم النبى ﷺ وأصحابه إلى المدينة وآوتهم الأنصار ،

---

(١) البداية والنهاية ، مجلد ٣ .

(٢) تهذيب سيرة ابن هشام ، مجلد ١ ص ١١١ .

فى الأهمية لم يسبق له نظير ؛ فضرورات الإنسان الفعلية تزايدت اليوم لدرجة أن الحياة بأسلوب بسيط خرافى على الطراز القـــديم أصبحت أمراً غير ممكن •

فإذا كانت مسئولية المسلمين الأساسية هى الدعوة والتبليغ فإن الأسباب السابقة تستلزم الكفاح والاجتهـــاد أيضا بكل قوة ليتمكن المسلمون من المشاركة بنصيب مشروع فى الاقتصاد الحديث ، وذلك بصورة فردية وبصورة قومية أيضا •

ومع أن أساس مهمة أهل الإيمـان فى هذه الدنيـا هو الدعوة والتبليغ إلا أن الواقع أن هذه الدنيا مادية ، ووجود الجماعة المعارضة للحق هو وجود مستمر ، ومن الضرورى لأهل الإيمـان أن يجتهـدوا ويكافحوا بقدر استطاعتهم لامتلاك جميع الوسائل المادية . لقد هاجر النبى ﷺ من مكة إلى المدينة فى السنة الثالثة للبعثة بلا متاع لكن بعد عشر سنوات حين تحرك لفتح مكة كانت الدعوة قد انتشرت لدرجة أن ركبه كان يضـم عشرة آلاف رجـل ، ومن ناحيـة أخرى فقد كانت الاستعدادات تجرى لإعداد ألفى رجل فى الخفاء (لا يرى منهم سوى الحدق) الطبرانى .

والعمل طبقا لهذه السنة تتأكد أهميته البالغة فى ضوء ظروفنا الحاضرة ، فأهميـة الآلة فى حروب اليوم تزيد كثيرا على استخدام العضلات لدرجة أن التصور القديم للأجناس العسكرية أصبح خرافة الزمان الغابر ، وهكذا أصبح للوسائل الاقتصادية تأثير فى زماننـا الحالى حتى أن الحياة الإنسانية كلها أصبحت تابعة لها . وفى الزمان القديم لم تكن لعملية الدعـوة والتبليغ أية عـلاقة بالاقتصاديات ، إلا أنك اليوم إن أردت أن تستخدم « القلم » فى الدعوة والتبليغ فإنك لن تستطيع أن تستخدمه بتأثير بدون وسائل اقتصادية عظيمـة ومؤثرة ثم حين نشاهد الأديان الأخرى تنتشر عن طريق الطـائرات والإذاعات ، فإن الضرورة الاقتصـادية تصبح أشـد من ذى قبـل مئات المرات .

وهكذا فإن أهمية الوسائل الاقتصادية تكون أكثر مئات المرات ، ثم إنها فى ضوء الضرورة الشخصية فى عالم اليوم تصل إلى مـدى

أرض العدو بينما القواعد الأمريكية قريبة من حدودها لدرجة أنها يمكن أن تصل إلى أهم الأهداف كلها داخل روسيا فى خمس أو عشرة دقائق .

والآن ماذا فعلت روسيا ؟ لقد قامت بتعيين جيش من العلماء لاكتشاف سلاح سريع يتمكن به حكام روسيا من الوصول إلى معامل ومصانع أمريكا وهم جالسون فى بلدهم ، وهكذا فى سبتمبر سنة ١٩٥٩ وصل الصاروخ الروسى ليونك رقم ٢ بنجاح كامل إلى القمر ، وتم إعلان ذلك فى هدوء كامل أيضا بقولهم إن البحث قد نجح . ومن الجدير بالذكر أن المسافة بين الأرض والقمر تزيد على المسافة بين روسيا وأمريكا خمسين مرة ، والآن فالصاروخ الذى حمل صندوقا آليا ليصل به إلى القمر يمكن أن يسقط القنابل على أبعد البلاد مسافة، كما أن التحكم بالرادار والكفاءة التى أظهرها بالنسبة للطيران فى الفضاء كان كافيا لإثبات أن القنبلة الذرية والهيدروجينية يمكن إسقاطهما بدقة على أى هدف فى الأرض ، وأمام هذا الاكتشاف فإن ما قامت به أمريكا انهار كما تنهار عمارة بلا أساس فجأة على الأرض .

هذا هو التحدى الروسى على الأرض وهو الذى أوجدت له روسيا حلا فى السماء . وأثبتت انه لا حدود نهائية للرقى فى هذا العالم . والحقيقة أن الله تعالى قد خلق إمكانيات لا حدود لها للقوة والطاقة فى هذا الكون ، وإذا أظهرنا الهمة والعزيمة أمكن ركوب كل صعب لدرجة أن كل ما يقوم به العدو يمكن أن يصبح مصداقا لقوله تعالى : ((**بطل ما كانوا يعملون**)) [١] .

---

(١) الأعراف ١١٨ .

أمام كل جماعة مسلمة سواء كانت تمثل أقلية أو أكثرية فى البلد الذى تعيش فيه ، وسواء كانت السلطة فى يدها أو لم تكن .

وهذا التطور له أثره فعن طريقه بدأنا نلاحظ فى دول أفريقية الأكثرية المسلمة وقد فقدت سلطاتها وتأثيرها فى بلدها ، وأصبح المسيحيون يسيطرون بصورة عملية على أمور السياسة وجميع شعب الحياة الاجتماعية الأخرى فى البلاد ، وذلك لا لشىء إلا لأنهم تفوقوا على المسلمين فى مجال العلوم والتقنية ، وفى الصناعات والحرف ، وفى النظام والانضباط ، وعلى سبيل المثال يمثل المسلمون فى نيجيريا نسبة ٦٥٪ من بين السكان الأصليين بينما يمثل المسيحيون نسبة ٢٠٪ فقط إلا أنه فى سنة ١٩٧٤ كان من أعضاء الوزارة خمسة من المسلمين وعشرة من المسيحين ، وسبب هذا الفرق هو تفوق المسيحين وتأخر المسلمين ، وفى المدارس الحكومية لا يزيد عدد الطلبة المسلمين على ٢٥٪ من المجموع الكلى للطلاب . وتتناقص هذه النسبة فى مراحل التعليم العالى ، وبينما يمثل الطلبة المسيحيون فى البلاد ٢٠٪ فقط إلا أن الهيئات العلمية تعج بهم .

ومثال آخر من نوعية أخرى وهو روسيا ، فبعد الحرب العالمية الثانية قامت أمريكا بمشروع ضد عدوها الاتحاد السوفيتى يقضى بعقد معاهدة مع البلاد التى تقع على حدودها حتى تقيم فيها قواعد عسكرية لها أو تكسبها إلى جانبها ، وكانت معاهدات (ناتو) و (سيتو) و (سنتو) هى الوسيلة التى تتمكن بها أمريكا تمرير سفنها العسكرية بالمحيط الأطلسى لتصل إلى أوروبا وشمال أفريقيا وآسيا وهكذا وعن طريق عدد من القواعد العسكرية أصبحت أمريكا فى وضع يسمح لها بالتمكن من مراقبة العالم الشيوعى مراقبة شديدة ، وكان معنى هذا هو أن على روسيا أن تطوى مسافة سدس الكرة الأرضية لتصل إلى

فقط بالمجتمع الإسلامى الذى يمتلك السلطة . ما معنى هاتين القوتين فى زماننا الحاضر ، وكيف يمكن الحصول عليهما ؟

حتى يتضح ذلك نقدم اليابان وروسيا كمثالين على هـذا الأمر :

حين هزمت اليابان فى الحرب العالمية الثانية (١٩٣٩ — ١٩٤٤) وتم نزع سلاحها ، واستولى الجيش الأمريكى على اليابان : تم إغلاق أبواب الأفكار العسكرية أو السياسية أمام اليابان وألقى امبراطور اليابان هيروهيتو (١٩٠١ —) خطابا قال فيه :

« علينا أن نتحمل كل ما بوسعنا لبناء الأجيال اليابانية القادمة » .

ومن هنا بدأت اليابان كلها تعمل من أجل تطوير جميع المجالات الأخرى غير السياسية ، فأعطوا لأساتذتهم رواتب الوزراء وسلموهم سلطات المحافظين حتى يمكن أن يرتفعوا بالتعليم إلى أعلى مستوى ، وتطورت الصحافة لدرجـة أن أكثر الصـحف طبـاعة فى العـالم هى الصحف اليابانية ، وتطورت الصناعة والتقنية فى اليابان حتى وصلت أوج كمالها .

ورغم عدم وجود الحديد والصـلب باليابان فهم الآن يقومون بصناعة أعظم الآلات فى العالم ، وقد ارتفعوا بمستوى صـناعتهم ونوعيتها حتى وصل المعيب فيها إلى درجة الصفر ، وتطور الإحساس القومى والنظام والانضباط لدرجة انه لا يوجد بين أمم العـالم من يضارعها فى ذلك .

ورغم أن مجالات التطور هذه ليست مجالات عسكرية أو سياسية فى الظاهر ، إلا أنها أثبتت قوتهـا لدرجة أن امريكا قامت باستدعاء جيوشها من اليابان بدون أية مواجهة تذكر .

هذا هو مجال البناء والرقى ، وهو مجال مفتوح بكافة إمكانياته

وعاطفة إسلامية ، وواجه الاثنان « القوة الغربية » إلا أن الأول أصبح فاتحا للقدس والثانى واجه فقط العدو وهزم واستشهد . وهذا الفرق بينهما لا يرجع إلى سر « سليمان » فالحقيقة البسيطة أن السلطان تيبو واجه عدوه فى القرن الثامن عشر فى وقت كان فيه الغرب متفوقا فى الصناعة العسكرية ، فقد اكتشف أنواعا من الأسلحة التى يستخدمها ضد العدو من مسافات بعيدة ، وقد أغنته هذه عن استخدام الأسلحة التقليدية الرائجة فى تلك الفترة ، كما تمكن الغرب من السيطرة على القوة البحرية تماما،وعلى العكس من هذا واجه صلاح الدين عدوه فى القرن الثانى عشر الميلادى حين كان المسلمون يملكون قيادة الدنيا فى الصـناعة الحربية ، ففى تلك الفترة امتـلأت مصر والشام والعراق بالمصانع التى تنتج أحدث وأحسن الآلات الحربية فى العالم ، وكان للمسلمين اليد العليا فى وقف حملات الروم فى العصر العباسى ، وفى صد الأمم الأوربية زمان الحروب الصليبية ، وقد تطورت الصناعات العسكرية فى هذه المنطقة بصفة خاصة فى زمان الحروب الصليبية حتى أنه حينذاك وبعد عقـد اتفاقيات الهـدنة كان أهل أوربا يتجهون إلى أسواق مصر والشام بصفة خاصة لشراء الأسلحة ، حتى أصدر العلماء المسلمون فى ذلك الوقت فتوى تقضى بأن بيع الأسلحة للنصارى حرام لأنهم سيستخدمونها ضد بلاد المسلمين[1] . هذه هى القوة التى ورد ذكرها فى القرآن باسم « القوة المرهبة » حيث قال : (**وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة ومن رباط الخيل ترهبون به عدو الله وعدوكم**)[2] .

والقوة المرهبة قوتان : الأولى تتعلق بجميع المسلمين ، وعلى كل جماعة مسلمة أن تعمل للحصول عليها على قدر ما تملك ؛ والثانية تتعلق

---

(١) د . مصطفى السباعى ، من روائع حضارتنا .

(٢) الأنفال ، ٦٠ .

وقائع الخلاف والنزاع التى كانت وراء جميع صور الفشل التى تعرض لها المسلمون .

يذكر القرآن الكريم أن المؤمنين بعضهم أوليـا بعض ، وهكذا فالكافرون أيضـا بعضهم أولياء بعض ، وهـذا يعنى وجود اختلافات فطرية فى الطبائع البشرية ؛ فإذا كان هناك شخص موزون الإرادة فإنه سوف يبحث عن عوامل الاشتراك بين أفراد البشر التى تضمهم وتجمع بينهم ، فبدون هذه العوامل المشتركة لا يمكن لأى عمل أن يحقق أى نجاح فى هذه الدنيا ، فإن الأخلاص للهدف يجبر موزون الإرادة على أن يتغاضى عن جوانب الخلاف ليوحد أهل جنسه ؛ وأهل الكفر مهما كان بينهم من فروق واختلافات فإنهم أيضـا يتفقون على بعض النقاط ، وهكذا فرغـم الاختلاف الفطرى بين جماعة المؤمنين ، ففى حيـاتهم الاجتماعية يوجد شيىء يمكنهم من الاتحاد مع إخوانهم ، وان حدث خلاف بينهم فإنه يحدث حين تخلو قلوبهم من الخير تماما . **(إن يعلم الله فى قلوبكم خيراً يؤتكم خيراً مما أخذ منكم)** (١)

٣ ــ والأمر الثالث اللازم لبناء الأمة يمكن استخلاصه من تلك الآية :

(وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة ومن رباط الخيل ترهبون به عدو الله وعدوكم) (٢) إن أهمية القـوة المرهبة فى دنيانا هذه يمكن أن تفهم من مثال واحد :

تتشابه كل من السلطان صلاح الدين الأيوبى بمصر (١١٣٧ — ١١٩٣ م) والسلطان تيبو بالهند بما يملكان من كفاءة عسكرية وشجاعة

---

(١) الأنفال ٧٠ .

(٢) الأنفال ٦٠ .

دخل محمد بن القاسم إلى منطقة باكستان الحالية عن طريق ملتان سنة ٧١٢ م ، ولم يدخل البلاد غازيا كما فعل محمود الغزنوى أو بابر ، بل دخله بدين الرحمة وكما يقول أحد المؤرخين : « كان أعدل من أنو شيردان وكان رحيما راعيا للرعية ، وهكذا وخلال سنوات قليلة انتشر الاسلام من سواحل بحر العرب إلى كشمير ، واعتبره السكان المحليون ملاكاً ، وبعد عودته أقاموا له مأتماً (فبكى أهل الهند على محمد وصوروه بالكيرج — البلاذرى) ، وقد قام سليمان بن عبد الملك (ت ٩٩ هـ) بعزل محمد بن القاسم واستدعائه الى دمشق لسبب غير مفهوم فى نفسه ، وبعدها سجنه وتوفى محمد بن القاسم على هذا الحال وهو ينشد هذا البيت :

أضاعونى وأى فتى أضاعوا — ليوم كريهة وسداد ثغر !

وتوقف زحف الإسلام على شبه القارة الهندية بعد محمد بن القاسم لمدة ثلاثمائة سنة ، ثم بدأ الزحف الإسلامى ثانية ، وتم بعزيمة أصحاب الهمم ثم انتهت بعد ذلك عاطفة نشر الإسلام لدى الجيل التالى من المسلمين ، تلك العاطفة التى كانت تموج بقلب محمد بن القاسم ، يكتب جواهر لال نهرو :

« إن الدولة العربية التى بلغت مدى كبيرا من الاتساع والتى بدأ ظاهريا أن العرب لم يلقوا أية صعوبة فى سبيل الانتشار خارجها ، لم تتمكن من التقدم إلى أبعد من السند فى الهند .. وبعد قرون على فتح السند هجم المسلمون على شمال الهند ، ومن الممكن أن يكون سبب هذا التوقف الصعوبات الداخلية التى واجهت العرب ؛ لأن السند (بعد محمد بن القاسم) انفصلت عن القوة المركزية لبغداد وأصبحت دولة مسلمة مستقلة »(١) وفى الفترة التاريخية التالية نشاهد هذا النوع من

---

(١) Discovery of India, P. 240 .

١٢٢٥) حاكما على منطقة خرسان وما وراء النهر ، قام ابن خوارزمشاه بمنع ذكر اسم الخليفة فى الخطبة ، ووضع خطة للهجوم على العراق ليضمها إلى سلطنته ، وعلم الخليفة الناصر لدين الله بالأمر وحتى يقوم بالقضاء عليه أرسل خطـابا — سرا — إلى التتـار ليهجموا على ابن خوارزمشاه وكان يعتقد أن ابن خوارزمشاه سوف ينشغل بهذا بقضية الدفاع عن نفسه ، وان يفكر فى الهجوم على العراق ، واستفاد التتار من هذا الخلاف ، فهجموا على ابن خوارزمشاه وقضـوا على هـذه السلطنة ، ثم بدأوا يتحركون بقيادة جنكيزخان (١١٦٢ — ١٢٢٧) بقلب هادىء ليهجموا على سلطنة الناصر لدين الله ، وقاموا بتخريبها وتحطيمها من أولها إلى آخرها .

وكان السبب فى القضـاء على الحكومة الإسلامية بأسبانيا هو أيضا الاختلافات الداخلية ، ففى الوقت الذى هزم فيه مسلمو أسبانيا على يد الأمم المسيحية كان المسلمون يتفوقون عليهم فى العلوم والتقنية تفوقا كبيرا ، ولكن سبب الهزيمة هو أن المسيحيين كانوا متحدين معا بينما كان المسلمون يتصارعون معا ، وبدأ عمال الأقاليم يعلنون العصيان وينفصلون عن مركز الخلافة مستقلين بما فى أيديهم ، فأقاموا إمارات صغيرة مستقلة حتى أن أحدهم لم يكن يخجل من الاستعانة بالجيوش المسيحية لقتال المسلمين. لقد تمت هزيمة المسلمين السياسية فى أسبانيا فى آخر القرن الخامس عشر الميلادى حين اسـتولى المسيحيون على قلعة غرناطة واستغرق إخلاء البلاد من المسلمين قرنا من الزمان ، ورغم عمليات الإبادة الجماعيـة التى حدثت ثلاث مرات إلا أن آخر قوافل المسلمين خرجت من أسبانيا سنة ١٦٠٥ ، وكان السبب فى هذا هو سيطرة المسلمين هناك على الاقتصاد والآداب والفنون ، ولهذا فرغم القضاء على سلطتهم السياسية ، لم يكن من الممكن إخلاء البلاد منهم على الفور ، وهكذا كانت نتيجة الخلافة ، فحين عمهم الخلاف لم تكن هناك من فائدة لأى عمل يقومون به .

« عن عبادة بن الصامت قال : خرج النبى ﷺ ليخبرنا بليلة القدر فتلاحى رجلان من المسلمين فقال : خرجت لاخبركم بليلة القدر فتلاحى فلان وفلان فرفعت »(١) .

وبعد أن نقل ابن كثير هذه الرواية علق بقوله : « يفهم من هذا الحديث أن الإسلام ينبذ النزاع بين المسلمين لدرجة أن البركات تضيع بسببه » .

والأمة المحمدية تحمل « كتابا محفوظا » ولهذا فلا يمكن لأحد أن يقضى عليها فهذه الأمة ستظل باقية طالما بقى القرآن على هذه الأرض ، ومعنى هذا أنه لا يمكن لأية قوة خارجية أن تصيبها بضرر حقيقى ، وإذا أصيبت بضرر فسيكون من جراء غفلتها الداخلية ، ويأتى على رأس هذه الغفلة النزاعات الداخلية ، قال ﷺ فى خطبة حجة الوداع : « ألا لا ترجعوا بعدى كفاراً يضرب بعضكم رقاب بعض » (٢)

ولقد أثبت التاريخ بطريقة محيرة هذه التنبؤات ففى القرن الثالث عشر الميلادى حدث طوفان التتار الذى غطى العالم الإسلامى بالقتل والدمار وجعل منه مقبرة ، هذا بينما مر على العالم الإسلامى عصر شهد ظهور صلاح الدين الأيوبى (١١٣٧ — ١١٩٣) الذى هزم الأمم الصليبية هزيمة منكرة ، وكان لهذه الحادثة أثرها فى تثبيت الكفاءة الحربية للمسلمين لدرجة أن أية قوة سياسية لم تكن لتجرؤ بعدها على التحرك تجاه السلطنة الإسلامية : إلا أنه بعد وفاة صلاح الدين الأيوبى بأقل من عشرين سنة كان هجوم التتار على العالم الإسلامى ، لقد كان السبب الرئيسى والوحيد لما حدث هو الخلافات الداخلية ، فأثناء تلك الحملة كان السلطان الناصر لدين الله (١١٥٨ — ١٢٢٥) قائما على الخلافة فى بغداد بينما كان علاء الدين محمد بن خوارزمشاه (١١٢٠ —

---

(١) مختصر تفسير بن كثير ، المجلد الثالث ، ص ٦٢٢ .

(٢) مسند أحمد عن أبى حرة الرقاشى .

أن شخصياتنا هـــذه لم تتمكن من فهم فرق الزمـــان فقـــد ركزوا كل اهتمامهم فى الزمن الحالى على السياسة قياساً على الماضى ، لم يبذلوا أى جهد حقيقى فى سبيل تطوير وتعضيد اقتصـــاد المسلمين ، ثم إن الاقتصاد فى زماننا الحالى يرتبط ارتباطا وثيقا ببقية العلوم الجديدة ، التى تفيد فى جميع الأعمال ابتداء من الفلاحة حتى استخدام الآلة ، وهنا أيضا أثبت المسلمون غفلة محيرة ، فلم يفهموا العلاقة الجديدة بين التعليم والاقتصاد وقنعوا وظلوا على قناعتهم بالعـــلوم التقليدية لقرن من الزمان ، وانغمسوا فى ذلك لآخر مدى وظهرت نتيجة هـــذه الغفلة فى النهاية ، وجاء جيل بعد جيل حتى أصبح العالم فيهم جاهلا إذ ما قورن علمه بالتطور العلمى فى عصره .

٢ — والشىء الثانى اللازم لبناء واستحكام الأمة هو الاتحـــاد : « ولا تنازعوا فتفشلوا وتذهب ريحكم »(١) ومن المعروف أن الاختلاف ينبت الجبن ويقضى على المهابة القومية ، وعلى العكس من هذا إذا ما اتحدت الأمة فإن شخصا واحدا يساوى مائة ألف شخص ، فالاتحاد يولد لدى الناس الهمة والثقة بالنفس ويعلى من سمعة المسلمين بين الأمم

وأهمية الاتحـــاد فى الدين أهمية كبرى حتى انه لا يستحب أن يوجد فى مسجد واحد مجلسان فى آن واحد .

رأى ابن مسعود حلقتين فى مسجد الكوفة ، فقام بينهما فقال : أيتكما كانت قبل صاحبتها ؟ قالت إحداهما : نحن ، فقال للأخرى : قوموا إليها فجعلهم واحدة » (رواه الطبرانى فى الكبير)

وبناء على أهمية الاتحاد قدم الصحابة انعقاد الخلافة على تجهيز وتكفين النبى ﷺ بعد وفاته : جاء فى إحدى الروايات :

---

(١) الأنفال : ٤٦ .

العصر الحديث تغير معنى الاقتصاد تمـاما ، فأكبر وسـائل امتـلاك الاقتصاد الآن هى الصناعة والتجارة حتى أن الزراعة أيضا أصبحت فى العصر الحاضر إحدى الصناعات ، لقد تدخلت التقنية الحديثة الآن فى كل شيىء حتى تحولت الثروة بطريقة طبيعية إلى أيدى أولئك الناس الذين يملكون التكنولوجيا ، وتتمثل القضية القومية الأساسية للمسلمين فى أنهم لم يتقدموا أبداً عن عصر الزراعة التقليدية والتجارة التقليدية، والنتيجة هى أنهم أصبحوا أمة من الدرجة الثانية من الناحية الاقتصادية فى العالم ، هذا باستثناء الدول التى تملك الثروة نتيجة لمخزون المصادر الطبيعية دون أن تبذل أى جهد ، وعلى سبيل المثال دول الخليج العربى وذلك بسبب البترول •

فاذا أراد المسلمون أن يعيشوا فى هذا العصر الحديث فعليهم أن يفهموا المتغيرات الاقتصادية الجديدة وذلك بصورة أساسية وضرورية وأن يعملوا على مسـايرة اقتصاديات العصر الحاضر وإلا ظلوا فريسة سـهلة لسيطرة الأمم الأخرى ثم يصبحون فى النهـاية أمة منبـوذة اقتصادياً بين دول العالم •

وحركات المسلمين الكبرى التى ظهرت فى العصر الحاضر راحت — بدون استثناء تقريبا — ضحية هـذا الخطـأ ؛ فقـد أعطت للثورة السياسية اهتماماً أكثر مما تستحق بينما الاقتصاد وماله من صلاحيات ومكانة فى عصرنا الحاضر يحتل المكان الأول ويليه بالدرجة الثانيـة السياسة فالسياسة هى اليوم فى يد أولئك الذين يمتلكون الاقتصـاد ومن لا توجد فى يده القوة الاقتصادية لا تكون له أية سياسة •

فى فترة قريبة مضت أنبتنا شخصيات رفعناها إلى الهيمالايا من الناحية السياسية ، ورغم هذا لم تحصل على المكانة التى كان يجب أن تحصل عليها مثل هذه الشخصيات العظيمة ، والسبب الوحيد هـو

وتترجم كلها جميعا حرفا حرفا إلى اللغة الإنجليزية ويتم نشرها بعد ذلك .

ما هى الأسس التى توضع عليها عملية بناء واستحكام الأمة ؟
أوضح القرآن الكريم ثلاثة أصول خاصة :

— قيام الأمة
— الاتحـــاد
— القوة المرهبة

١ — عبر القرآن عن المال بالقيام (أموالكم التى جعل الله لكم قياما) [١] ويأتى القيام أيضا بمعنى العون والتعضيد (Support)، قام على عياله أو هو قيام أهله ، ويقال أيضا حين يكون الشخص عونا لأهله وعياله ، وقد جعل الله المال أو الاقتصاد عونا اقتصاديا للانسان فى هذه الدنيا ، وعن طريقه يستطيع أن يسد حاجات حياته التى يتمكن بها من الحفاظ على جسده ، ومن هنا فهو يصبح مالكا لتلك الوسائل التى توجد فى هذا العالم المادى والتى تحتاج بالضرورة إلى قدر من الجد والكفاح للوصول إلى النجاح ، وقد جاء من بين دعاء النبى : اللهم إنى أعوذ بك من الفقر .. وتعجبت عائشة وسألت الرسول ، أقلت هكذ ؟! فقال نعم يا عائشة ، (كاد الفقر أن يكون كفراً) .

وقبل خمسمائة سنـــة كان المسلمون يسيطرون على اقتصاديات العالم ، ولكنهم اليوم حرموا من « القيام » الاقتصادى ، والسبب هو أنهم لم يفهموا اقتصاديات العصر الحديث ، ولهذا فشلوا أيضا فى أن ينهضـــوا ويتطوروا باقتصادهم ؛ ففى العصر القديم كان الاقتصـــاد مقصورا على الإنتاج الزراعى (الزراعة والفلاحة والبستنة) ولكن فى

---

(١) النساء ٥ .

الوحيد فى المؤتمر الذى يرتدى القبعة وقد استقبله بقية ممثلى البلاد الإسلامية بانقباض شديد(١) .

ماذا فعل لينين بعد السيطرة على الحكم فى روسيا ؟ لقد أنشأ لجنة للترجمة من اللغات العالمية فى سنة ١٩٢٢ وأسماها Cminolit وكان عملها جمع كتب العلوم والتقنية المكتوبة باللغات الأجنبية ، وترجمتها إلى اللغة الروسية ، واعتبر لينين هذا العمل مهما لدرجة أنه أشرف عليه شخصيا رغم انشغاله بالعديد من الأعمال الأخرى ، وكانت النتيجة جمع العديد من الكتب التى مثلت ذخيرة ضخمة بروسيا واستمر هذا العمل حتى انه اليوم يصدر جرنال روسى بعنوان Referativy izhurnal يحتوى كل عدد منه على ملخص لمليون مقال علمى وتقنى صدرت بسبعين لغة فى ١١٧ بلدا ، وحتى يتم هذا العمل تم تعيين مائة ألف خبير مترجم فى هذا الجرنال ، كما يضم فريق المترجمين الخاص لاتحاد معاهد المعلومات والتكنولوجيا

All Union Institute For Scientific and technological information

ألفين وخمسمائة مترجم بالاضافة إلى ٢٢ ألف خبير مترجم يعملون بعض الوقت ، وفى روسيا الآن أكثر من خمسة آلاف مؤسسة علمية تضم تقريبا مليون عالم من بين أعضائها ، كما تم وضع نظام تعليمى فى روسيا يضمن وجود عدد ضخم ممن يستطيعون الكتابة والترجمة بلغتين فى وقت واحد ، وكان من نتيجة هذا العمل المتواصل أن كانت روسيا أول بلد يرسل أول قمر صناعى إلى الفضاء (١٩٥٧) ، وذلك فى تاريخ الانسانية ، ويحتل العلم الروسى والتكنولوجيا الروسية أهمية كبيرة لدرجة أن ٢٥٠ جرنالا علميا روسيا تطلب فى أمريكا

---

(١) Irfan Orga Margarete, Ata tuk. Michael Joseph Ltd, London, 1967. P. 265.

(١٩٢٢)في زمن واحد تقريبا ، أضف إلى هـذا أن مؤسس الثورة التركية مصطفى كمال أتاتورك (١٨٨١ — ١٩٣٨) عاش أربع عشرة سنة فوجد فرصـة للعمل أكثر ممـا وجد مؤسس الثورة الروسية فلاديمير لينين (١٨٧٠ — ١٩٢٤) إلا أن الوضع الآن هو أن الروس يرسلون بمراكبهم الفضائية إلى الفضاء ، والأتراك لم يتمكنوا بعـد من تثبيت أقدامهم على الأرض •

وهذا الوضع ليس مجرد صدفة محضة إن وراءه أسباباً تاريخية عميقة ؛ فحين استولى كمال أتاتورك على السلطة فى تركيا رأى بل اعتقد أن سر الرقى والمدنية يكمن فى تقليد الحضارة الغربية تقليدا كاملا ، فغير « الدولة الدينية » القديمة إلى دولة « علمانية » وقضى على قـانون الشريعة الإسلامية وطبق فى تركيا القـانون الديوانى السويسرى ، والقانون العسكرى الإيطالى ، والقانون الدولى التجارى الألمانى ، ومنع التعليم الدينى وأصدر قانونا ضـد الحجاب ، وطبق التعليم المختلط وقضى على اللغـة التركية المكتوبة بحروف عربيـة واستبدل بهـا الحروف اللاتينية ، ومنع الأذان باللغـة العربية ولم يسمح بالذهاب لأداء فريضة الحج بمكة وغير الزى القومى وأصدر قانونا يلزم لبس القبعة حتى أن مسألة لبس القبعة أصبحت وكأنها حرب منظمة داخل تركيا ، وأعدم العديد من الناس لأنهم رفضوا خلع الطربوش وارتداء القبعة ، وأعتقل آخرون وأعدموا لأنهم استهزأوا بالقبعة أو رفضوها ، وبعد حرب شديدة نجحت مهمة إلباس الشعب التركى القبعـة وأعلن كمال أتاتورك انتصاره فأرسـل إلى المؤتمر الإسلامى بمكة (١٩٢٧) منـدوبا من البرلمـان يدعى أديب ثروت للاشتراك فى المؤتمر ممثـلا لتركيا ، وكـان أديب ثروت هو الممثـل

بناء الأمة

مع ان الدعوة الإسلامية بدأت فى منطقة لم يؤمن فيها بالإسلام سوى الداعى فقط فقد ظل التركيز مستمرا على حركة الدعوة الإسلامية بالإنذار والتبشير ، واذا ما وجد من آمن بالإسلام أصبح من واجب الداعى بالضرورة العمل على تجميع هؤلاء الناس وبنائهم داخل أمة ، كما نشاهد بالنسبة لموسى عليه السلام ؛ فقد صدر الحكم الإلهى له بالذهاب إلى فرعون وإلى أقباط مصر ليطلعهم على اليــوم الموعــود (**اذهبا إلى فرعون إنه طغى**) (١) ومن ناحية أخرى ظل يقوم بعملــه الآخرى وهو تخليص مسلمى ذلك الوقت (بنى اسرائيل) من العذاب الفرعونى (**فأرسل معنا بنى إسرائيل ولا تعذبهم**) (٢) وهــذا العمل الثانى عبر عنه الكتاب المقدس كما يلى :

(تخليص أمته من المصيبة)   [الأعمال ٧ : ٣٤]

ولقد وقع تأثير ما يطلق عليه اسم العصر الحديث على المسلمين بصورة واضحة لأن الأمم الغربية — التى سيطرت على العالم بقوتها الجديدة — كانت تمثل العالم الذى سيطر المســلمون على الجزء الأكبر منه ، وكان رد الفعل الطبيعى ظهور حركات تهدف إلى إعادة بناء الأمة الإسلامية ، وظهرت هذه الحركات على نطاق واسع ، ومضت عليها مئتا سنة الآن ، ولكن لم يتمكن المسلمون حتى اليوم من استرجاع مكانتهم الضائعــة ، والسبب هو أنهم لم يستطيعوا فهم أســاس قضيتهم ، وظلوا يبحثون عن مستقبلهم وسط تدابير سطحية وعاطفية لقد قامت الثورة الاشتراكية الروســية (١٩١٧) والثورة التركية

---

(١) طه ٤٣ .
(٢) طه ٤٧ .

الإسلاميه رغم انها بالطبع متعاطفه مع الإسلام إلا أنها من حيث المزاج ليست على استعداد كامل لإعلان قيام دوله دينية خالصة ، ومصر وباكستان واندونيسيا أمثلة على هذا الامر ؛ فرغم ما حققته الحركات الإسلاميه فى تلك البلاد فى وسط القرن الحالى من شهرة ونجاح إلا أنها — للأسف — لم تنجح فى تطبيق الشريعة الإسلامية ، ولقد توفرت للمصلحين الفرص لأنهم فى بلد إسلامى ، وتوفرت لهم سبل الدعوة الإسلامية بطريقة مؤثرة ، إلا أن كل هذا ضاع وانتهى نتيجة للخلافات والاحتجاجات السياسية .

لقد اختار رجاء بن حيوه مرافقة الحاكم الأموى سليمان بن عبد الملك قاعده لينصب للخلافة من بعده عمر بن عبد العزيز (٦٨٢ — ٧٢٠) . وقد قبل القاضى أبو يوسف منصب قاضى القضاة فى عهد هارون الرشيد ليوضح للناس كيف يمكن للاسلام أن يقضى فى الظروف المتغيرة للزمان ، والشيخ أحمد سرهندى (١٥٦٤ — ١٦٢٥) تقابل مع الامبراطور المغولى جهانكير ونجح فى محاولة القضاء على بدع أكبر .

هذه الطريقة فى المصالحة مع الحكام كانت وسيلة المسلمين السابقين فى العمل من أجل الاصلاحات الجزئية ، ولو أن مصلحى وقتنا الحاضر قد قاموا بمثل هذا واتخذوا منه وسيلة لحركات إحياء الإسلام فإنهم بذلك سيؤدون عملا عظيما من أجل رفعة الدين وغلبة الإسلام ، عمل مازلنا نفكر فيه الآن ، نفكر فيه فقط ولا نفعل شيئا من أجل تنفيذه .

ولكن مافعله أكثرهم لم يكن سوى تضييع هذه الفرصة والجرى وراء فرص أخرى لم تكن لتتوافر فى ذلك الوقت فقد فهموا العمل على انه صراع سياسى مع أهل السلطة،كان حولهم العديد من الفرص التى تتيح لهم أهم الأعمال : الاصلاح الاخلاقى للمسلمين، إعداد أدب إسلامى يلائم العصر الجديد ، بناء الامة الإسلامية بناء صناعيا وعلميا ، العمل على وحدة العالم العربى ، إلقاء الضوء على أهمية القوة الطبيعة الضخمة للبترول والاستفادة منه ؛ تبليغ الإسلام فى قبائل إفريقيا غير المسلمة التى تنتظر قدومنا منذ قرون ؛ العمل على رفـع المستوى التعليمى والاقتصادى للمسلمين فى بلاد إفريقيـا المسلمة فنتيجة لانخفاض المستوى التعليمى والاقتصادى ، سيطرت عليهم الأقليـة المسيحية هناك • لكن هذه القيادات العظيمة رغم إخلاصها الكبير ورغم ما صدر عنها من تضحيات غالية لم تتمكن من القيام بأى عمل من تلك الأعمال السابقة على سبيل المثال •

وهناك خطأ اجتهادى لدى المصلحين المسلمين فى العصر الحاضر؛ فقد اعتقدوا أن من الواجب البدء فى المطالبة بتنفيذ الشريعة الإسلامية فى تلك البلاد التى توجد بها أكثرية مسلمة والتى يحكمها المسلمون سياسيا ، وكان هذا خطأ ما بعده خطأ ولا توجد له من نتائج عملية سوى أنهم صاروا حزباً معارضا فى بلدهم واستقر أمرهم على هذا • وإذا كانت الظروف الخاصة فى البلاد التى توجـد بها أقلية مسـلمة تضع القضية على عاتق الأكثرية المحلية غير المسلمة ، فإن ذات القضية فى البلاد التى توجد فيها أكثرية مسلمة تتمثل فى الظروف العالمية ، بالإضافة إلى أن من يسيطرون على جميع فروع الحكومة فى البلاد المسلمة إنما هم أولئك الذين درسـوا فى إدارات ومؤسسـات على الطراز الغربى لأنهم هم الذين يملكون الكفاءة التى تمكنهم من إدارة البلاد فى هذا العصر الجديد ، ولهذا فإن الطبقة الحاكمة فى البلاد

لقد وجد مصلحو الأمة فى العصر الحديث فرصاً للعمل لا حصر لها ، فقد كان (عبد القهار مذكر) فى أندونيسيا (١٩٠٢ — ١٩٧٣) من الأصدقاء المقربين للرئيس سوكارنو ، وتمكن من البدء فى اتخاذ إجراءات وأعمال كثيرة فى سبيل رقى الدين واستحكامه فى البلاد كان لها عظيم الاثر فى تشكيل المجتمع فى أندونيسيا حتى بعد غيابه وبعد غياب سوكارنو إلا أنه اختلف مع الحكومة فى ذلك الوقت على مسألة تشكيل الدستور الإسلامى وكانت النتيجة أن انتقل من هذا العالم ولم تصدر عنه سوى الاحتجاجات والشكوى فقط .

كان هذا هو الحال بالنسبة لجميع البـلاد الإسلامية فى ذلك الوقت ، فمصر والشام حصلتا على مكانة الزعامة والقيادة الفكرية فى العالم الإسلامى نظراً لما تتمتعان به من مميزات تاريخية وجغرافية ، وقد وهبهما الله العديد من الشخصيات الإسلامية ، وحين التقى جمال الدين الأفغانى لأول مرة بالأمير شكيب أرسلان صدرت منه على الفور هذه العبارة :

« أنا أهنىء أرض الاسلام التى أنبتتك »

ولو قامت هذه الشخصيات العظيمة التى ظهرت فى هذه المنطقة فى العصر الحاضر بالاستفادة الصحيحة من الامكانيات العملية ، ولم تصـدم صدامات غير ضرورية مع أصحاب السلطة لشـهد العـالم الإسلامى اليوم تاريخا جديداً ، لقد كانت هذه الشخصيات قد وجدت الفرصة للعمل فى المنطقة الإسلامية واستمر عملها من حيث المجموع لفترة زادت على قرن من الزمان ، وهم لم ينالوا فقط شهرة واسعة بين عامة الناس بل كان من بينهم من له تأثير كبير لدى الطبقة الحاكمة، مما كان يعطيهم فرصة كبيرة للاصلاح الدينى .

مشهورة داخل تاريخ البشرية ، وقد بدأ العصر الحديث من هـذا المنطلق من نيوتن (١٦٤٢ — ١٧٢٧) .

ولد شاه ولى الله دهلوى (١٧٠٣ — ١٧٦٢) حين كان نيوتن حيا ، وقد ظهر كتابه المشهور عن النسـبية (فى ١٦٨٧م) ، إلا أنه حين حطمت الأمم المعادية للاسلام هيكل العلم التقليدى ، وبدأت فى ايجاد علم جديد فإن بعض المصلحين فى ذلك الوقت ترك هيكله التقليدى ، ولم يتمكن من التوفيق أو النجاح فى فهم قضية العصر . لقد شرح بعضـهم شرحا وافيا شروحـات التصوف الشـائع ، ثم ظهـرت فى تلك الفـترة الثـورة الفـكرية التـى أطلـق عليهـا « الجمهورية » ؛ فقامت جمهورية الثورة الفرنسية (١٧٨٩) وانفصل أهل امريكا عن انجلترا وأقاموا حكومتهم القومية (١٧٨٣) ، ومع أن ذلك حدث بعد هذا العهد إلا أن العوامل الفكرية لكل هذه الأمور كانت قد اكتملت فى هذا الزمان حتى أن روسو كان معاصراً تماما لهذا العهد ولكن الطوفان السياسى كان له تأثير بعيد المدى ، فى هذا العصر .. فقد حدثت الثورات الجمهورية فى أوروبا وأمريكا ، إلا أنه صعب على مصلحى هذا العصر أن يقيموا للمسلمين خطة مؤثرة لحركة اجتماعية تتلاءم مع ظروف العصر الحديث فى ضوء الدين فى وقت كانت فيه أصول الجمهورية أو بعبـارة أخرى حكم الأغلبية مسلمة سياسية معترفا بها فى العالم ، وضحى العلماء والمفكرون جيلا بعد جيل بالروح والمال فى سبيل قيام حكومة ذاتية على أساس القومية الوطنية ، ولم يكن من السهل أن نتوقع تمكن الأقلية المسلمة من الفوز والغلبة فى بلادنا هذه مـرة ثانية حيث أعوزتهم الدراية بالمتغيرات السياسية الجديدة فى الوقت الذى وقعت فيه ثورة ١٩٤٧ ، واتخذت القرار الأخير ، وأجبرت المسلمين على أن ينكمشوا ، وهم يشاهدون بحسرة أمانيهم المقتولة ، وهكذا يمضون من هذه الدنيا .

بخارى فى سنة ١٦٩٨ م وذلك إبان حكم الامبراطور عالمكير للهنـد ، وكان نموذجا للامبراطور الذى جمع بين الدين والسياسة .

ومن ناحية أخرى كان السلطان أحمد الثالث (١٦٧٣ — ١٧٣٦) يعتـلى عرش الامبراطورية العثمانيـة ، إلا أن كلا من الامبراطورية المغولية والامبراطورية العثمانية كانتا بمعزل عن العالم ، فلم تعرفا بخبر هذه الثورة التى حدثت فى موازين الطاقة ، تلك الطاقة التى انتشرت وكانت فى النهاية سببا فى القضاء على هاتين الامبراطوريتين

وهناك حادثة أخرى لها أهمية كبيرة من وجهة النظر الإسلامية ، وتتمثل فى اختراع المطبعة ، ويقال إن أول من نجح فى بناء مطبعة من الخشب كان ألمانيا يدعى كوتن برك (١٣٩٨ — ١٤٦٨) وقام وليم نيكولون الانجليزى ببناء أول مطبعة من الحديد ، وصمم أول مطبعة تعمل بالآلة ، كان هذا فى سنة ١٧٩٠ فى الوقت الذى حقق فيه بعض المصلحين نجاحا كبيراً فى حركتهم ضد « البدع » .. فى هذا الوقت كانت جريدة التايمز أول جريدة طبعت بمطبعة تعمل بمحرك بخارى فى ٢٩ نوفمبر سنة ١٨١٤ فى وقت كانت تعيش فيه شخصيات إسلامية كبيرة ، إلا أن العالم الإسلامى كله لم ينتج رجلا واحدا يشعر بأهمية الأمر فى حينه ويدرك أن هناك طاقة جديدة ظهرت فى العالم اسمها المطبعة وقريبا ستسيطر على عقول الدنيـا كلها ، وأول من أدخل المطبعة إلى مصر هو نابليون (١٧٦٩ — ١٨٢١) ومن مصر انتقلت المطبعة إلى البلاد العربية تدريجياً .

وهناك أمر آخر يحتل مكان الصدارة من وجهة النظر الإسلامية، وهو ما يطلق عليه « العـلم الحديث » . بدأت الإرهاصات الأولى لظهور العلم الحديث منذ فترة طويلة عبر التاريخ البشرى ، إلا اننا نلاحظ دائما أن عصر العلوم كان ينتقل من مرحلة إلى مرحلة أخرى

أن أحداً لم يدر عن هذه الواقعة فقد كان الجميع يطوفون فى عالمهم الروحانى حتى يتمكنوا من الوصول إلى اجتهادات فى أبحاث معقدة عن وحدة الوجود ولهذا ظلوا لا يدرون شيئا عن هذه الواقعة التى حدثت لبلدهم ، فقد طورت الأمم الغربية قواتها البحرية وسيطرت على سواحل البلاد ، ثم وصلت قواتها إلى حد السيطرة على المنطقة الساحلية للهند كلهـا من مدراس إلى بمبـاى وإلى كلكته وأصبحت « سلطنه دهلى » امام هذه القوات بلا حول وبلا قوة . فقـد كانت الامبراطوريه المغوليه مشغولة بفتنة أكبر ، تحاول إصلاح ما أفسدته هذه الفتنه إلا أن فتنة البرتغاليين لم تتضح لهم وكانت من حيث نتائجها المتوقعة اكثر خطراً من فتنة أكبر ، وكان حيدر على (١٧٢٢ — ١٧٨٢) والد السلطان تيبو هو أول من شعر بأهمية القـوة البحرية فحاول إقامة مصنع للسفن البحرية فى جزيرة (مالديف) إلا أن الوقت كان قد ولى ، فلم يحقق أى نجاح فى مشروعه .

والشىء الذى أوجد عنصر القوة والغلبة فى العصر الحـديث هو الآلة ، وقد بدأت ثورة الآلة باكتشاف البخار ، أى الاستخدام الصناعى لقوة البخار ، فقد كان اكتشاف محرك البخار عاملا لإمكان وجود صناعة حديثة ، كان الإنسان قبلها يستخدم قوته العضلية ، أو يستخدم الحيوان أو الماء والهواء فى بعض الأحيـان ، أما الآن فهو يمتلك هذا المحرك الذى يعمل بقوة ألف حصان ، والذى بدأ يمد المصانع بالقوة والطاقة ، وأخذ يجرى بالانسان بسرعة فائقة على البر وفى البحر . هذه هى قوة الآلة التى مكنت أهل الغرب من هزيمة العالم التقليدى القديم والسيطرة عليه .

كان أول من اكتشف أول محرك بخـارى الإنجليزى تومس سيورى (١٦٥٠ — ١٧١٥) ومن المحير أن تومس سيورى كان معاصرا لأونكزيب (١٦١٨ — ١٧١٧) وقد صمم تومس سيورى أول محرك

الدكن والكجرات ووصلوا إلى سواحل مدراس ، ومن هناك وصلوا الى البنغال الشرقيه وأسام ومنها عبروا إلى الصين وانتشروا وهم فى طريقهم هذا فى جزر ماليديب وسيلان وسنغافورة وجاوا وسومطرة وبقية الجزر المحيطة بها واصبحت معابرهم التجارية مراكز لمحاولات نشر الإسلام • إلا أن هذه المحاولات قد انتهت مع نهاية القرن الخامس عشر • ففى سنة ١٤٩٨ م وصل فاسكو دى جاما عن طريق رأس الرجاء الصالح إلى السواحل الجنوبية للهند ودخل مدينة (كالى كت) وقام البوقرق فى سنة ١٥١١ م بالاستيلاء على « ملكا » وأقام قوة بحرية برتغالية فى بحر الهند ، ثم خضعت جاوا لسيطرة البرتغاليين ، وكانت سيطرة البرتغاليين على بحر الهند فى زمان أكبر (١٥٤٣ — ١٦٠٥) قد وصلت إلى حد قيامهم بسلب ونهب أمتعة الحجاج المتوجهين الى مكة من الهند ، وكان من بينهم عادة بعض أفراد الأسرة الحاكمة والأمراء ، ويقول أحد المؤرخين : « رفرفت راية الامبراطور المغولى على الطريق البرى بينما كان البرتغاليون يملكون البحر » •

سيطر البرتغاليون على بحر الهند وحرموا العرب من تجارة جنوب الهند ، ولم يعد من الممكن للعرب الوصول الى الهند عن الطريق البحرى الذى لم يكن أسهل السبل للسفر فقط بل كان أسهل السبل لنقل الأمتعة والبضائع التجارية ، بعد انقطاع العلاقة بين جنوب الهند والتجار العرب توقفت عملية الدعوة إلى الإسلام ، وانتشاره فى تلك المنطقة كلها ، واصبح هذا الأمر حكاية يذكرها التاريخ •

بعد وفاة فاسكو دى جاما بأربعين سنة ولد الشيخ أحمد سرهندى (١٥٦٤ — ١٦٢٥) وكان زمانه موافقا لتلك الحادثة التى وقعت على ساحل الجنوب والتى صنعت تاريخا جديدا لهذا البلد ، إلا

عائق « معارض الإسلام » بل إن سبب هذا الفشل هو أن الأسلوب البرىء لحاملى رايات الإسلام تمثل فى محاولة إنشاء منارة سياسية إسلامية فى بلدهم دون تغيير الطريقة الفكرية للجماهير وذلك فيما يتعلق بالنواحى الاجتماعية ، وهكذا أيضا فشل الإسلاميون فى إقامة حكومة إسلامية وكان السبب فى ذلك أيضا هو أنهم افترضوا — على الرغم من مستلزمات العصر — إمكانية اقامة ثورة إسلامية على أساس نظرى فقط .

قضية جديدة :

إن ما نطلق عليه « قضية الإسلام الجديدة » بدأ منذ خمسمائة سنة حين اكتشف الملاح البرتغالى فاسكودى جاما (١٤٦٠ — ١٥٢٤) الطريق البحرى بين الشرق والغرب ، ومن ناحية أخرى عبر البحار الايطالى كرستوفر كولمبوس (١٤٤٦ — ١٥٠٦) الأطلنطى فربط العالم القديم بالعالم الجديد برباط بحرى ، بعد هذه الاكتشافات دخلت الملاحة البحرية عصراً جديداً .

وحتى القرن الخامس عشر الميلادى كان هناك طريقان للقدوم من أوربا الى الهند : الأول طريق برى والثانى بحرى وهو المؤدى إلى الشام ومصر ، وكان الطريقان كلاهما فى يد العرب ، وكان التجار العرب فى ذلك الوقت يسيطرون على المناطق الساحلية لجنوب الهند ، وعلى ضوء نجاحهم التجارى انتشر الإسلام فى تلك المناطق بسرعة ، وأصبح عدد المسلمين فى منطقة ما لآبار كثيرا لدرجة أن الحاكم الهندى فى ذلك الوقت عين لهم قاضيا مسلما ليفصل فى أمورهم المتنازع عليها ، وكان يطلق عليه « هنرمند » أى صاحب العلم والفضيلة ، وقد قدم التجار العرب الى السند من موانى خليج فارس ومن أشهرها سيراف والبصرة ، ثم عبروا البحر ومضوا على سواحل

كيف تحطمت هذه الشاكلة ؟ إنها قصة لها تاريخ طويل يمتد إلى قرن تقريباً • استعمل مصطلح « الاشتراكية » بالمعنى الاقتصادى الحالى لأول مرة سنة ١٨٢٦ م فى جريدة بريطانية تدعى Operative Magazine، وظهر بعدها عدد من المفكرين كتبوا كتبا رائعة دفاعا عن هذه النظرية ، فأوجدوا ما عرف فى دنيا الأدب باسم الأدب الاشتراكى وقد كتب ماركس كتابه بعد قراءات استمرت خمسا وثلاثين سنة ، وبعدها ونتيجة لهذا الطوفان الفكرى ظهرت عدة حركات كبرى تمخضت عنها حركة الاشتراكية والبلشفية ، والاشتراكية المسيحية والشيوعية وغيرها ، هذا بالاضافة الى انتشار شبكات حركات التحرير واتحادات العمال فى العالم كله • وفى سنة ١٩١٧ م ظهرت حكومة اشتراكية فى روسيا ، وبعدها بدأت عملية نشر الأفكار الاشتراكية على مستوى حكومة منظمة أضافت الى قدرها ونوعيتها إضافات ضاعفت من حجمها آلاف المرات ، وهكذا أمكن نزع الملكيات الخاصة للناس فى مساحة ضخمة من الأرض ، وأقيم النظام الاشتراكى واعترف الفكر العالمى بهذا العمل كإجراء اقتصادى مشروع فى العصر الحاضر ، وهكذا فإن تحطيم شاكلة الإلحاد يستلزم هذا النوع من الكفاح والجهاد الطويل ، وبدون هذا الأمر لا يمكن إحلال الإسلام محل هذه الشاكلة فى دنيا اليوم •

لقد فشلت حركة الخلافة أو حركة الوحدة الإسلامية رغم جميع إمكانياتها ، ولم يكن السبب فى ذلك حقيقة « مؤامرة » ما ، بل ان الظروف العالمية فى ذلك الوقت قضت على تلك الحركة فحين يجذب طوفان الأفكار الدنيا كلها ناحية القوميات الجغرافية فلا يمكن أن تقف ضدها أية جزيرة ، إلا أنه عن طريق طوفان مضاد يمكن تغيير الأفكار العالمية • إن مسئولية فشل بعض الجماعات الإسلامية فى مصر لا تقع على

الحكيم من أجل توجيه الكائنات بحسها ومعنوياتها ، فالأسباب المعروفة تكفى لتوجيه هذه الكائنات ، ورغم زيادة قوة مشاهدة الإنسان ملايين المرات عما كانت عليه قبلا وذلك عن طريق الوسائل الآلية ، إلا أنه لم يتراء له « عالم آخر » خارج العالم المحسوس ، وبعدها استقر فى الأذهان أنه لا يوجد أى عالم آخر غير عالمنا هذا ؛ ففى الزمان القديم كان القمر يعد إلهاً والآن داست أقدام الإنسان هذا القمر .. هـذه الأحداث وغيرها غيرت الفكر الإنسانى تغييرا كاملا وبدأ شكل جديد من التفكير يحتل مكانه فى الدنيا وهو ما عبرنا عنه بعبارة « شاكلة الإلحاد »

وكان فشل حركات التجديد وإحياء الدين التى ظهرت فى العصر الحالى راجعا الى أن من قاموا بها رأوا أنه يكفيهم المضى على أسلوب التذكير والتسويق التقليدى فقط قياسا على مجددى العصر المـاضى ، وظلوا على هذا الأمر بينما الزمان راح ومضى من حيث جاء حين كان الأسلوب الأول هو استخدام القوة لتحطيم شاكلة الزمن ، لأنه اذا لم تتحطم المشكلة فإن الإسلام لا يمكن أن يحتل مكانه الصحيح فى الوقت الحاضر .

ماذا يجب علينا أن نفعل لتحطيم شاكلة الزمن ؟ هناك مثال على ذلك وهو الاشتراكية ؛ فقبل الاشتراكية الجديدة كانت الدنيـا كلها تعترف باحترام الملكية الفردية فى جميع الأحوال ولم يكن لأحد أن يتصور سلب شخص ما ملكيته الخاصة فمن يفعل هذا من الناس فهو فى نظرهم غاصب وظالم ، إلا أن هذه الشاكلة الاقتصادية تحطمت اليوم . وأصبح هناك ما يسمى « بالمصلحة الاجتماعية » التى احتلت أهميـة تفوق الملكية الفـردية ، وأصبح من المسـلم به أنه من حق الحكومة أن تنزع ملكية من تشاء كما تشاء باسم المصلحة الاجتماعية .

« عن أبى هريرة قال : قال رسول الله ﷺ : لايزال النـــاس يتساءلون حتى يقال هذا « خلق الله الخلق فمن خلق الله » فمن وجد فى نفسه شيئا من ذلك فليقل آمنت بالله تعالى »(١) •

كانت هذه هى التنبؤات الخاصة بالدور التالى حين تتحطم القاعدة المسلمة عن « الخالق » وبدلا من أن يتوقف الأمر إلى حد الشرك بالله ينكر أهل الدنيا الإيمان بالله وحينئذ يكون من واجب أهل الايمان ان يجعلوا من عقيدة الخالق حقيقة علمية مسلمة من جديد ، وأن يعملوا على هدم الأساس الفكرى للالحاد بكل مالديهم كما انهدم أســاس الشرك فى القرن الأول •

بعد الثورة العلمية الجديدة بدأت فترة تاريخيــة تحطمت فيها الشاكلة الإنسانية مرة ثانية وحلت شاكلة جديدة محل الشاكلة القديمة ، شاكلة تقوم بأكملها على أساس الالحاد • ومع ان بداية هــذا العصر الجديد ظهرت مع النهضة الأوربية الثانية إلا أنها كانت ملموسة بشكل واضح منذ القرن الثامن الهجرى ، وهكذا مر على دور الالحاد هذا مئتا سنة تقريبا •

وفى الزمان القديم كان هناك أناس لا يؤمنون أيضا بالله ولا يؤمنون بالدين ، ولكن كفرهم كان كفراً فرديا ، بينما الكفر فى العصر الحديث اكتسب مقام العلوم والبحث العلمى ، واكتشفت العلوم الطبيعية أن العالم كله قائم على أصول الأسباب والعلل ، وأن هــذه الأصول محكمة بقدر ، وأنه يمكن استخدامها إذا ما تعرفنا عليها ، وفى عالم العلوم رسخت فى الأذهان فكرة فحواها أنه لا حاجــة لإله لتحريك الكائنات وهى بذاتها تمضى طبقا لقوانينها الذاتية ، واكتشافات التطور فى علم الأحياء أرشدت الإنسان الى أنه لا ضرورة للايمان بالخالق

---

(١) صحيح مسلم : كتاب الايمان .

وهكذا بدأ عهد جديد فى تاريخ البشرية ، فالعلم كله الذى قام على أساس الكفر قبل ذلك ، خضع لتأثير التوحيد ، وأخذت الدنيا ترهبه ، بجميع أديانها ومدارسها الفكرية ، وجميع حركاتها ، وفى دائرة الدين انتشر العديد من البراهمة والبابوات فى كل مكان وصار قادة الدين هؤلاء أربابا ، إلا أنهم أصبحوا بعد انتشار عقيدة التوحيد بشراً يساوون جميع البشر ، وهم عند الله عباده ، وهكذا تم القضاء على عبادة البشر وبدأ عصر عبادة الله . وأصبحت مظاهر الكون التى يقدسونها قبلا عبارة عن مخلوقات لله ، ومن هنا ظهرت لأول مرة فى التاريخ فكرة استغلالها ، وكانت البداية فى بغداد وقرطبة وصقلية ، ثم وصل الأمر بعد ذلك إلى أوروبا فكان أساسا للثورة العلمية الحالية .

وفى مجال السياسة كان أفراد الأسرة الحاكمة اشخاصا مؤلهين ، وبعد انتشار عقيدة التوحيد بدأ الناس يعتبرونهم كعباد الله ، وهكذا ظهر فكر سياسى جديد ، وضع على أساس الشورى ووصل فيما بعد إلى أوربا فنما وتطور وظهر فى صورة الجمهورية وثورات التحرير .

واستمرت تلك الفترة التى بدأت مع الإسلام وامتدت حتى النهضة الأوربية الثانية لألف سنة كاملة ، والمجددون الذين ظهروا فى الأمة الإسلامية ابتداء من عمر بن عبد العزيز (٦٨٢ — ٧٢٠) إلى الشيخ أحمد سرهندى (١٥٦٤ — ١٦٢٥) ظهروا جميعا فى تلك الفترة ، كان امامهم عالم هزمته شاكلة غير إسلامية ، وكان ضلال الناس فى ذلك الزمان نوعا من الغفلة أو الخيال ولم يكن نوعا من العصيان ، ومن هنا فقد أثمرت محاولات المجددين بالتذكير والنصيحة العامة فقط ، وحين كانوا يدعون الناس إلى الإسلام كانت شاكلة الزمان تساعدهم .

جاء فى حديث شريف :

والمحاولات التى بذلها اليهود لتحطيم هـذه الشاكلة توجـد بالتفصيل فى السـور الأولى للقـرآن الكريم ، ويواجـه التاريخ الإسلامى الحديث قضية « الشاكلة » أيضا فكما توجد للأفراد شاكلة أيضا ، توجد للأمم شاكلة ، فالأمم تمضى على شاكلتها (على بنائها الفكرى) وطبقا لهذه الشاكلة تقرر ترك الأمور أو اتباعها .

فى القرن السابع الميلادى حين بعث نبى الإسلام ﷺ ، كانت شاكلة العرب قائمة على أساس الشرك ، وكانت هذه الشاكلة رائجة فى كل مكان ابتداء من بناء الأسرة إلى الخطط السياسية ، وفى هذا المناخ الاجتماعى تمكنت عقيدة التوحيد من ايجاد متنفس لها حين حطمت شاكلة الشرك هذه .

لقد جاهد نبى الإسلام ﷺ جهاداً عظيماً ، وحطم هذه الشاكلة، وبطريقة كاملة قامت هذه الشخصية التى تمتعت بكل صفات العظمـة بتوحيد جميع القوى على هذا الاساس ، فقدم مثالاً عظيماً على طريق الإخلاص والتضحية والجـد والجهـاد وهو ما كان يلزم للتأثير فى الناس ، وبعدها بدأت النتائج فى الظهور ، فقد تغيرت العقول الفردية فى البداية ، ثم قبلت بعض القبائل هذا التأثير بصورة كلية ، ثم كان يوم فتح مكة (٨ هـ) حين تحطمت أصنام جميع القبـائل وجميع المعتقدات ، تلك الأصنام التى وضعت فى مركز العرب (الكعبة) ، وهكذا تحطمت بصورة نهائية الشاكلة المشركة . وكانوا يعتقدون أن محمداً كان يحقر هذه الألهة التى كانت طبقا لاعتقادهم تسيطر على نظام الأمور ولهذا فلابد أن ينزل عقاب تلك الألهة عليهم وعلى العكس من هذا حين شاهدوا خاتمة أربعمائة صنم تحل ، ولم تنفجر السماء ولم تتزلزل الأرض ، تأكدوا أنه لا حقيقة لها ، وهكذا حطم الفتح هذه الشاكلة نهائيا ، وبدأ الناس يدخلون فى دين الله افواجاً (١) .

---

(١) النصر : ٢ .

الصدفة ، بل الحقيقة هى تلك التى علمها عند الله والتى أوضحها فى كتابه الكريم :

« قل كل يعمل على شاكلته فربكم أعلم بمن هو أهدى سبيلا » .

(الاسراء — ٨٤)

والمثال الذى نقدمه هنا يتعلق باليهود ، فاليهود يلاحظون إن الأنبياء يظهرون من نسل اسرائيل فرسخ فى اذهانهم أن النبوة هى جزء من أسرة إسرائيل ، وحين بعث نبى آخر الزمان من الفرع الإسماعيلى لسيدنا ابراهيم ، لم يكن هذا أمراً مقبولا لديهم وذلك بسبب عقليتهم ومخيلتهم وما رسخ فى أذهانهم ، فأنكروا الاعتراف « بالنبى الإسماعيلى » ، ولم يفهموا ذلك السر ، وهو أن النبوة ليست حكراً على أسرة ، فهذا هو دين الله يعطيه من يشاء .

« أم يحسدون الناس على ما آتاهم الله من فضله فقد آتينا آل إبراهيم الكتاب والحكمة وآتيناهم ملكا عظيما » (١) .

وهكذا فالدين الذى كان اليهود يعرفونه هو الدين الذى يعطى القرابين التى تأكلها النار ، ولم يفهموا قرابين الذبائح التى يأكلها الناس ولا تأكلها النار ، لم يكن هذا الأمر مقبولا لشاكلتهم الدينية ولم يكن مفهوماً لديهم كيف يؤمنون بمن يدعى الرسالة ولا يعلمهم القرابين التى تأكلها النار .

« الذين قالوا إن الله عهد الينا الا نؤمن لرسول حتى يأتينا بقربان تأكله النار » (٢) .

---

(١) النساء : ٥٤ .

(٢) آل عمران : ١٨٣ .

عليه ، وهى الطاقة التى لا يمكن أن تقف أمامها البحار أو الجبال او البندقية أو المدفع .

وإذا ما وضعنا الحركات التى ظهرت فى زماننا الحديث على هذا المحك ونظرنا إليها من وجهة النظر هذه ، فإن أيا منها لا يرقى أبداً إلى هذا المستوى الذى يجب أن تكون عليه حركة الدعوة الحقيقية، إذ كانت هذه الحركات حركات إسلامية سياسية وليست حركات إسلامية تبليغية تهدف إلى الدعوة للدين الحق ؛ فكل حركة تقريبا جعلت من القضايا السياسية أساساً لكفاحها وجهادها ، بينما هدف حركة الدعوة هو جعل التبايغ أساساً للكفاح والجهاد ، وبعبارة أخرى فإن أية حركة من هذه الحركات لم تجعل بداية عملها من هذه النقطة التى كان ينبغى حقيقة أن تبدأ منها . والسفر إن لم يتجه أولا نحو الوجهة الصحيحة فلن يمكن لصاحبه الوصول إلى هدفه ، والضرر الثانى لأسلوب هذه الحركة هو أن من تأثروا بالإسلام من خلالها ظهر لديهم مزاج سياسى يشبه مزاج الحركات الدنيوية العامة ، بينما الإسلام الصحيح هو أن يظهر لدى الإنسان مزاج حب الآخرة، والنتيجة الواضحة أن الإسلام لم يظهر بطريقة حقيقية واضحة عن طريق هذه الحركات الحديثة ، لا على المستوى الاجتماعى ولا على المستوى الفردى .

الشاكلة :

القضية الثانية هى قضية الشاكلة ، فطبقا لأسباب خاصة يبنى كل شخص وتبنى كل أمة الاسلوب الفكرى الذى يفكر به الشخص أو ترتكز عليه الأمة وبناء عليه يؤمن الإنسان بصحة الأشياء أو عدم صحتها ، وينسى تماما فى معظم الأحول أن الحقيقة ليست هى تلك الحقيقة المرسومة فى مخيلته والتى اتخذت شكلها الخاص بمجرد

دخل محمد بن القاسم سنة ٧١٢ م منطقة باكستان الحالية ، ويرى المؤرخون أن مؤسس الدولة الإسلامية فى شبه القارة الهندية هو شهاب الدين محمد الغورى الذى فتح ملتان سنة ١١٧٥ م ، وخضعت له جميع منطقة شمال الهند فى سنة ١١٩٢ م ، وبعد فترة زالت الامبراطورية المغولية التى استمرت لفترة طويلة تحكم فى الهند (١٨٥٧ م) وذلك حين حاول المسلمون أن يحققوا النصر فى هذا البلد . عن طريق السياسة والسيف . وحين قامت الثورة تحطم قصر عظمتهم وكأنما لم يكن له وجود من قبل .

وتاريخ اسبانيا أكثر إيلاماً من كل هذا ، فقد ظل الحكم الإسلامى قائما بها لسبعمائة سنة (٧١١ — ١٤٩٢ م) وهناك أبدع المسلمون فى النواحى المادية المتطورة ابداعا لم تشهده الإنسانية كلها فى ذلك الزمان ، حتى أن المسيحيين الذين هزموا المسلمين وأخرجوهم من اسبانيا كانوا قد تخلفوا عن المسلمين بدرجات كثيرة فى الرقى المادى ، أقام المسلمون فى تلك الفترة عدة مراصد لدراسة الفلك ، يقول دريبر (١٨٠٠ — ١٨٨٢) عن مرصد إشبيلية : بعد خروج المسلمين Moors من اسبانيا تحول هذا المرصد إلى برج لأجراس الكنيسة ، لأن أهل اسبانيا لم تكن لديهم دراية بطريقة استخدامه ورغم هذا التفوق المادى خلت اسبانيا من المسلمين حتى انه لم يعد لهم من أثر يذكر سوى بعض الأطلال الحزينة .

تكفى هذه التجربة التاريخية لإثبات أن الأصول الإسلامية إنما تقوم على حكمة سامية فائقة تتمثل فى أن نقطة بداية الكفاح الإسلامى كانت دائما « الدعوة » وقد أعطى للدعوة وللتبليغ مقاماً وكأن الدعوة هى أصل الخيط إذا ما أمسكنا به تمكنا من تحقيق النجاح والسيطرة على الحياة كلها ، وهي مفتاح قهر العدو والغلبة

عن طريق الرقى المادى (الأندلس) * .

وظلت للاسلام الغلبة الدائمة فى المناطق التى دخلها عن طريق الدعوة ، ولم تغير هذه الأمم العــادات والتقليد فقط التى راجت فيها قبل الإسلام ، بل اصطبغت لغتهم وحضارتهم واصطبغ المجتمع كله بصبغة إسلامية .

يقول سير آرثر كيث ** الذى درس تاريخ مصر :

« كانت نهاية الامبراطورية البيزنطية وقيام الدولة العربيــة فى مصر حين انتصر أقل من خمسة عشر ألف جندى من الجنود العرب، بينما كان عدد المصريين يعد بالملايين ، فالفتح العربى لمصر لم يكن بالسيف بل كان بالقرآن ، اذ تعلم المصريون قراءة القرآن ودرسوه وبدأوا فى تعلم اللغة الجديدة أى اللغة العربية ، لقد جعل القرآن المصريين يتكلمون اللغة العربية » (١) .

وكتب (لوبون) عن الموضوع نفسه :

« حكم الإيرانيون واليونان والرومان وادى النيل ، إلا أنهم لم يتمكنوا من إحلال حضارتهم محل الحضـــارة الفرعونية ، ولكن العرب جعلوا من مصر بلداً عربياً مسلما ، كان لدى الأمم الأخرى قوة السيف فقط ، ومن هنا لم يتمكنوا من إيجاد أى تأثير يتعدى تأثير القوة العسكرية ، وعلى العكس من هذا كان لدى العرب قوة القرآن، وفتحت هذه القوة أذهان المصريين حتى أنها بدلت دينهم وحضارتهم ولغتهم وكل شىء لديهم » .

---

* فى الأصل اسبانيا .

** (١٨٦٦ - ١٩٥٥) .

(١) Sir Arther Keith, Anew theory of Human Evolution. London 1950, p. 303.

« تباً لك سائر اليوم !! ألهذا جمعتنا ؟! » (١) .

فأبو لهب رأى أنه لا علاقة لهذا الخطاب بالقضايا التى تتعرض لها الأمة الإبراهيمية العربية ، ولم يفهم نقطة البداية هذه كمنطلق يمكن أن يكون السبيل لتحقيق الأمل فى نهضة الأمة العربية أمام الأمم الأخرى ، ونقطة البداية هذه أو الأساس الأول إنما هو بدء التبليغ : تبليغ العقيدة الصحيحة . ومن هنا فالأساس المحمدى يعنى أن عملية « الإنذار والتبشير » هى نظرية العمل الأول الأساسى لإحياء الأمة ، وأن مقام أبى لهب هو الاستماع إلى ما سبق والقول ردا عليه : (أهذا برنامج ؟!) .

ان السؤال الأساسى دائما فى طريق الجهاد هو من أين يبدأ الجهاد ؟ وهو السؤال نفسه الذى يتعلق بالبعث الإسلامى ، وللاجابة على السؤال يلزمنا البحث عن الخيوط المناسبة التى تجمع بين الظروف المختلفة ، والتى يمكن عن طريقها أن نمسك ببقية الخيوط تلقائيا ... ولقد حدد لنا القرآن البداية الوحيدة ألا وهى الدعوة ، وهذا ثابت وواضح : [**يا أيها المدثر قم فأنذر**] وبناء على هذا كانت حياة النبى ﷺ [**إنما أنت مذكر لست عليهم بمسيطر**] (٢) ، وطالما اتبع المسلمون هذا الطريق كان التوفيق حليفهم وحين عارضوه وانحرفوا عنه تعرضوا للفشل الذريع فى النهاية .

والأمثلة التى يشهدها التقدم الإسلامى فى التاريخ اللاحق يمكن تقسيمها إلى ثلاثة أقسام كبيرة :

عن طريق الدعوة (مصر كمثال على هذا) .

عن طريق السياسة (الهند كمثال على هذا) .

---

(١) المشكاة : باب الانذار والتحذير .

(٢) الغاشية : ٢١ — ٢٢

فواضح من أقوال الفاروق الأعظم رضى الله عنه أن ثلاثمائة رجل يكفون لإحداث ثورة ، فإذا ما وصل هذا العدد إلى اثنى عشر ألف رجل فلا يمكن أن ينهزم أمام أى فريق آخر مهما وصل عدده ، وذلك نتيجة لقلة فى العدد ، إلا أنه فى زماننا الحاضر نشاهد فى كل جماعة إسلامية قائدا مسلما ومئـات الألوف من الأخـوة والزملاء ، إلا أن هذه الجماعات لم تضف للتاريخ الإسلامى سوى الفشل ، وهـذا إن دل على شىء فانما يدل على أن هناك نقصا أساسيا بالتأكيد فى حركات تلك الجماعات أو الأشخاص وهذا النقص جعل النتيجة تأتى على عكس ما أرادوا رغم وجـود الإخـلاص وتوفره لديهم ورغم الاستعداد لبذل جميع التضحيات .

الأســاس الأول :*

إن إدراك القضية التى تتعلق بهذا الأمر يجب أن يتم من أولها، ويمكن أن يبدأ حل هـذه القضية بالكفاح والجهـاد من أجل إحيـاء الـدين .

حين أمر الله نبى الإسلام أن يعلن على الملأ دعوة الحق ، صعد الصفا ونادى فى أهل مكة ، وكانت هذه هى الطريقة المعتادة لتقديم أى إعلان قومى خاص فى مكة .

تجمع الناس فخطب فيهم :

« إنكم لتموتن كما تنامون ولتبعثن كما تستيقظون وإنها لجنة أبداً أو لنار أبداً » [1] .

وكأن بداية الكفاح لإقامة الدين الإلهى كانت من هنا أى إطلاع الناس على حقيقة الحياة ، إلا أن أبا لهب لم يفهم هذا كله فقال :

---

* او (البداية الاولى) .

(١) جمهرة خطب العرب .

وكان استيلاء الغرب على العالم الإسلامى أول حادث من نوعه فى التاريخ كله . وكانت الحملات السابقة قد خلفت قضايا دفاعية فقط للعالم الإسلامى ، أمكن حلها عن طريق نجاح الوسائل الدفاعية، وحين تعرض العالم الإسلامى للقضية الحالية تم استخدام جميع إمكانيات القوى الدفاعية قياساً على الماضى ، بينما كان الهجوم يختلف تماما عن الحملات السابقة ، ولهذا كان من الضرورى اكتشاف استعدادت أخرى قبل الإجراءات الدفاعية لمواجهة هذه الحملات . إلا أن هذا الفرق لم يمكن فهمه فى حينه ، وكانت النتيجة ضياع جميع إمكانيات القوى الدفاعية التى اتخذت فى ذلك الوقت . هذا بالإضافة إلى أن الدعوة إلى الإسلام قد نسيت وسط ضوضاء الحرب الدفاعية ، وهى من ناحية الأصول الإسلامية من أولى وأهم الفرائض التى تقع على المسلمين دائما .

فى السنة السادسة للبعثة حين أسلم عمر الفاروق رضى الله عنه ذهب إلى المسجد الحرام وأعلن إسلامه وقام أهل قريش بملاحقته وظلوا يعارضونه لفترة طويلة ، وفى النهاية خاطبهم قائلا :

« افعلوا ما بدا لكم فوالله لو قد كنا ثلاثمائة رجل لقد تركناها لكم أو تركتموها لنا » (١) .

وبعد أربع عشرة سنة من البعثة أثبتت غزوة بدر صحة الحديث السابق . كتب عمر رضى الله عنه أثناء خلافته إلى عمرو بن العاص وكان أرسله إلى مصر فى ذلك الوقت لفتحها وتأخر الفتح :

« واعلم أن معك اثنى عشر ألف رجل ولا يغلب اثنا عشر ألفا من قلة » (٢) .

---

(١) البداية والنهاية ، مجلد ٣ ص ٨٢ .

(٢) كنز العمال ، مجلد ٣ ص ١٥١ .

الحركات الإسلامية فى العصر الحديث

طبقا للحديث المشهور نفهم أنه سيظهر فى الأمة الإسلامية فى كل عصر أناس « يجددون للأمة الإسلامية دينها » . وقد ثبت هذا طوال تاريخ الأمة الإسلامية وهذا هو الذى جعل بقاء الدين مكفولا فى هذه الأمة .

ونحن نواجه الآن سؤالا مؤداه هو : لماذا لم تظهر فى زماننا الحاضر نتائج محاولات التجديد التى ظهرت فى الماضى ؟ لقد حقق المجددون الذين ظهروا فى الماضى نجاحا وتوفيقا فى محاولاتهم لدرجة أن الإسلام انتشر على وجه البسيطة لمدة تزيد على الألف سنة فى مساحة امتدت من حدود الصين الى السواحل الغربية لافريقيا ممثلة رقعة العالم الإسلامى ، وغلبت الأفكار الإسلامية وانتشر المنهج الإسلامى بين الناس سواء من الناحية الفكرية أو من ناحية أسلوب الحياة أو أصول المعاملات ، وأصبح الفكر الإسلامى هو معيار الحق والباطل أى أصبح معيار كل الأمور فى الحياة ، حتى طبع الإسلام جميع نشاطات الحياة وصبغها بصبغته ، وكانت كلمة المحدث أو الفقيه أهم من أوامر ملك ذلك الزمان .. وفى زماننا الحديث نشاهد العكس تماما ، ظهر العديد من المصلحين ، وقادوا محاولات تجديد على نطاق واسع ، وهم من ناحية الكم زادوا كثيرا على عدد جميع المجددين السابقين فى مجموعهم ، إلا أن الأمر المحير أنهم لم يغيروا وضع المسلمين المتدهور ، فلا تزال غلبة الثقافة والحضارة الجاهلية على خريطة الحياة تزيد يوما بعد يوم حتى انه حين بدأ التجديد قبل مائتى سنة أى فى العصر الحديث كان حال الإسلام أحسن مما هو عليه الآن ، فقد تقهقر الإسلام كثيرا اليوم عما كان عليه من قبل .

مكة (أبى سفيان) من ناحية ، ومن ناحية أخرى اعلن أن « من دخل دار أبى سفيان فهو آمن » . وكانت النتيجة قيام أبى سفيان نفسه بتوجيه نداء للناس فقال « أيها الناس ، أطيعوا محمداً ، لا طاقة لأحد هنا بمواجهته . وقد اثبتت احداث ما بعد الفتح أن هذه الاستعدادات الضخمة لم يكن المقصود منها إراقة الدماء فى مكة بل كان القصد منها ارهاب أهل مكة حتى يسيطر المسلمون على مكة بدون إراقة دماء، وقد وصل قائد جيش المسلمين سعد بن عبادة بالقرب من مكة وصاح : « اليوم يوم الملحمة » . فقال ﷺ : « لا اليوم يوم الرحمة » وعزله عن القيادة وسلم الراية لابنه قيس .

ورغم حدوث بعض الغزوات الصغيرة بعد فتح مكة — وقد وصل عددها (صغيرها وكبيرها) إلى ثمانين غزوة — فإن فتح مكة كان بمثابة السيطرة على عاصمة البلاد ، وهكذا اعترف العرب جميعا بقيادة محمد ﷺ .

أن أبا بكر نفسه لم يكن يعرف ما هدف هذه الاستعدادات . وفى بداية رمضان سنة ٨ هـ حين بدأ الجيش الإسلامى يتوجه إلى مكة بأمر من رسول الله ، عرف الناس هدف هذا السفر الذى تم بصمت حتى وصل الركب إلى « مر الظهران » (ولم تعلم به قريش) وقد دعا النبى ﷺ الله قبل التحرك قائلا :

« اللهم خذ العيون والأخبار عن قريش حتى نبغتها فى بلادها » .

أعد النبى ترتيبات مذهلة للاستعداد لهذه المهمة فقد أمر بقطع الصلات بين المدينة وخارجها تماما ، فلا يدخلها شخص من الخارج ولا يسمح بخروج شخص من المدينة إلى خارجها ، وتتور أن يشرف بعض الناس على الطريق بقيادة على بن أبى طالب وقد قبض الناس على (قاصد) هو حاطب بن أبى بلتعهواكتشفوا معه الخطاب المشهور (وفى كل القبائل عدد وسلاح)(١) .

وخرج المسلمون جميعهم . (لم يتخلف منهم أحد) ورتب ﷺ نظام السير فقسم الجيش الذى وصل قوامه إلى عشرة آلاف إلى مجموعات مختلفة ، وعين لكل مجموعة قائداً يحمل راية ويتقدمهم ، وخلفهم مجموعات من مئات الرجال تمشى فى صفوف ، وقال لعمه العباس : « اجعل أبا سفيان يشـاهد منظر الجيوش ، قال ﷺ : « أجلسه بمضيق الوادى عند خطم الجبـل حتى تمر به جنود الله فيراها(٢) .

وظل جيش المسلمين يمر صفا بعد صف وأبو سفيان يشـاهد المنظر متحيراً دهشاً حتى نطق قائلا : (من له بهؤلاء طاقة ؟! لم أر كاليوم جنوداً قط ولا جماعة) . وهكذا أثر الرسول ﷺ فى قـائد

(١) الطبرانى عن ابن عباس .

(٢) تهذيب سيرة ابن هشام ، مجلد ٢ ص ٦١ .

العرب حرجا أن يدخلوا الإسلام فإن ذلك لا يغيظ قريشا ولا يعتبر تحديا لها (١) .

يروى البخارى عن براء أنه قال للناس فيما بعد إنكم تعدون فتح مكة انتصارا إلا أننا نقول : إن صلح الحديبية هو الانتصار (ما كنا نعد الفتح إلا يوم الحديبية) .

وطبقا لهذه المعاهدة انتهى الحصار الاقتصادى للمدينة وكانت قوافل تجارة المدينة تمر بحرية من مكة وأبى بصير وأبى الجنـــدل وغيرها وقد اضطروا إلى العودة إلى قريش طبقا للمعاهدة « هربوا ووصلوا إلى « ذو المروة » وهناك تجمعوا مع أمثالهم من المســلمين حتى أنهم كونوا بذلك مركزا ، وأقلقوا القوافل التجارية لقريش حتى قضوا بأنفسهم على هذه المادة من المعاهدة .

إن من أكبر عوامل الضعف البشرى العجلة وحب الظاهر ، فإذا ارتفع الانسان عن هذا فان الله تبارك وتعالى يهبه فى الدنيا ما يضمن له الوصول إلى التوفيق والنجاح .

أخرج بن عساكر عن الواقدى قال : كان أبو بكر الصديق رضى الله عنه يقول : ما كان فتح أعظم فى الإسلام من فتح الحديبية ولكن الناس يومئذ قصر رأيهم عما كان بين محمد وربه والعباد يعجلون والله لا يعجل كعجلة العباد حتى يبلغ الأمر وما أراد » .

إن « الواقعية » هى أعظم توفيق وأعظم نجاح فى هذه الدنيا وهى ضمان الوصول إلى النجاح والتوفيق .

بعد الفراغ من خيبر بدأ ﷺ استعداداته لمهمة أخرى إلا أنه لم يخبر احداً أبدا بمقصده أو ضد من كان يعد هذه الاستعدادات حتى

---

(١) محمد صلى الله عليه وسلم وبنو اسرائيل ١٠١ — ١٠٢ .

وقعت بين القبيلتين فى (شعبان سنة ٨ هـ) ، وكان هذا يتعارض صراحة مع معاهدة الصلح ، وكانت هذه الواقعة بعد صلح الحديبية بسنتين ، وكان من نتيجة الصلح انتشار الإسلام لدرجة أن أتباع الرسول ساعة صلح الحديبية كانوا لا يتعدون ١٥٠٠ رجلا ، ولكنهم وصلوا الآن إلى عشرة آلاف .

خرج رسول الله فى صمت ، وبحكمة تحرك لدرجة أن فتح مكة تم تقريبا بدون إراقة دماء .

« وعدكم الله مغانم كثيرة تأخذونها فعجل لكم هذه وكف أيدى الناس عنكم » . (الفتح ـــ ٢٠) .

كان الوضع أثناء عقد المعاهدة فى صالح الإسلام إذ انتشر صوت الإسلام فى أرجاء الجزيرة العربيـــة نتيجة لحركة الدعـــوة الإسلامية الجادة المتواصلة التى استمرت قرابة عشرين سنة ، ووجد فى كل قبيلة عدد من الناس تفتحت قلوبهم لصدق الإســـلام إلا أن قريشاً التى ملكت قيادة العرب وزعامتهم دأبت على منع الناس من إعلان الإسلام ، فإعلان الإسلام كان يعنى الدخـــول فى حرب مع قريش . وبعد معاهدة الحديبية وحين عرف الناس أن « معاهدة عـــدم الاعتداء » هذه مستمرة لعشر سنوات بين قريش والمسلمين ، زال عنهم ذلك الخطر ، وبدأوا فى دخول الإسلام ، وتدفقوا إلى حظيرته فما أشبههم بمن انطلق حين رأى اخضرار إشارة المرور التى ظلت أمامه حمراء لفترة طويلة .

قال الفقيه بن شهاب الزهرى وغيره إن الله فتح على المسلمين بصلح الحديبية أكثر مما فتح الله عليهم به من أى غزو آخر بدليل أن النبى ﷺ رجع إلى مكة عام الفتح بعشرة آلاف ولم تكن عـــدته من قبل لتزيد على ثلاثة آلاف بحال ، وعلله بأنه لما هادن قريشا لم يجد

اليهودية إلى الأبد ، وكانت الواقعة الأولى فى ذى القعدة سنة ٦ هـ ، والثانية فى محرم سنة ٧ هـ .

كان لليهود ثمانى قلاع حجرية فى خيبر ، جمعت فيها معدات حربية لم تكن متيسرة لدى المسلمين على الإطلاق ، وقد اختاروا لتعضيد وتقوية هذه القلاع نفس الأسلوب الذى اشتهر به المارشال دايان المهندس العسكرى الفرنسى فى سنة ١٧٠٠ م * .. فكيف كان يمكن فتح هذه القلاع ؟ هذه فى حد ذاتها قصة طويلة ، إن الحكمة العملية العسكرية التى اتبعت بهذه المناسبة اقتضت أن يقوم خمسون رجلا بحمل شجرة ضخمة ثقيلة يجرونها ليضربوا بها بوابة القلعة بشدة ، وبعد تكرار هذا الضرب المستمر تحطمت بوابة القلعة ، واقتحمها المسلمون ، ووجدوا أنفسهم وسط فيضانات من السهام بالإضافة إلى استخدام المنجنيق ، وتم للمسلمين السيطرة على أربع قلاع . وحينئذ هرع أصحاب القلاع الأخرى وفتحوا أبوابهم وسلموا أنفسهم للجيش الإسلامى .

وهكذا تم إخضاع خيبر ، وظلت قضية قريش مكة قائمة ، وأرشدت الهداية الربانية النبى ﷺ إلى أن الطريقة المثلى هى إعطاء فرصة للعدو ليرتكب خطأ حتى يسمح له بعد ذلك بالتدخل .

كان النبى يعرف أن ما يثير قريشا ضد الإسلام ما هو إلا الحسد والبغض وحب السيطرة . ومن يعارض انطلاقا من هذه النفسية ، لا يمكن أن يتورع عن ارتكاب أى عمل غير منطقى وغير أخلاقى ، وأثبت هذا التقدير صحته تماماً ، فارتكبت قريش خطأ بحمايتها ومساندتها — بصورة غير مباشرة — لقبيلة (بنى بكر) حليفتهم وذلك ضد قبيلة (بنى خزاعة) حليفة النبى ﷺ ، وذلك فى الحرب التى

---

* عاش (١٦٣٣ — ١٧٠٧ م) .

أشوابا من الناس خليقا أن يفروا ويدعوك) غضب عندئذ أبو بكر — وكان حليما — وانطلقت منه هذه العبارة : (امصص بظر اللات ! أنحن نفر عنه وندعه ؟) .

الا أن رسول الله ظل يتحمل هذه الأمور المثيرة كلها ووافق على جميع مطالب قريش ، ووافق على عقد معاهدة عدم اعتداء مع قريش لمدة عشر سنوات . وهكذا أصبحت قريش ملتزمة بعدم الاشتراك فى أية حرب ضد المسلمين سواء بطريق مباشر أو غير مباشر .

وكانت هذه المعاهدة شديدة الوقع على المسلمين لدرجة أنه بعد استكمالها وحين طلب النبى من المسلمين نحر أضحياتهم لم يتحرك أى شخص رغم أنه كرر الطلب ثلاث مرات : وبعدها قاموا والحزن يسيطر عليهم إلى حد أنه بعد تقديم أضحياتهم (جعل بعضهم يحلق بعضا حتى كاد بعضهم يقتل بعضا غماً) . إلا أن هذه المعاهدة التى تمت بالضغط على المسلمين كانت لها فوائد عظيمة الشأن لا يمكن أن تحصى .

ففى الظروف التى تم فيها صلح الحديبية كان المسلمون يواجهون جبهتين : الأولى يهود خيبر ، والثانية قريش مكة ، ولم تكن قوة المسلمين تسمح لهم بمواجهة الجبهتين فى وقت واحد لأن الهجوم على إحداهما يعنى إعطاء فرصة للجبهة الأخرى للقدوم من الخلف ودخول المدينة والقضاء على مركز المسلمين . ومن هنا كانت موافقة النبى على جميع مطالب قريش مكة ورضى بمعاهدة (عدم الاعتداء) هذه لمدة عشر سنوات ، وهكذا أوقفهم فى (بطن مكة) (الفتح : ٢٤)[1]، وبعدها عاد إلى المدينة وهجم على خيبر فى أول فرصة وحسم القضية

---

(١) يشير الى قوله تعالى : « وهو الذى كف أيديهم عنكم وأيديكم عنهم ببطن مكة من بعد أن أظفركم عليهم » .

لدرجة أنهم يتحركون جميعا بإشارة من محمد وشاهد أحد رسل قريش النبى ﷺ وهو يتوضأ فيهرع المسلمون يأخذون بأيديهم الماء الذى يتساقط من بين يديه قبل أن يسقط على الأرض ، وهو حين يتكلم تسكت جميع الأصوات ، وهم — من الأدب والاحترام والتعظيم — لا ينظرون حتى إليه ، وعاد هذا الرسول إلى قريش فذكر لهم هذا الوفاء وهذه المحبة التى ملأت قلوب المسلمين ، فخافوا وهلعوا، وحين وصلت الرسالة المذكورة إلى قريش — وقد حملها بديل بن ورقاء الخزاعى — خطب فيهم رجل يدعى عروة بن مسعود فقال : (أى قوم ، ألستم بالوالد ، قالوا : بلى ، قال : ألستم بالولد ، قلوا : بلى ، قال : فهل تتهموننى ؟ قالوا : لا ، قال : فإن هذا قد عرض عليكم خطة رشد ، اقبلوها ودعونى آتيه) [1] .

أعلن النبى ﷺ أنه سيقبل ما تطلب قريش (والذى نفسى بيده لا يسألونى خطة يعظمون فيها حرمات الله إلا أعطيتهم إياها) ، وهكذا حين بدأوا يكتبون معاهدة عدم الاعتداء ، بدأت حمية الجاهلية تظهر بجلاء ، فحذفوا من المعاهدة عبارة « محمد رسول الله » واستبدلوا بها عبارة « محمد بن عبد الله » وأصروا على كتابة عبارة « باسمك اللهم » بدلا من « بسم الله الرحمن الرحيم » . وأضيفت هذه المادة : إذا أسلم أحد رجال قريش فيجب الالتزام باعادته إلى قريش ، وعلى العكس من هذا : إذا عاد أى مسلم إلى قريش فلا يعاد مرة أخرى إلى المسلمين ، ولم يسمح بدخول المسلمين إلى مكة فى تلك السنة .

وكانت هذه شروطا صعبة جدا على الصحابة جميعا حتى أنه حين قال عروة بن سعد — فى احدى المناسبات : — « يا محمد هؤلاء الناس الذين تجمعوا حولك سوف يتركونك ويهربون » (إنى لأرى

---

(١) البداية والنهاية ج ٤ .

لقد أفادت هذه الرسالة فى الحقيقة من الفكر الموجود داخل قريش ذاتها ، ففى الدور المكى الاول حين قابل عتبة بن ربيعة (ممثل قريش) النبى ﷺ ، ثم عاد إلى قريش بعد حديثه مع النبى — طبقا لاحدى الروايات — كان من بين ما قاله لقريش :

(خلوا بين هذا الرجل وبين ما هو فيه واعتزلوه ، فوالله ليكونن لقوله الذى سمعت نبأ ، فإن تصبه العرب فقد كفيتموه بغيركم ، وإن يظهر على العرب فملكه ملككم وعزه عزكم وكنتم أسعد الناس به)(١) .

هذه الفكرة ذاتها كانت موجودة لدى قريش واستفاد منها النبى ﷺ ، وكانت النتيجة أنه وجد من بين أفراد الاعداء من يدافع عن وجهة نظره . وعندما أرسل النبى الرسالة إلى قريش بدأ التأثير عليها باساليب مختلفة ، خرج رجل من بنى كنانة من مكة ووصل إلى الحديبية حتى يعرف سبب مجىء المسلمين فأخبر الناس النبى بخبره ، فقال النبى إن قبيلة هذا الرجل تعظم التضحية بالجمال ، أيها الناس خذوا جمالكم (إبلكم) ضحيتكم واستقبلوه ، فأخذ المسلمون قافلة الجمال وهم يقولون : لبيك اللهم لبيك ، ويمرون أمامه ، فعاد هذا الرجــل إلى مكة متأثرا تماما وقال لقريش : إنا على يقين من أن المسلمين جاءوا بهدف زيارة الكعبة فقط فلا تعترضوهم .

وهكذا كان لهذه المظاهرة الايمانية الاسلامية التى يقودها ألف وخمسمائة مسلم تأثير شديد على أهل مكة .

أرسلت قريش رسولا وصل إلى الحديبية فوجد المسلمين مصطفين يصلون خلف النبى ﷺ فشاهد هذا الرجل انضباط الصلاة فأصابه الهلع وعاد إلى قريش وقال لهم : إن اتحاد المسلمين اتحاد قــوى

(١) البداية والنهاية ج ٣ .

أحدا منهم بمفرده لم يكن قادرا على التجرؤ على النيل من الإسلام ، ومن هنا قام الفريقان معا بحياكة المؤامرات ، للقيام بعمل عسكرى مشـــترك فيما بينهما ، هـــذا من ناحية ، ومن ناحيـــة أخرى لم يكن المسلمون فى وضع يمكنهم من مواجهة الخصمين معا فى وقت واحد .

فى وسط هذه الظروف قام النبى ﷺ وبتوجيه ربانى فى ذى القعدة سنة ٦ هـ بالتوجه إلى مكة مع ألف وخمسمائة من صحابته ، وأعلن أنهم لن يذهبوا لقتال أحد ، بل سيذهبون للعمرة ، وصحب معه أيضا قافلة تضم حيوانات الضحية ، حتى أنه أمر أن تعلق قلادة الضحية على الجمال طبقا للعرف السائد فى الجاهلية حتى يعرف أهل مكة جيدا أنه ورفاقه ذاهبون لزيارة الكعبة وتقديم الضحية . وكان لهذا الســـفر أيضا هدف آخر أساسى أراد أن يظهره النبى وهو القضاء على المكانة الدينية والتجارية للكعبة .

وصل النبى ورفاقه إلى الحديبية على مسافة أحد عشر كيلو مترا من مكة تقريبـــا ، وكما هو متوقع ، وصلت قريش وتقدمت لإيقافه ، وتفادى النبى ﷺ القتال ، وأقام معسكره فى ذلك المكان وأرسل رسالة إلى قريش ليعقد بينه وبينها معاهدة صلح ، وقد جاء فيها :

« إنا لم نجىء لقتال أحد ولكن جئنا معتمرين وإن قريشا قـــد نهكتهم الحرب وأضرت بهم فإن شاءوا ماددتهم مدة ويخلوا بينى وبين الناس ، فإن أظهر فإن شاءوا أن يدخلوا فيما دخل فيه النـــاس فعلوا وإلا فقد جموا وإن هم أبوا فوالذى نفسى بيده لأقاتلنهم على أمرى هذا حتى تنفرد سالفتى ولينفذن أمر الله » (١) .

---

(١) صحيح البخارى .

إنتشار الإسلام

أثارت هزيمة بدر قريشا مرة ثانية ، وخلال فترة بسيطة خاضت عدة معارك نذكر منها على وجه الخصوص أحد (٣ هـ) والأحزاب (٥ هـ) • وفى هذه الغزوات تعرض المسلمون لمصائب عديدة ، وقد ضمت غزوة الخندق ثمانمائة رجلا ، تعرضوا لحالة شديدة من البرد والجوع لذرجة أن النبى ﷺ أراد أن يرسل شخصا للتجسس على العدو ، فظل ينادى ثلاث مرات ، فلا يقوم أحد ، حتى انه ذهب إلى حذيفة رضى الله عنه ودعاه وعينه لهذه المهمة •

ومن ناحية أخرى فقد كان يهود المدينة يمثلون قضية داخلية مستقلة ودائمة ، فقد اتحدوا مع قريش وظلوا يحيكون المؤامرات ضد الإسلام والمسلمين •

بعد حصار الخندق الذى دام عشرين يوما ، اضطر جيش مكة إلى العودة بعد تعرضه لعاصفة شديدة ، ورأى النبى ﷺ أن يعاقب اليهود عقابا رادعا ويكشف مؤامراتهم وخروجهم عليه ، فأعاد قبائل المدينة (بنو النضير — بنو قينقاع — بنو قريظة) من الخندق وأجرى عليهم كتابهم التوراة، فقضى على مسألتهم إلى الأبد •

كانت هذه مسألة خيبر ، وفى السنة السادسة للهجرة كان وضـــع المسلمين هكذا : بين دار الإســـلام المدينةوبين قريش بمكة مســـافة أربعمائة كيلو مترا • وفى الشمال يهود خيبر على مسافة مائتى كيلو متر ، ورغم اتفاق كل من قريش واليهود على العداء للاسلام إلا أن

« وإنكم مهما اختلفتم فيه من شيء فإن مرده إلى الله عز وجل وإلى محمد » [١] .

وكانت هذه الصحيفة بمثابة إجراء سياسى حيث أعلن النبى ﷺ بحكمة من خلالها الحكومة الدستورية الإسلامية على المدينة .

وبعد وصول النبى ﷺ إلى المدينة ازداد غضب قريش بدلا من أن تهدأ . فقد رأت قريش المسلمين الآن وقد تجمعوا فى منطقة واحدة ودعموا مركزهم ، وفى السنه الثانيه للهجرة واجه النبى موقفا دقيقا وهو جيش قريش ، فقد كانت قريش تتحين الفرصة للدخول إلى المدينه وتحطيم كيان المسلمين الذى تأسس هناك ، ورغم أن جيش قريش كان حوالى ٩٥٠ مقاتلا فى حين كان الأفراد المسلمون القادرون على القتال حوالى ٣١٣ فقط فإن النبى أدرك أن اهل الشرك رغم كثرتهم لا يحملون بين جنباتهم سوى الحقد والنفور ، وعلى العكس من هذا فالمسلمون لديهم الإيمان واليقين وهذه ثروة عظيمة ، تفوق ما لدى المشركين من قوة ، هذا بالاضافة إلى أن العرب اعتادوا القتال فرادى فرادى لإظهار براعتهم الفردية وهذا نتيجة للنخوة الجاهلية التى سيطرت عليهم ، فكل فرد يود إظهار شجاعته هو ، أما المسلمون فقد قضوا على هذا التقليد بعد دخولهم الإسلام وقام الرسول ﷺ ولأول مرة فى تاريخ العرب بتعليم المسلمين خطط الدفاع ، وعلمهم ألا يميلوا إلى إظهار الكمال الفردى بل عليهم أن يحاربوا كجماعة ، وأن يهزموا القوى الفردية لقريش بقوتهم الجماعية (الصف ٤)[٢] ، وهكذا كانت الموقعة العظيمة التى نال فيها المسلمون النصر بقوة الإيمان ، وهى الموقعة التى يطلق عليها فى تاريخ الإسلام « غزوة بدر » .

---

(١) تهذيب سيرة ابن هشام ص ١٢٩ .

(٢) يشير الى قوله تعالى : « ان الله يحب الذين يقاتلون فى سبيله صفا كأنهم بنيان مرصوص » .

وهناك واقعة مشابهة لهذا النوع بعد خلافة أبى بكر تمثلت فى تسيير جيش أسامة ، فبعد وفاة النبى ﷺ أعلنت جميع القبائل العربية فى اطراف المدينة العصيان ما عدا قبيلة طىء ، وكان عدد المسلمين قليلا بالمقارنة بعدد المتمردين ، وكانت الضرورة تقتضى آنذاك الحفاظ على الطاقة لإخضاع العدو الداخلى ، ورغم أن عدد أعداء المسلمين كان لا يقارن من حيث كثرتهم بعدد المسلمين القلائل إلا ان الخليفة الاول قرر الاستمرار فى تنفيذ قرار النبى وأن يتوجه جيش أسامه الذى كان يضم سبعمائة فرد إلى الشام لمواجهة الروم ، وكان التأثير الذى تركه هذا القرار كبيرا وقد عبر عنه أبو هريرة بقوله :

« فجعل لا يمر بقبيل يريدون الارتداد إلا قالوا لولا أن لهؤلاء قوة ما خرج مثل هؤلاء من عندهم ولكن فدعهم حتى يلقوا الروم فلقوا الروم فهزموهم وقتلوهم ورجعوا سالمين فثبتوا على الاسلام » [١].

اذا ما صرفنا النظر عن الأقلية التى كانت مشركة بالمدينة حين وصل إليها النبى فإن أكبر جماعتين بها كانتا جماعة اليهود وجماعة المسلمين ، ثم جماعات أخرى صغيرة لا يضمها اى اتفاق ، وكان الناس من الناحية النفسية فى انتظار من يأتى ليقيم بينهم الاتحاد والتالف وليوجد بينهم النظام ويقضى على ما يحتاجهم من فوضى ، ورأى النبى هذا الحال فاصدر فى أهل المدينة صحيفة (ليست معاهدة) ، وفيها تم الاعتراف باليهود والمسلمين كامتين مستقلتين (إنهم أمة واحدة من دون الناس إن يهود أمة مع المؤمنين — لليهود دينهم وللمسلمين دينهم) ، وتم الاعتراف بالحقوق والواجبات المتعارف عليها لدى كل من الفريقين دون إثارتها وقبلت بصورة كلية ، وجاء فى تلك الصحيفة ما نصه :

---

(١) البداية والنهاية ، مجلد ٦ ص ٣٠٥ .

تمكن نظام المعلومات العسكرية لدى نبى الاسلام — وكان كاملا محكما — من معرفة أمر أبى سفيان ومن هنا قرر النبى ﷺ التقدم ونظم جيشه الجريح وعرج ناحية مكة ووصل إلى منطقة حمراء الأسد وتقع على مسافة ثمانية أميال من المدينة وكان سفره هـذا معلنـاً ظاهراً تماما للعيان ، وبينما كان النبى ﷺ يعد العدة للرحيل وصل الخبر إلى أبى سفيان فاعتقد أن رسول الله قد تلقى المزيد من الإمدادات ، فتراجع فى قراره واتجه إلى مكة بدلا من أن يعود إلى المدينة وحين اطمأن الرسول ﷺ إلى رجوع جيش أبى سفيان عاد هو إلى المدينة .

وفى السنة التالية لغزوة مؤتة (جمادى الأولى سنة ٨ هـ) بدأ قيصر الروم يعد العدة للهجوم على حدود الشام وأعلن الغساسنة ومعهم بقية العرب حالة التأهب العسكرى ، ورداً على هـذا أعد النبى ﷺ جيشا قوامه ٣٠ ألف جندى وذلك فى الغزوة التى عرفت باسم « غزوة تبوك » (رجب ٩ هـ) وكانت هذه الغزوة فى الواقع (تدبيراً عسكريا) يهدف إلى مفاجأة العدو قبل أن يفاجىء المسلمين حتى يخاف العدو وتخور همته ، فحين علم قيصر الروم بوصول المسلمين إلى منطقـة تبوك بدأ فى سحب عساكره من على الحدود بدلا من أن يتقدم تجاه جيوش المسلمين ، وهكذا ترك النبى نية الحرب ، ولا شك أن النبى استفاد من الانتصار الأخلاقى الذى تحقق من جراء تراجع القيصر فقد استقر فى تبوك عشرين يوما ، وأقام علاقة مع قبائل الحدود التى كانت خاضعة لتأثير الروم آنذاك ونتج عن هذا قبول أكيدر بن عبدالملك الكندى رئيس نصارى دومة الجندل ويوحنا بن رؤبة النصرانى رئيس أيلة وبقية رؤساء مقنا وجرباء وأذرح النصارى ، قبلوا جميعا دفـع الجزية والخضوع لحكومة المدينة .

ابنا له ﷺ ، فبعد ذلك لم يخرج خالد بن الوليد فى اية معركة ضد المسلمين ، وأسلم بسرعه ، وفى حفل الزواج اقام ﷺ وليمة لأهل مكه ، إلا أن أهل مكة طالبوه أن يمكث ثلاثه ايام فقط طبقا للمعاهدة وإن هذه الفترة اكتملت ، وكان عليه أن يعود فوراً ، ولهذا لم يتمكن أهل مكة من تناول طعام الوليمة التى كانت فى الأصل تحمل أهمية كبيرة فى تأليف القلوب ، وقد أسلم خالد بن الوليد وعمرو بن العاص معا وحين وصلا إلى المدينة رآهما شخص فصاح : « قد أعطت مكة المقادة بعد هذين » (أخرجه البيهقى عن الواقدى) .

أسلمت أم حبيبة بنت أبى سفيان وزوجها عبيد الله بن جحش وهاجرا معاً وذهبا إلى الحبشة وهناك تحول زوجها إلى النصرانية ، ثم مات بعدها بفترة بسيطة ، فخطط النبى ﷺ للزواج من أم حبيبة ، وهكذا أصبح صهرا لأبى سفيان الذى صار من أعظم قادة مكة بعد مقتل أبى جهل فى بدر ، ولهذا تزوج منها النبى زواجاً غيابيا ، خشية الا يسمح لها أبوها بالزواج منه إذا ما عادت من الحبشة إلى مكة ، وقبلت أم حبيبة هذا الزواج الغيابى على يد نجاشى الحبشة ، وذهبت بعد هذا إلى المدينة مباشرة ، ويذكر المؤرخون أن معارضة أبى سفيان ضعفت بعد ذلك حتى قبل الإسلام ودخل فى دين الله قبل فتح مكة بيوم واحد .

ومن جوانب الحكمة العملية للرسول ﷺ ما عبر عنه القرآن الكريم بسياسة « الإرهاب » فبدلا من استخدام القوة يمكن تحقيق الهدف عن طريق إظهار القوة ذاتها ، وما لم يأخذ أبو سفيان جيشه ويرجع لتعرض المسلمون لهزيمة ساحقة فى أحد (٣ هـ) ، وقد شعر أبو سفيان نفسه بخطئه هذا حين وصل إلى منطقة الروحاء ، فأراد أن يعود مرة ثانية بجيشه إلى المدينة إلا أنه من خلال الفوضى هذه

مكة وبعد فتح مكة فر هاربا واختبأ فأعطاه النبى الأمان واستدعاه ، وبعد استسلام هوازن حصل المسلمون على غنائم كثيرة ، وكان صفوان بن أمية مع النبى آنذاك وكان لايزال على الكفر ، فوصل إلى هضبة مليئة بالخراف والجمال ، وأخذ ينظر متحيراً متعجباً فرأى رسـول الله ﷺ حاله وسأله : « يا أبا وهب ، هل يعجبك هذا المال الذى يغطى الهضبه ؟ » فقال صفوان : نعم ، فقال رسول الله « هو لك وما فيه » . سمع صفوان هذا فقال : لا يمكن أن يكون لرجل مثل هذا الكرم إلا أن يكون نبيا ، أشهد ان لا إله إلا الله وأن محمدا رسول الله (واسلم مكانه) (١) .

كان تعدد زوجاته ﷺ امرا فرعيا ، ففى النظام القبلى تحمل مسالة القرابة أهمية كبيرة . كانت زيجاته المتعددة من أهم جوانب فترة ما بعد الهجرة ، فعن طريقها ارتبط بعلاقة قرابة مع العديد من الناس ، ورقت قلوبهم له ولدعوته ، فبالاضافة إلى زواجه الأول من أرملة عمرها ضعف عمره ، فإن الزيجات الأخرى كانت لها فى الواقع ضرورات معينة بل كانت فى هدفها الأساسى وسيلة للحصول على فوائد للدعوة وفوائد سياسية أخرى .

فى السنة التالية لمعاهدة الحديبية (٦٢٨ م) ذهب الرسول مع ألفى مسلم إلى مكة لزيارة الكعبة فتزوج بميمونة بنت الحارث أثناء إقامته التى استمرت ثلاثة أيام ، وكانت ميمونة أرملة ، لها ثمانى أخوات تزوجن من أشراف مكة ، وبزواجه من ميمونة أقام علاقة قرابة مع ثمانى عائلات . وكان خالد بن الوليد ابن أخت ميمونة وقد ربته كابنها تماماً ، وهكذا بعد الزواج منها صار أعظم قادة جيش قريش

---

(١) كنز العمال ، مجلد ٥ ص ٢٩٤ .

العملية وكانت الأصول التى اعتمد عليها النبى فى دور الدعوة تتلخص فى عدم إثارة القضايا الاقتصادية أو السياسية أو القبلية أو غيرها من القضايا المتنازع عليها ، وظل بعيدا عنها وانشغل « بالإنذار والتبشير » .

دعا بنى عامر بن صعصعة فى سوق عكاظ إلى الإسلام وأكد لهم بشتى الطرق أنه انما يبلغ رسالة دينية بطريقة سلمية تماما ، وأنه لن يثير بينهم أية منازعات سياسية أو اقتصادية أو قبلية ، فقال رسول الله ما معناه أنه مبلغ عن ربه ، وطلب منهم أن يمنعوه حتى يؤدى الرسالة ، ووعدهم انه لن يكره أحدا منهم على شىء (١) .

ومضت الأمور على ما هى عليه من حيث الهدف الأساسى للبعثة المحمدية إلا أن الإسلام بدأ يواجــه شيئا آخر ، وهو القضايا العملية التى نشأت من جراء البيئة ، وفى هذا الشأن وضع النبى ﷺ أصولا أساسية تمثلت فى اتباع السبل التى تجعل قلوب الناس تميــل إلى الإسلام ، وأمكن تحقيق الأهداف الإسلامية بدون حرب أو عراك ، وهذا هو ما عبر عنه النبى بقوله : (نصرت بالرعب على مسيرة شهر) .

وكان لهذا الأسلوب العملى جانبان معينان : الحصــول على القوة التى تبث الرعب (الأنفال ٦٠) (٢) ، والثانى تأليف القلوب (التوبة ٦٠) (٣) .

قدم النبى ﷺ إلى الناس الكثير من الأموال لتأليف قلوبهم ولا يوجد لعطائه هذا مثال فى التاريخ ، كان صفوان بن أمية من أشراف

---

(١) ابو نعيم ، دلائل النبوة ص ١٠٠ .

(٢) يشير الى قوله تعالى : « واعدوا لهم ما استطعتم من قوة ومن رباط الخيــل ترهبون به عدو الله وعدوكم » .

(٣) يشير الى قوله تعــالى : « انمــا الصدقات للفقراء والمساكين والعاملين عليها والمؤلفة قلوبهم » .

فرمتهم العرب عن قوس واحدة فكانوا لا يبيتون إلا فى السلاح ولا يصبحون إلا فيه » (١) .

اعلنت قريش المقاطعة الاقتصادية لأهل المدينة ، أعلنت هذا بين العرب جميعا ، وكانت الحالة الاقتصادية لا تكفى ولا تسد حاجة الزيادة الساكنية التى طرأت على المدينة إذ تضاعف عدد السكان تماماً ، هذا بالإضافة إلى النفقات الحربية المتزايدة ، كل هذه الأشياء أدت إلى حدوث ضيق اقتصادى رهيب ، يقول عمر : لقد رأيت نبى الاسلام فى المدينة ، كان طوال اليوم يتلوى من الجوع ، حتى التمر لم يكن متوافراً ليملأ به معدته . وسأل شخص عائشة عن « سراج » فأجابت : لو كان لدينا زيت ننير به السراج لشربنا الزيت !

وكانت حالة الفقر فى الغزوات شديدة لدرجة أن أبا موسى يقول: خرجنا معه فى غزوة وكان معنا نحن (ستة رجال) جمل واحد كنا نركبه بالتوالى وتورمت أقدامنا من المشىء المستمر ، وكنا نلف الخرق والرقع على أقدامنا حتى أن هذه الغزوة أطلق عليها اسم « ذات الرقاع » . وكان تموين الغذاء فى الغزوات قليلا لدرجة أن الرجال كانوا يمصون البلح بدلا من أكله ، هذا بالاضافة إلى الأمراض التى تظهر نتيجة تغيير الطعام المعتاد . فأهل مكة تعودوا اللحم واللبن ، ثم وجدوا فى المدينة التمر ، يروى الطبرانى أن رسول الله ﷺ حين وصل إلى المسجد للصلاة فى يوم جمعة صرخ مسلم مكى وقال :

« يا رسول الله أحرق بطوننا التمر » (٢) .

وبعد وصول رسول الله ﷺ إلى المدينة خرج الإسلام إلى مرحلة الدعوة العلمية وبدأ دور تاريخى جديد ، إذ بدأت مرحلة المواجهة

---

(١) كنز العمال ، مجلد ١ ص ٢٥٦ .

(٢) الطبرانى .

الدعوة إلى الله

أهمية القيام بالدعوة :

ان حادثات الزمان مهما كان ثقلها لا يمكن أن تمحو وجود الأمة الإسلامية لأن وجود الأمة الإسلامية هو جزء من الوعد الإلهى بالحفاظ على القرآن الكريم (الحجر ــ ٩) (١) ، فكما يظل كتاب الله محفوظا حتى يوم القيامة يبقى حاملو كتاب الله أيضا إلى ذلك الوقت ، وهذا أمر مؤكد فسوف تخلد الأمة الإسلامية طالما لم تطو صفحة الأرض والسماء ، وطالما لم تأت ساعة ميزان العدل الإلهى .

إلا أن وعد مالك الكائنات إنما يتعلق بالأمة المحمدية فى هــذه الدنيا لا بنجاتهم فى الآخرة ، فالنجاة فى الآخرة إنما يتوقف على عمل الإنسان ، وقانون الله فيما يتعلق بهذا الأمر قانون ثابت عادل ، ينطبق على الأمة المحمدية فرداً فرداً بل إنه لا يمكن أن يحــابى أو يستثنى من قواعده زوجات النبى أو أولاده .

ما هو المقصود « بالعمل » ؟ . المقصود منــه هو أن نستكمل مستلزمات ومقتضيات ما جئنا بسببه إلى هذه الدنيا ، فقد جئنا إلى هذه الدنيا لنعبد الله ، وجئنا لنكون أمة آخر الأنبياء .

ومن الاعتبار الأول يجب على كل المســلمين أن يصبحوا فرداً فرداً وبصفة شخصية « عباداً صالحين » وأن يثبتوا بذاتهم عبوديتهم لله ، إلا أننا من حيث كوننا أمة آخر الأنبياء والرسل علينا فريضــة

---

(١) يشير الى قوله تعالى : « انا نحن نزلنا الذكر وانا له لحافظون » .

أخرى ضرورية ، وهى أن نقــوم بما كان يقوم به الرســول ﷺ من تبليغ الرسالة لأهل الدنيا :

« فرضت عليهم الفرائض التى افترضت على الأنبياء والرسل ».
(وهب بن منبه) .

فمحمد ﷺ أرسل إلى الناس أجمعين والمؤمنون به نظرا لاتباعهم له مبعوثوه لهذه الأمم التى تظهر بينهم ، فبعثته إلى أهل الدنيا قاطبة تتم ــ بعد وفاته ــ بواسطة أمته . يروى عن مسعود بن مخرمة أن النبى ﷺ قدم على أصحابه فقال :

(إن الله بعثنى رحمة للناس كافة فادعوا عنى) (١) .

سأل رستم « ربعى بن عامر » رضى الله عنه : « أيها الناس لماذا جئتم إلى بلادنا ؟ » فأجاب :

« إن الله ابتعثنا لنخرج من شاء من عبادة العباد إلى عبادة الله ، ومن ضيق الدنيا إلى سعتها ومن جور الأديان إلى عدل الإسلام » (٢) .

إن إبلاغ الرسالة على درجة كبيرة من الأهمية وفى سبيل ذلك تهون التضحية بأى شىء . فى السنة السادسة للهجرة (٦٢٨ م) ، عقد ﷺ مع أهل مكة معاهدة الحديبية ، وكان شروطها أن يســمح لأهل مكة بالمرور بالمدينة إلى مصر والشام والعراق بقصد التجــارة وهم آمنون على أنفسهم وأموالهم (٣) ، فكأن النبى ﷺ بإقرار هذا الشرط قد سمح علانية لأعداء الإسلام بممارسة النشاط التجارى

---

(١) تهذيب سيرة بن هشام ، مجلد ٢ ، ص ١٤١ .
(٢) تاريخ الطبرانى ، مجلد ٣ ، ص ٣٣ .
(٣) رواه البخارى ومسلم .

داخل حدود المنطقة الإسلامية • هذه المادة وغيرها من المواد الأخرى المتشابهة معها انما وضعت بغرض منح هؤلاء الناس تسهيلات اقتصادية وسياسية حتى يصفو بذلك ميدان الدعوة للرسول ويتمهد الطريق إليها •

فإذا لم نبلغ الناس الذين يعيشون حولنا بيوم القيامة ، فإننا كأمة سوف نكون كنبى ارسل إلى قوم برسالة من الله ثم لم يبلغهم إياها ، فهو ان ترك قومه على شركهم وكفرهم فلن يتقبل الله منه صلاته ولا صومه • فكيف إذن يكون علمنا الذاتى وحده كافيا لنجاتنا وقبولنا عند رب العالمين ومن حولنا ملايين الناس لم يبلغوا ولم يخبروا بحقيقة الحياة ، وما يجب عليهم أن يفعلوه من أجل فلاحهم الحقيقى •

والنبى إذا لم يؤد رسالته فى الدنيا ، فمن المحتمل أن يتعرض لخطر البقاء فى قبضة الدهر •

(إذا لأذقناك ضعف الحياة وضعف الممات) (١) •

والسبب هو أن النبى يتحمل مسئوليتين فى وقت واحد : الأولى أن يكون بنفسه مؤمنا ومسلما ، (يونس — ٧٢) (٢) ؛ والثانية أن يبلغ أهل الدنيا (العالمين) برسالة الله (المائدة — ٦٧) (٣) ، وبعد ختم النبوة أصبح للأمة الإسلامية مقام النبوة ، ومن هنا فعلينا أيضا — أمام الله — مسئوليتان : الأولى باعتبار الإيمان والثانية باعتبار الاجتباء (الحج — ٧٨) (٤) ، ومعنى الاجتباء هو « الاختيار » ، فقد اختار الله الأمة المحمدية لهذا العمل وهو إبلاغ رسالة الله إلى العالمين ، ومن مسئولياتها الآن أن تتبع حياة الإيمان بطريقة كاملة ، ومع هذه المسئولية

(١) الاسراء ٧٥ •

(٢) يشير الى قوله تعالى : « وامرت أن أكون من المسلمين » •

(٣) يشير الى قوله تعالى : « يا أيها الرسول بلغ ما أنزل اليك من ربك وان لم تفعل فما بلغت رسالته » •

(٤) يشير الى قوله : « وجاهدوا فى الله حق جهاده هو اجتباكم » •

عليها مسئولية أخرى وهى ان تكون شاهدة للحق بين الناس ، وكما كانت الدعوة إلى الحق مسئولية على النبى ﷺ فهى أيضا مسئولية على أتباعه (**قل هذه سبيلى أدعو إلى الله على بصيرة أنا ومن اتبعنى**) [1]. وجاء فى الحديث (أنتم شهداء الله فى الأرض) .

والإنسان — كما هو معروف — لا ينتهى بالموت ، بل يصل إلى حياة أخرى أطول ، حيث النعيم الدائم أو الجحيم الدائم ، وهذه حالة صعبة وشاقة لأن الإنسان إذا لم يعرف السبيل إلى مرضاة الله فهذا يعنى أنه بعد الموت سيتعرض فجأة لعذاب لا حدود له ، ولا سبيل للنجاة منه ومهما حمل هذا الأمر من أهمية كبرى عند أهل الدنيا عامة ، فإن أهم شىء عند الله تعالى هو ألا يغفل عنه الإنسان كعبد لله ومن هنا أرسل الله إليه بعد أن خلق سلسلة من الأنبياء حتى ينجيه من خطر الضلال : أرسل الله إلى كل « قرية وإلى كل « أمة » عدداً من المرسلين ليبلغوا رسالة الله إلى الناس .

ولما كان هدف إرسال الرسل ألا يكون للناس على الله من حجة (النساء — ١٦٥) [2] فإنه لا يكفى أن يقوم الرسل بإطاعة أوامر الله وتطبيق الأحكام الإلهية فى حياتهم الشخصية فقط بل يجب عليهم أيضا ان يطلعوا عباد الله — بأقصى ما فى وسعهم — على رسالة الله — قام يونس عليه السلام بإبلاغ رسالة الله إلى مائة ألف من سكان نينوا (العراق) ولكنه ترك القوم قبل أن يكمل تبليغ الرسالة إلى آخر مداها، فغضب الله عليه وابتلعه الحوت ولم ينجه الله إلا حين شعر بأن عليه أن يعود إلى القوم مرة ثانية .

---

(١) يوسف ١٠٨ .

(٢) يشير الى قوله تعالى : « رسلا مبشرين ومنذرين لئلا يكون للناس على الله حجة بعد الرسل » .

والحقيقة أن إبلاغ الرسالة لا يتم إلا اذا جاء بطريقة كاملة **(بلغ ما أنزل إليك من ربك وإن لم تفعل فما بلغت رسالته)** (١) .

وهكذا فأمة الرسول تكون حقا أمته حين تؤدى نفس مسـئولية الرسول وتقوم بإبلاغ الرسالة الإلهية إلى العالمين ، تلك الرسالة التى وصلتها من جانب الله ، وليس من شك أن مسـئولية النبى هى بذاتها مسئولية أمة هذا النبى أيضا ، والفرق هو أن المسئولية تقع على النبى كفرد بينما تقع على الأمة كجماعة ، فالنبى يضطلع بمسئولية الدعوة بصورة ذاتية بينما هذا ليس بالضرورة فرضا على كل فرد فى الأمة فإذا قامت من بين الأمة جماعة وأدت فريضة الدعوة إلى الحق فإن المسئولية تسقط عن بقية الأفراد .

« وما كان المؤمنون لينفروا كافة ، فلولا نفر من كل فرقة منهم طائفة ليتفقهوا فى الدين ولينذروا قومهم إذا رجعوا اليهم » (٢) .

وقد ورد النص صريحا بخصوص الشهادة أمام العالمين ، وذلك فيما يتعلق بالتبعية للنبى :

« وكذلك جعلناكم أمة وسطاً لتكونوا شهداء على الناس ويكون الرسول عليكم شهيداً » (٣) .

ويوم القيامة حين يقف جميع الخلق أمام المحكمة الإلهية ، فسوف يشهد عليهم أولئك الناس الذين بلغوهم رسالة الله فى الدنيا ، وورد فى الكتاب المقدس ما يلى :

« سيجمع الناس كلهم ، وتجمع جميع الأمم ، سيكون هناك من بينهم من سيقول لهم : ألم نخبركم قبلا ، وسـوف يأتون بشهدائهم

---

(١) المائدة ٦٧ .

(٢) التوبة ١٢٢ .

(٣) البقرة ١٤٣ . وانظر ايضا سورة الحج . آية ٧٨ .

ليشهدوا على صدقهم وسيسمع الناس ويقولون : هذا حق ، يقول الله : أنتم شهدائى وانتم عبادى لقد اخترته حتى تعلموا وتؤمنوا بى وبأننى هو ، اننى أنا يهوداه (الله) وليس هناك من منقذ غيرى وأنتم شهدائى» . (يشوع ب ٤٣ — آية ١ — ١٢) (يسعياه ب ٤٣ — آية ١ — ١٢) .

انهمك النبى ﷺ فى أداء مسئولية الشهادة حتى أن الله خاطبه بقوله : « **لعلك باخع نفسك ألا يكونوا مؤمنين** » (١) .

وهكذا فإذا شعر المسلمون أنهم وضعوا على مقام الرسالة الصحيح بعد إبلاغها لهم ، ذلك المقام الذى وقف عليه النبى فى حياته ، فإن النوم سيطير من أعينهم وستحرم الراحة عليهم ، لأن هذا يعنى أحد شيئين بالنسبة لهم : إما أن يكونوا شهداء الحق أمام العالمين فيبرئوا ذمتهم ، وإما أن يرتكبوا جرما فى حق الله فلا يبلغوا الناس بما سيفعله الله معهم فى الحياة الآخرة .

وإذا لم يبلغ المسلمون هذا الحق الذى أرسل اليهم من أجل خير وفلاح عباد الله فإنه يخشى أن يصدق عليهم حكم القرآن على أهل الكتاب السابقين :

« **إن الذين يكتمون ما أنزلنا من البينات والهدى من بعد ما بيناه للناس فى الكتاب أولئك يلعنهم الله ويلعنهم اللاعنون ، إلا الذين تابوا وأصلحوا وبينوا فأولئك أتوب عليهم وأنا التواب الرحيم** » (٢) .

فإذا كان هناك شىء آخر ذكر فى القرآن الكريم غير مرضاة الله فهو بالتأكيد إعلام المسلمين بأنهم إن لم يبلغوا دين الله إلى غير المسلمين فلن يكونوا بمأمن من عذاب الله سواء على المستوى الفردى أو على

---

(١) الشعراء ٣ .

(٢) البقرة ١٥٩ — ١٦٠ .

مستوى بلدهم وعلى مستوى أهل الأرض جميعا ، وذلك حتى لو صلوا لله ليل نهار . فإذا اعتقدنا أن الطريق إلى الجنة يمر بمشوار روحانى، فيجب أن نفهم جيدا أن أبواب الجنة لا يمكن أن تفتح أمامنا إذا لم نحاول أن نغلق أبواب جهنم أمام ملايين البشر من غير المسلمين ممن يعيشون حولنا ، مهما واجهنا أثناء محاولاتنا من متاعب نتعرض لهـا لا نريد مواجهتها أساساً .

« أم حسبتم أن تدخلوا الجنة ولما يأتكم مثل الذين خلوا من قبلكم مستهم البأساء والضراء وزلزلوا حتى يقول الرسول والذين آمنـوا معه متى نصر الله ألا إن نصر الله قريب » (١) .

وقد جاء على لسان النبى ﷺ فى القرآن الكريم : **« وأوحى إلى هذا القرآن لأنذركم به ومن بلغ »** (٢) .

ومن يبلغ الأمم حقيقة يوم القيامة فى الحيـاة الدنيا سيكون شهيدا عليها أمام الله يوم القيامة **« يوم يقوم الأشهاد »** (٣) .

والسؤال الآن : من اليوم سيكون شهيداً على أمم الدنيا أمام العدالة الإلهية — كتابع للنبى ﷺ — يعلن أنه بلغ تلك الأمم حقيقة الحياة ؟ ! هل نأخذ جماعة من جماعات العالم الإسلامى تقوم بهـذه الشهادة أمام العالم كله ؟ ! إذا لم يكن الأمر كذلك ، وهو بلا شـك كذلك ، فهل نعوذ بالله — انتهى زمان رسالة رسول آخر الزمان ، ألن تأتى القيامة ؟ ! هل بدل الله تعالى هذه السنة للأمم التالية إذ قرر بأنه

---

(١) البقرة ٢١٤ .

(٢) الأنعام ١٩ .

(٣) غافر ٥١ .

سيكون من بينهم شهداء عليهم ، وأن مستقبل هـذه الأمم يتقرر بناء على شهادتهم ؟ !

يعتقد بعض الناس أن انطلاق الأذان من فوق مآذن المساجد إنما يكفى لإتمام الحجة ، وليس هذا سوء فهم فاضح فقط ، بل هو وزر يدعو إلى الاطمئنان إلى مثل هذا النوع من الإجابات ، فالله يرشدنا إلى أن من يأتى شهيداً على أمة ما إنما يأتى شهيدا عليها بلسانها « **وما أرسلنا من رسول إلا بلسان قومه ليبين لهم** » (١) وهو يقدم لها رسالته بوضوح حتى يعلن أفراد هـذه الأمة : نشهد بأنك بلغت « **وليقولوا درست** » (٢) ، ونحن نجلس ونظن أن انطلاق الأذان فى الفضاء ، مهما كانت لغته يجعلنا بريئى الذمة أمام الله !

مضمون الدعوة

ما هى تلك الرسالة التى نبلغها للناس ؟ الإجابة على هذا السؤال تكمن فى كلمة واحدة هى : التوحيد أى الإيمان بالله ، وأن يكون ذلك مستقرا فى قلوبنا حتى يصبح هو مركز ومحور حياتنا ، يذكر فى بعض الروايات أنه حين فتحت مكة بدأ الناس يبايعون الرسول ﷺ ، وقدم الكبار والصغار ، الرجال والنساء ، وأخذ منهم الرسول ﷺ البيعة على شيئين اثنين : الإسلام والشهادة . (فجاءه الناس الكبار والصغار والرجال والنساء فبايعهم على الإسلام والشهادة — البيهقى) .

وأخرج أحمد عن عبد الله بن عثمان بن خيثم أن محمد بن الأسود ابن خلف أخبره أن أباه الأسود رضى الله عنه رأى رسول الله ﷺ يبايع الناس يوم الفتح — قال : فبايع الناس على الإسلام والشهادة . قلت وما الشهادة . قال : أخبرنى

---

(١) ابراهيم ٤ .

(٢) الأنعام ١٠٥ .

محمد بن الأسود بن خلف أنه بايعهم على الإيمان بالله وشهادة أن لا إله إلا الله وأن محمداً عبده ورسوله .

إن عقيدة التوحيد ليست مجرد قضية فلسفية بل هى ورقة امتحان إنسانى ، ومن هذه الناحية تصبح الآخرة أيضا جزءاً لازماً لدعـوة التوحيد ، فالداعية حين يبلغ الناس حقيقة التوحيد ، فهو يحذرهم أيضا من الآخرة ؛ فبعد الموت سنقف بين يدى الله ويحاسبنا على أعمالنا ، وعليهم أن يطلعوا الناس على القضية القادمة وهى أنه بعد الموت ينتقل الناس إما إلى الجنة وإما إلى جهنم ، وأولئك الناس الذين استعانوا فى الدنيا بغير الله ، لن يروا الله ، ومن تمسك بميثاق الله فإنه هو الذى سينال هذا المقام فى الآخرة .

وهذا الأمر لا يمكن أن يخضع لعملية القياس العقلى بل يناله الإنسان عن طريق علم الوحى ، العلم الناضج الكامل ، ولهذا فالداعية يجب أن يضم إلى دعوته بالضرورة عقيدة الرسالة ويطلع الناس على عقيقة وجوب معرفتهم بالصراط الحق حتى يحققوا النجاح وينالوا الفوز فى حياتهم ، وذلك ليتمكنوا من معرفة ربهم ، كما يجب عليهم أيضا أن يتخذوا من الرسالة هاديا لهم ، وإلا ضلوا وضاعوا وسط الظلمات ولن يهتدوا إلى الصراط المستقيم أبداً .

هذا هو أساس دعوة الحق المتين ، إلا أن الإنســان ليس شيئا جامدا منزويا كقطع الحجارة الصغيرة ، بل هو كائن نقى واجتماعى ، وبعبارة أخرى إن اقناع انسان بأمر ما ليس كوضع لون خاص على قطعة من حجر ؛ فأعمال الإنسان كلها تصدر بناء على فكره الداخلى ، وهذا الفكر الداخلى يمضى بوجوده الشخصى على نهج خاص ، ثم حين يلتقى هذا النوع من الناس فهم يكونون مجموعة يطلق عليها المجتمع ، فتشكل عقيدتهم الداخلية شكل هيكل معين على مستوى المجتمع كله ،

وهكذا فقبول الإنسان لعقيـدة ما يصـبح كمن يلقى بحجر فى الماء فإلقاء الحجر يشكل فى البداية دائرة صغيرة تبدأ فى الاتساع لتشـمل حوض الماء كله ، وهكذا فعقيدة التوحيد تتخذ مكانها أولا فى قلب الإنسان ، ثم تهتز وتتحرك بعد ذلك داخل تكوينه النفسى ، وبعـدها تصطبغ حياة الإنسان الخارجية بصبغتها ، ويتطور الأمر بعد ذلك فتضم الأسرة والسوق والبرلمان والعلاقات الدولية أى تجعل جميع نواحى الحياة الاجتماعية وجميع المعـاملات الإنسانية تتخذ شـكلا خاصاً . ورسالة الداعية إذا قامت أولا وبصورة أساسية على التوحيد فهى فى نتيجتها النهائية تصل إلى حل قضايا الأمم المتحدة » .

وهذه « الكلية » التى يراها البعض فى الإسلام تجعلهم يفضلون اطلاق كلمة « نظام جامع » على الإسلام ، وهذا التعبير رغم أنه فى الظاهر تعبير صحيح فإنه يحمل بداخله خطأ ما ، إذ أن اعتبار الحقيقة الاساسية فيه ومتعلقاتها شيئين متماثلين وربطهما معاً هكذا هو كإعطاء أجزاء الجسم هذه الدرجة التى تكون للروح فى أى شخصية . فإن فهم الأمر عن طريق هذا المثال إنما هو بيان كحكاية « حب » فى كتاب ما ، نقرأ فيه فقرة تقول : « إن زيداً يحب بكراً » ثم يكتب : « حين التقيا معاً ذات يوم فى محطة القطار عانق زيد بكراً » ثم يكتب : « قدم بكر ذات مرة إلى قرية زيد ، فدعاه زيد إلى بيته » . إذا ما رتبنا العبارات الثلاثة السابقة فإن الإنسان يقول إن الحب اسم لهذا العمل الجامع للأمور الثلاثة : العناق والدعوة ، والحب بالقلب ؛ ومن الممكن أن نشاهد لمحة جامعة لهذا التعريف المتعلق بحب شخص ما ، إلا أن الحقيقة أن خطأ عظيماً حدث فى إعطاء حقيقة المحبة ومتعلقاتها درجة متساوية والتعبير عنها هكذا ، وكأن الأمور الثلاثة حين تجتمع كلهـا داخل شخص واحد تجعلنا نقرر أن محبته هذه محبة كاملة ، بينما يمكن أن تتحقق المحبة الكاملة حين يوجد الجزء الأول (المحبـة بالقلب)

ولا يوجد الجزآن الآخران حتى إذا لم تتم محاولة الحصول عليهما بصفة مستمرة .

وفيما يتعلق بالدعوة الإسلامية فتجب مراعاة دقة ترابط أجزائها بعضها مع بعض ، وإلا لن نتمكن من أداء حق الدعوة .

والدعوة إلى الإسلام بطريقة مباشرة هى فى الحالات العامة تخالف الحكمة ، ولهذا فإن من يريدون العمل فى هذا الميدان ، ينحرف ذهنهم أحيانا عن هذه القضية بنواحيها المختلفة ويواجهون مشـكلة أسلوب الخطابة فى الدعوة ، ويرى البعض أن الحل هو وضع الإسلام أمام الناس كنظام « اجتماعى » أو كأحسن نظام اجتماعى ، ويرى البعض الآخر أن يقدم الإسلام للناس كدين يحمل راية الحقيقة العالمية، تلك الحقيقة التى توجد فى جميع الأديان ، ويحاول بعض الناس إعطاءه رداء فلسفيا ، ويقولون إن الدين يعد أساس الشعور الأخلاقى للانسان لضرورة إثبات الشريعة الإلهية وغير ذلك ، ولكن جميع هذه الطرق تحمل قاسما مشتركا وهو أن واحدة منها لا تبرىء ذمتنا من العمل الأساسى وهو شهادة الحق لأن الجانب الأساسى فى عملية الشهادة هى إطلاع الناس على يوم القيامة .

وقضية أسلوب المخاطبة الذى تتعدد فيه الاتجاهات إنما تظهر لنا لأننا نستقى الإجابة على هذا الاستفسار من التاريخ ، ولا نبحث عن الإجابة من خلال سيرة النبى ﷺ ، فنحن وارثون لتاريخ ما بعد الإسلام ، وذلك بصورة نفسية وطريقة المخاطبة التى جاءت فى التاريخ التالى هى هذه : يا أيها الناس آمنوا ، ومن هنا فحين نذكر كلمة الدعوة يأتى هذا الأمر فى ذهننا فوراً ، ولكن سيرة النبى ﷺ وحياته فى الدعوة كانت قائمة على التدرج فى هذا الأمر ، والدعوة باسم الإسلام بدأت فى فترة حياته المدنية (بالمدينة) اما الفترة السابقة ، وهى الفترة المكية

فكانت دعوته من هذا النوع : « أيها النـــاس ، قولوا لا إله إلا الله تفلحوا ، إنى نذير لكم بين يدى عذاب شديد » .

وخطب النبى ﷺ فى الدور المكى هى كلها بهذا الأسلوب،أما أسلوب « أسلم تسلم » فكان أسلوب الدور المدنى .

فى الفترة الأولى للدور المكى حين قدم النبى دعوته إلى أبى بكر الصديق كان كل ما قاله : « إنى رسول الله أدعوك إلى الله » ولكن بعد فتح مكة قدم النبى ﷺ دعوته إلى والد أبى بكر « أبى قحافة » فقال : « يا أبا قحافة « أسلم تسلم » ، ويمكن أن نقول بعبارة أخرى إن الدعوة لدخول الدين بصورة منظمة بدأت فى الـــدور المدنى حين تمت معرفة الحق على نطاق واسع وتحقق النصر للاسلام فعلا على أساس ثابت ، وقبل ذلك كان التركيز فى دعوة النبى ﷺ على حقيقة الدين بدلا من الدعوة إلى البناء التنظيمى فى الدين .

وفيما يتعلق بأسلوب المخاطبة فإنه كان يركز على وضع هذه الحكمة الأساسية وبهذا تفادى جميع المشكلات دون إقحام المدعو فى أية تعقيدات نفسية ، فقد جعل أسلوب الدعوة قائما على حكمة الدعوة الأساسية أى إطلاع الناس على اليوم الآخر ، وهو ما عبر عنه القرآن بيوم الجمع (الشورى — ٧) (١) ويوم التلاق (غافر — ١٥) (٢) ويوم الآزفة (غافر — ١٨) (٣) حين يحاسب الإنسان حسابا دقيقا ولا يخفى من نفسه شيئا وحين تبلغ القلوب الحناجر من شدة الهول (غافر — ١٨) (٤) ، هذه هى القضية التى سادت السور المكية فى القرآن ، أى فى الفترة الأولى للدعوة .

---

(١) يشير الى قوله تعالى : « وكذلك أوحينا اليك قرآنا عربيا لتنذر أم القرى ومن حولها وتنذر يوم الجمع لا ريب فيه » .

(٢) يشير الى قوله تعالى : « رفيع الدرجات ذو العرش يلقى الروح من أمره على من يشاء من عباده لينذر يوم التلاق » .

(٣) و (٤) يشير الى قوله تعالى : « وانذرهم يوم الازفة اذ القلوب لدى الحناجر كاظمـــين » .

ونحن هنا ننقل بعض الأمثلة التى يتضح منها هدف الدعوة إلى حقيقة الدين بدلا من الدعوة إلى دخول الدين المنظم .

١ — ورد فى سورة التكاثر المكية قوله تعالى :

« ألهاكم التكاثر حتى زرتم المقابر ، كلا سوف تعلمون ثم كلا سوف تعلمون ، كلا لو تعلمون علم اليقين لترون الجحيم ثم لترونها عين اليقين ، ثم لتسألن يومئذ عن النعيم » .

وقد تأثر أحد الألمان أول ما تأثر بهذه السورة ؛ ويدعى محمد أسد ، فأسلم .

٢ — حين صدر الحكم للنبى ﷺ بإعلان الدعوة العامة ذهب إلى هضبة الصفا طبقا للتقاليد العربية وخطب فى الناس بعد أن تجمعوا ، وطبقا لرواية ابن عباس قال النبى ﷺ :

« والله لتموتن ثم لتبعثن ثم ليدخلن المحسن الجنة والمسيىء النار وأنا أقول لكم بحق وإنكم لأول من أنذرتم » (ابن عساكر عن معاوية) .

٣ — قال عمر الفاروق رضى الله عنه مرة :

ويل لديان من فى الأرض من ديان من فى السماء يوم يلقونه إلا من أمر بالعدل وقضى بالحق ولم يقض على هوى ولا على قرابة ولا على رغب ولا على رهب وجعل كتاب الله مرآة بين عينيه .

ومن حسن الحظ أنه فى عصرنا الحديث نالت هذه المسألة أهمية جديدة ؛ فقد تم تأسيس قسم مستقل خاص أطلق عليه اسم « علم المـــوت » Thanatology يبحث أمر الموت من وجهة نظر علمية ، وان يمر وقت طويل حتى تبدأ معظم الأبحاث المتعلقة بالموت فى التركيز

على موضوعات الكتب الدينية بصفة خاصة . والموت المفاجىء هو أهم الموضوعات التى تلقى رواجا وقبولا لدى العلم الحديث ، حتى إنه أصبح تخصيصا علميا ، وتفخر جامعة مينسوتا الأمريكية بأنها أقامت مركزاً لدراسة الموت ، وقد أنشأ U.C.L.A. معملا له هدف دراسة ظروف إصابة الحياة بالأضرار .

وفى المجالس الاجتماعية بدأ موضوع الموت يدرس مثله مثل موضوعات الجنس والسياسة ، وذكرت جريدة (أتلانتيك) الأمريكية فى تحليل لها أن بعض الكتب الجديدة بدأت فى الظهور ، ويمكن أن نطلق عليها اسم « كتب علم الموت » ، ولا يمكن للدعوة الدينية أن تجد أطيب من هذه الظروف التى تنبه الإنسان إلى جوانب الموت والحياة .

واعتبار التذكير بالآخرة هو المحور الأساسى للدعوة ، جاء نتيجة لأن هذه أعظم قضية تواجه الإنسان ، وهى أساسا القضية التى تقرر نهاية الإنسان الأبدية طبقا لأعماله بعد الموت .

لقد اعتبر الموت ، واعتبرت الحياة بعد الموت من أهم القضايا التى يجب أن يوجه الإنسان اليها قدرا كبيرا من اهتماماته ، كتب دكتور (بيلى جراهام) (١٩١٨ —) « أن شخصاً دعانى إلى بيته وكان واحداً من أغنياء هذا العالم ، وفهمت من دعوته لى ضرورة وصولى إليه فى أقرب فرصة ، وفور الانتهاء من تناول الطعام أخذنى إلى غرفة منفردة وقال :

«بينما أنا الآن فى صحة جيدة فإن عمرى يخبرنى بأننى لن أعيش طويلا ، أنا لم افكر كثيراً فى الموت من قبل ، ولكننى الآن أجد

عقلى مشغولا تماما بهذا الأمر ، وهذه الفكرة تخيفنى ، أنا أحتــاج إلى مساعدة » (١) •

هذه قضية تعد ذاتية لكل إنسان ، لأن كل إنسان سيواجه الموت حتما ، وتجربة آلاف السنين أثبتت أنه لا استثناء فى هذا ، ثم إن الموت هو أكبر قضايا الإنسان العاجلة ، لأنه لا يوجد موعد لحلوله ، وهذه هى الحقيقة الواقعة فأى شخص مهما حقق من فــلاح فى الدنيا حين تداعبه فكرة الموت يرتعد ويرتعش لأنه يعلم أنه لا يمكن أن يؤجل الموت ولا يمكن أن يسرى فلاحه ونجاحه فى الحياة القادمة ، وهذا الجانب من الفطرة الانسانية يحتل مقاما عاليا حين نبدأ فى زرع دعوة الحق فى قلب إنسان ما ، وهذا هو الباب الذى لا يوجد عليه أى حارس أو رقيب ، فحين تقرع باب قلب إنسان ما ستجده مفتوحا امامك لأنه الباب الوحيد الذى لا يغلق أبداً فى وجه أحد •

من ضرورات الدعوة : مركز إسلامى عالمى

من أكبر المسئوليات الملقاة على عاتق مســلمى العالم اليــوم أن يكونوا شهداء حق على أمم العالم ، ولا يمكن أن يخلصهم من هــذه المسئولية أى عمل آخر ، وهذا هو العمــل الذى اشترى به الله من المؤمنين أنفسهم وأموالهم (التوبة – ١١١) (٢) •

كيف يبدأ هذا العمل ؟ الإجابة على هذا السؤال موجودة فى القرآن الكريم • يفهم من القرآن الكريم أن الله تعالى يريد أن يكون للمسلمين مركز ينظم عملية الدعوة والتربية ، يتلى فيه كلام الله أمام

---

(١) مجلة (ريدرزد ايجيت) ، ديسمبر ١٩٧٢ •

(٢) يشير الى قوله تعالى : « ان الله اشترى من المؤمنين انفســهم وأموالهم بأن لهم الجنة » •

غير المسلمين (التوبة — ٦) (١) . ومن ناحيـة أخرى يعـد تنظيما للمسلمين حيث يفدون من بلادهم إلى هذا المركز ليقضوا به فترة تربية فى سبيل الدعوة والتبليغ ، ثم يعودون بعد ذلك إلى بلادهم فيطلعوا أممهم وأهليهم على ما تعلموه (التوبة — ١٢٢) (٢) .

وإنشاء مثل هذا المركز إنما هو من أكبر مسئوليات المسلمين اليوم، ويجب أن يكون هذا المركز على المستوى الذى يتناسب مع عالمنا اليوم. لقد أنشأ المبشرون النصارى مراكز لتبليغ دينهم يضم كل مركز منها مساحة عدة أميال ، يمتلكون محطة للاذاعة ، ومجموعة من الطائرات، يمتلكون الجامعات . ومادمنا لا نؤسس مركزاً على هذا المستوى ، وبأحسن من هذا المستوى فلا يمكن أن نجـد عذرا نقدمه أمام الله عن تقصيرنا فى تقديم وتبليغ دعوة الحق.يجب أن نقيم مؤسسة كاملة على أرض واسعة،تجهز بأعظم الوسائل والسبل اللازمة للنشر والطبع،تمتلك جامعتها الخاصة بها ، ومكتبتها الكاملة ، وتمتلك هيئة كاملة تختص بالبحث والتأليف ، وتمتلك داراً للنشر بكل اللغات ، ويجب أن تتوفر لها محطة للاذاعة وعدد من الطائرات ، أى يمكن أن تستفيد من جميع ما هو على أرض الله ، وما يمكن الاستفادة منه فى سبيل نشر الدين .

هذا مجرد حلم ، إلا أن الكنز الذى فتحه الله على المسـلمين جعل من السهل عليهم إنشاء مثل هذا المركز ، إذ أن قليلا من الوسائل المتوفرة حاليا يكفى تماما لإقامة هذا المركز على أحدث النظم وبأعلى مستوى .

---

(١) يشير الى قوله تعالى : « وان أحد من المشركين استجارك فأجره حتى يسمع كلام الله ثم ابلغه مأمنه » .

(٢) يشير الى قوله تعالى : « وما كان المؤمنون لينفروا كافة ، فلولا نفر من كل فرقة منهم طائفة ليتفقهوا فى الدين ولينذروا قومهم اذا رجعوا اليهم لعلهم يحذرون » .

ان الله تعالى يريد أن تبلغ رسالته إلى عباده بطريقة كاملة تامة ، وكانت هذه هى الحكمة التى من أجلها وهب الله تعالى المسلمين قوة السيف فى عصر السيف ومنح على يدهم جميع البلاد المعروفة فى وقتهم ، وانتشر صوت الإسلام فى كل مكان .

أما اليوم — وفى مجال استخدام الآلة — فقد وهبهم الله قوة البترول بطريقة مدهشة . جاء فى تقرير البنك العالمى رقم ٤٧٧ (سنة ١٩٧٤) أن الدول المنتجة للبترول OPEC تمتلك بين يديها ٨٥٪ من حصة التجارة العالمية ومن هنا فهى تمتلك اليوم مفتاح القوة الاقتصادية فى العالم الحديث . وهذه الفرص لم تعط لهم بلا هدف أو بلا غرض بل أعطيت لهم حتى تنفق على العمل الأساسى ألا وهو هدف جميع المسلمين المحدد .

بدأ استخراج البترول من باطن الأرض فى التاريخ الحديث سنة ١٨٥٩ حين نجح ايدون أيل دريك (أمريكا) فى استنباطه من عمق سبعين قدما فى بنسلفانيا ، واكتشف البترول فى الشرق الأوسط لأول مرة سنة ١٩٠٨ م فى « مسجد سليمان » وفى ذاك الوقت كان الأتراك يحكمون العرب ، وقد قدمت الشركات الغربية تسهيلات للامبراطورية العثمانية لاستخراج البترول من هذه المنطقة .

إن سر القوة الصناعية فى العالم وسر تطورها ورقيها يكمن فى البترول ، وهو يماثل الآن الماء بالنسبة للزراعة ، والدماء بالنسبة لجسم الإنسان ومن المحير أن جزءاً كبيرا من هذه الثروة الطبيعية مدفون تحت الأرض فى المنطقة التى يطلق عليها « الشرق الأوسط » أو « الخليج العربى » ، وقد ظلت هذه الثروة منذ بداية القرن الحالى وحتى الآن فى قبضة الأمم الغربية الصناعية وبخاصة أمريكا ، ويكمن

---

* فى مقابل استغلال المنطقة واستخراج بترولها .

سر تقدم هذه الأمم فى ذلك الوقود الرخيص الذى تحصل عليه هــذه الأمم بسهولة كبيرة من بلدان الشرق الأوسط • والمسلمون فى العالم هم الذين يمتلكون قوة البترول ورغم ذلك فهم الآن ضعفاء العالم فى عصر قامت فيه حركات عديدة ، وظهر فيه العــديد من القادة ، إلا أن احداً منهم لم يعرف هذا السر ، ولم تحاول أية أمة أن تنهض فى هــذا الاتجاه • واستخدام البترول فى حرب أكتوبر سنة ١٩٧٣ لم يكن بطريقة شعورية بل كان فى معظم الأمر كعصا رجل كسيح يتوكأ عليها، وكانت هذه هى التجربة الأولى التى عرف الناس من خلالها أن البترول قوة وطاقة كبيرة ، إذا ما استخدمت حتى بطريقة جزئية أمكن ان تهز الصناعة الدولية كلهــا •

وقد وصلت قيمة البترول المستخرج من منطقة الشرق الأوسط فى منتصف سنة ١٩٧٤ ٢٠٠،٠٠٠،٠٠٠ دولار فى اليوم ، وقد أحدث هذا الفيضان من الثروة أنقلابا مفاجئا فى دول الخليج العربى حتى أن أهل البلاد أصبحوا عاجزين عن إيجاد مجالات لإنفاق هذه الثروة ، وطبقا لتقديرات البنك العالمى سيكون لدى دول البترول حتى ســنة ١٩٨٥ فائض مالى يقدر بمليون مليون دولار وذلك بعد خصم النفقات العديدة بكل أنواعها وبعد الإسراف الشديد جداً ، وهنا يجب أن نتذكر أن النبى ﷺ تنبأ بظهور هذه الثروة فى الوقت الذى كانت فيه الرمال تتطاير على الجزيرة العربية ولم يكن يرى فيها غير الجبال ، وهــذه النبوءة جاءت فى الأحاديث بألفاظ مختلفة وطبقا لما ورد فى رواية البخارى ومسلم :

« يوشك أن يحسر الفرات عن كنز من ذهب فمن حضرة فلا يأخذ منه شيئا » متفق عليه •

وما قاله ﷺ حين أشار إلى هذا الكنز (فلا يأخذ منه شــيئا)

جدير بالاهتمام ؛ فمعنـاه أن الثروة الطبيعية أى الذهب السـائل Liqued Gold لا يجب أن يكون من أجل التمتع الذاتى ، بل إن الثروة التى وهبها الله ، يجب أن تكون فى سبيل الله ، فالبترول الذى ظهر فى هذه الدول إنما هو لها فتنة كبيرة ، والشكل الوحيد للنجاة من هذه الفتنة هو أن ترصد هذه الثروة من أجل الكفاح والجهاد لإحياء الدعوة الإسلامية ونشر الإسلام بالاضافة إلى النفقات الضرورية الأخرى ، فإذا لم تفعل هذه الدول ذلك فإن هذا الكنز سيكون يوم القيامة وبالا عليها ، وقد نبه القرآن الكريم إلى هذا فى سورة التوبة (٣٤) (١) ، والواجب أن ترصد الدول المنتجة للبترول ميزانية خاصة فيما بينها تشارك فيها كل دولة بهبات خاصة تكون فى النهاية ميزانية يتم بهـا إنشاء مركز إسـلامى عظيم على مستوى حديث ؛ فأية مؤسسة عادية لا يمكنها أن تؤدى واجب شهادة الحق فى دنيـا اليوم ، فعصرنا هـذا هو عصر المستوى Standardization وفى دنيا اليوم لا يمكن لشىء أن يؤثر إذا لم يكن على المستوى الذى من أجله جعل هذا الشىء .

ومعرفة سنة الله تعالى من خلال سلسلة الرسل تفهمنا أن إعلان الدعوة يتم على مستوى الإعجاز الإلهى على الدوام . وإعطاء الأنبياء المعجزات هو الأمر الذى يحمل أهمية فى الأذهان البشرية العامة فى أى زمان ، وذلك حتى يمكن للانسان نفسه أن يشاهد سمو الله فى ضوء المعايير المعروفة لدى الإنسان ذاته . ونبى آخر الزمان محمد بن عبد الله لم يعط هذا النوع من المعجزات السابقة ، وحين طالبـه

---

(١) يشير الى قوله تعالى : « والذين يكنزون الذهب والفضة ولا ينفقونها فى سـبيل الله فبشرهم بعذاب اليم » .

معارضو الإسلام بهذا ، قيل إن هذا القرآن الذى أنزل عليه هو معجزته ﷺ (العنكبوت — ٥١) [١] .

كانت تلك هى الخاصية التى ميزت الزمان التالى ، فبعد نبى آخر الزمان دخل العصر الإنسانى دور العصر العلمى والتقنى ؛ إذ لم يكن هذا العصر عصر « معجزات » بالمعنى السابق له ، بل هــو عصر يحمل أهمية الإثبات العقلى والاستدلال المنطقى ، ولهذا اختار الله تعالى فى ذلك العصر « القلم وسيلة للاعجاز (العلق — ٤) [٢] . وأنزل كتــاباً هو القرآن لا يمكن أن يأتى بمثلــه إنس ولا جــان (الإسراء — ٨٨) [٣] .

وفى العصر الحاضر تمثل الخطأ الأكبر فى عدم وصول المستوى الفكرى الحالى للمستوى الفكرى الممثل فى القرآن الكريم ، وجميع الأخطاء التى نقع فيها فى عصرنا هذا إنما تكمن جذورها فى تقصير معين ولهذا فأول عمل يضــطلع به المركز الأســلامى المقترح هــو أن يستعمل أعظم سبل البحث لإثبات التعاليم الإسلامية على مستوى علمى رفيع ، ويجب أن يكون هذا الهدف هو أول ما يقوم به وأن يكون الهدف الرئيسى لجميع أقسامه .

وللعمل العلمى جانبــان معينــان يمكن استخلاصهما من الآية الكريمة التالية :

---

(١) يشير الى قوله تعالى « اولم يكفهم انا انزلنا عليك الكتاب يتلى عليهم » .

(٢) يشير الى قوله تعالى « اقرأ وربك الاكرم ، الذى علم بالقلم » .

(٣) يشير الى قوله تعالى : « قلْ لئن اجتمعت الانس والجن على ان يأتوا بمثل هذا القرآن لا يأتون بمثله ولو كان بعضهم لبعض ظهيرا » .

« قل أرأيتم ما تدعون من دون الله أرونى ماذا خلقوا من الأرض أم لهم شرك فى السموات ائتونى بكتاب من قبل هذا أو أثارة من علم إن كنتم صادقين » (١) .

يفهم من الآية الكريمة أن للاستدلال أسلوبين رئيسيين : الكتاب السماوى المعتمد ، والعلم المسلم به لدى علماء الزمان . هذان هما الأسلوبان اللذان يدعمان دعوة الحق ، فمن ناحية التعليمات القرآنية يجب إيضاح الشىء كما هو ، ومن الناحية الأخرى يجب التدليل على الإسلام طبقا للمستوى العلمى الشائع ، وعنوان الشىء الأول هو . إثبات الدين وعنوان الشىء الثانى هو : علم الكلام ، وتوجد كتابات كثيرة لا تعد ولا تحصى لإثبات التعليمات الدينية إلا أنها كلها تتم بأسلوب تقليدى ، ولا تزال هناك ضرورة لإعادة صياغتها طبقا للمقتضيات والمستلزمات الفكرية الحديثة .

والاهتمام الأول هنا يجب أن يوجه إلى القرآن الكريم ، فالحقيقة أن القرآن هو أكثر الأمور المؤثرة فى مجال الدعوة الإسلامية ، وأى كلام أو خطاب لا يمكن أن يبدل أو يغير هذا الكلام الربانى ، إلا أن القرآن الكريم يكون مؤثرا بالنسبة لأولئك الأشخاص الذين يعرفون لغة القرآن ، وكان داعية الإسلام الأول يعرف هذا السر جيدا ، ومن هنا فحين تخطى الإسلام نطاق الجزيرة العربية حاول أن يبذل كل جهد حتى تتعلم الأمم الأخرى اللغة العربية ، وكانت الأمم التى تسكن خارج الجزيرة العربية تتكلم آنذاك لغات مختلفة ، كانت اللغة الآرابية تروج فى العراق والشام ، واللغة القبطية فى مصر واللغة البربرية فى بلاد المغرب (إفريقية) ، وبجهود العرب انتهت هذه اللغات خلال قرن من الزمان وأصبحت المنطقة كلها تتكلم اللغة العربية وفى الفترة التالية،

---

(١) الاحقاف : ٤ .

وحين طرأ الجمود على الأمم المسلمة مات الهدف الأصلى ، ولا شك أن أبحاث جافة عقيمة عن مثل هذه القضايا بدأت تفرض نفسها وعلى سبيل المثال ، هل تجوز ترجمة القرآن إلى اللغات الأخرى أم لا ؟ ! هل تجوز الصلاة بلغة أخرى غير العربية أم لا ؟ ! هل يمكن إلقاء خطبة الجمعة ، بلغة أخرى غير العربية أم لا ؟ ! وغيرها من أبحاث عقيمة .

ومن حسن الحظ أن تنال اللغة العربية حظاً من الاهتمام فى زماننا الحالى لعدة أسباب ، كما أن السياسة النفطية أصبحت ذات تأثير قوى لدرجة جعلت اللغة العربية هى اللغة الخامسة المعترف بها فى الأمم المتحدة . كما أن الاتجاه لفهم التاريخ القديم أصوله وفكره ، ودراسة الأديان كلها من البداية ، جعل الناس يتجهون للغة العربية ، وقد تم الاعتراف بأهمية اللغة العربية التى يتكلم بها أكثر من مائة مليون والتى تعد اللغة الرسمية لأكثر من عشرين بلدا ، ووصل الاهتمام بها إلى مجال السياسة الخارجية لبلدان العالم فقد أنبتت الثروة العربية لدى جميع الأمم جاذبية جديدة للغة العربية .

وعلينا أن نستفيد من هـذه الفرص الجـديدة بكل قوة وذلك من أجل إثراء اللغة العربية . والأساليب الحديثة سوف تكون أكثر عوناً لنا ! فقد ظهرت أساليب جديدة لتعليم اللغات تمكن الإنسان من معرفة أية لغة بسرعة بالقدر الذى يحتاجه فى عدة أسابيع فقط ، وعلينا أن نأخذ بهذه الأساليب لنشر اللغة العربية ، وعلينا أن نترك تماما الطرق الدقيانوسية القديمة .

وهناك ضرورة أخرى تتمثل فى إعداد كتاب بمختلف اللغات عن التعاليم القرآنية وسيرة الرسـول ﷺ وأحوال الصـحابة والتاريخ الإسلامى ويكتب بطريقة مبسطة لا تتضمن سرداً إنشائيا أو حشوا إضافيا ، بالاضافة إلى تجنب الأسلوب الأدبى المصطنع ، واللغة التى

تظهر التعصب العقدى ، ويمكن فقط أن يقوم بهذه المهمة أولئك الناس الذين درسوا أسلوب البحث المعاصر ولهم قدرة وتمكن بأسلوب الكتابة الجـديد .

والأمر الثانى الواجب القيام به هو إظهار الإسلام بطريقة علمية، وليس معنى هذا تأليف الكتب ونشرها ، إن الإظهار العلمى للاسـلام يحل حقيقة فى عصرنا هذا محل المعجزة النبوية ولهـذا فهو أمر مفيـد حين يتم على مستوى « الإعجاز » ، والعمل الذى يتم بدرجة أقل من هذا المستوى لا يمكن أن يسد ضرورة نشر وتبليغ دين الحق ، لا بطريقة علمية ولا بأية طريقة أخرى .

يفهم من القرآن الكريم أن كل من أرسلهم الله من أنبياء ورسل ، أرسلوا بلسان تلك الأمم التى وجهوا إليها (إبراهيم — ٤) (١) وليس المقصود بلسان القوم اللغة فقط بل الأسلوب أيضاً .

ومعنى هذا أن الدعوة الإسلامية حين قدمت إلى تلك الأمة ، قدمت بمستوى الوقت الذى ظهرت فيه فجاءت على مستوى الأمة من الناحية اللغوية والبيانية ، وكانت تتطابق مع ذوقهم العلمى ، ومع طريقتهم الاستدلالية ، وطريقتهم فى التعبير ومعيـارهم الفكرى ، وعلى سبيل المثال فزماننا هذا هو زمان الاستدلال التحليلى فاذا ما قام شخص بإلقاء خطبة حماسية ، وقدم استدلالاته بالشعر وبأسـلوب تمثيلى فإن هذا يمثل مفارقة غير مقبولة بمفهوم العصر Anachronism ولا يمكن أن يقوم الاستدلال هكذا على المستوى البيانى للقرآن .

والأصول الضرورية الأخرى تستمد من سنة الله تبارك وتعالى التى وضعها فى سلسلة « المعجزات » ، فالهدف الأساسى للمعجزة سلب

---

(١) يشير الى قوله تعالى : « وما أرسلنا من رسول الا بلسان قومه ليبين لهم » .

ما يرتكز عليه الباطل من ركائز يعتمد عليها فى ذلك الزمان . ومثال ذلك حين ألقى السحرة بحبالهم وعصيهم فى مصر ، فى يوم الزينة فأخذت تتلوى كالثعبان ، كان هذا فى الحقيقة إعلانا لكبرياء الجماعة المعارضة لموسى عليه السلام ، وقامت عصا موسى عليه السلام بالقضاء على « إفكهم » حين مرت فوق حبالهم بعد أن أصبحت حين تسعى فقضت على حركتها وشكلها الثعبانى :

« فإذا هى تلقف ما يأفكون . فوقع الحق وبطل ما كانوا يعملون » (١) .

وهكذا فى زماننا الحاضر رفعت دعوى ضد الدين على أساس علمى وعلى أساس تحقيقى وعلى علماء الدين ورافعى رايته القيام بدعم وتعضيد دين الحق عن طريق ردود علمية تقوم على أساس البحث والتحقيق ، وعليهم أن يبرهنوا على ضعف استدلالات الفريق الثانى حتى يهدموا حائطهم العلمى وحتى يثبتوا صدق دين الحق .

وأهم هدف للمركز الإسلامى هو إعداد أشخاص على أساس مقتضيات ومستلزمات العصر الحديث ولا يمكن أن يتحقق هذا عن طريق معسكرات التربية المعروفة حاليا ، بل يستلزم الأمر جامعة على أحدث أسلوب وطراز ، وأن تشرف على أبحاث عظيمة يمكن أن تواجه الأفكار الحديثة التى تتعارض مع الإسلام ، ومن هنا يمكن تخريج رجال يواجهون هذه الأفكار ، وتتم تربيتهم فى ظل أعظم الأبحاث أيضاً .

ويذكر القرآن الكريم فيما يتعلق بموسى عليه السلام أنه مر بمراحل مختلفة وبتجارب عديدة ابتداء من حياته داخل قصر فرعون وحتى وصوله للحياة الصحراوية . وحين وصل إلى مرحلة النضج

---

(١) الأعراف ١١٧ — ١١٨ .

وإلى الدرجة المقررة حينئذ أسندت إليه مسئولية النبوة طبقا للسنة الإلهية فاستطاع أن يؤديها على خير وجه «ثم جئت على قدر يا موسى»[١] هذه هى الطريقة التى اختارها الله لجميع أنبيائه .

ويلزم للدعاة والمبلغين فى الفترة التالية أيضاً أن يعدو أنفسهم طبقا لهذه الأصول ، فعليهم أن يتعلموا لغة تلك البلاد التى يقومون بدعوة أهلها .

كان زيد بن ثابت الأنصارى يعرف ست لغات : العربية والفارسية والرومية والقبطية والحبشية والسريانية ، وكان من واجبه دراسة الأديان دراسة مقارنة حتى إنه كان حين يعرض الإسلام أمام أهل الديانات الأخرى — كان يعرف كيف يوضحه لهم بأسلوب رائع وبحجة دامغة .

وعلى الداعية أيضاً أن يكون على معرفة بالعلوم التى تتعلق بالدين سواء بطريقة إيجابية أو سلبية حتى يمكن أن ينتبه إلى الخلفية الذهنية للمخاطب أثناء خطابه معه .

هذه هى الأمور اللازمة التى تصل بالداعية إلى المقام الذى يجعله كفؤا لعمله حين يدعو الناس إلى دين الحق .

لقد قامت الإرساليات المسيحية بوضع جميع الإمكانيات المذهلة من أجل تربية دعاتها ، وعلى سبيل المثال إطلاعهم بطريقة كاملة على أحوال المسيحين فى الاتحاد السوفيتى ، فقد أقامت هذه الإرساليات فى أمريكا فى منطقة نائية مدينة ، كانت نموذجاً كاملا لمدينة روسية ، وفى المدينة المصطنعة كانت اللغة الروسية هى لغة التخاطب ، كما كان

---

(١) طه ٤٠ .

الطعام والشراب والحياة وكل شيء على الطريقة الروسية ، وهكذا تم تدريب وتربية عدد من القساوسة تربية عمليه حتى اصبحوا من ناحيه الشكل والصورة ، ومن ناحية اللغة والعادات والتقاليد ومن كل ناحيه - يبدون وكانهم من أهل روسيا نفسها ، ثم تم تدريبهم على قيـادة الطائرات والسقوط بالمظلات ، وبعد أن تدربوا على كل هـذا ونجحوا فيه ، تم إسقاطهم فى صمت كامل من الطائرات فى المنطقة الروسية حيث عاشوا هناك لفترة محددة فى المدينة الروسية وداخل هذا « الستار الحديدى » درسوا حالة المسيحيين ، وللقيام بمثل هذا العمل الفدائى تم أيضا تدريبهم على جغرافية الاتحـاد السوفيتى ، وبعـد استكمال هؤلاء القساوسة لبرنامجهم ، تم إنزال الطائرات مرة ثانية فى منطقـة روسية بعيدة ، وحسب الاتفاق ركبوا الطائرة وعادوا إلى مركزهم مرة ثانية .

وفى داخل غابات بيرو الفسيحة توجد عدة قبائل لا تزال تعيش حالة من البربرية ، تقوم بقتل أى إنسان متحضر إذا ما اقترب منهم . وضع النصارى برنامجا لتبليغهم رسالة المسيح ، فأقاموا لهذا هيئـة وبدأوا فى تربية الناس ، ووصل هؤلاء الناس إلى هذه المناطق ، وتم إسقاطهم بالمظلات ، وفى البداية قامت هذه القبائل بقتل العديد من المبشرين المسيحيين ، إلا أنهم استمروا فى محاولاتهم ، تعلموا لغتهم ، ووضعوا لها قواعد وترجموا إليها الإنجيل وأقاموا فى هذه الغابات مطارا وإذاعة ومستشفى وكلية ومطبعة،أقاموا عالماً جديداً وفى النهاية تحولت هذه القبائل إلى قبائل متحضرة ودخلت المسيحية .

ذلك هو مستوى التربية الذى وصل إليه دعاة الأديان الأخرى ، فطالما لا نقيم نظاما لتربية أفرادنا على مستوى طيب كهذا المسـتوى أو أطيب منه فلن يمكن للحركة الإسلامية أن تنجح فى الوقت الحالى ، ولا يمكن لمحاولة أقل من ذلك أن تبرىء ذمتنا أمام الله .

ومع الاستعدادات السابقة فإن تعاون عامة المسلمين فى إطار المركز الإسلامى هو ضرورة واجبة من عدة جوانب نستخلصها فى ضوء القرآن والسنة .

١ ـ العمل الأول هو إحياء الإحساس داخل عامة المسلمين وهو الإحساس بأن المسلم ليس كأى إنسان عادى بل هو إنسان ينتمى إلى الأمة المحمدية ، وهذا الانتماء يفرض عليه مسئوليتين فى وقت واحد : الأولى أن يتبع فى حياته الخاصة سبيل الإيمان والإسلام ، والثانية أن يقضى حياته فى ظل هذا الإحساس أى يكون شاهد حق فى هذه الدنيا :

« يا أيها الذين آمنوا كونوا قوامين بالقسط شهداء لله » (1) .

فالشخص الذى يعتنق الإسلام عليه مسئولية المضى على طريق « القسط » فى جميع معاملاته . وهو القسط الذى قرره الله للناس ، ولكن حين يصادفه رجل لم يتبع الإسلام بعد فإن هذه المسئولية تتخذ شكلا أكثر دقة ، فلعله يقبل الإسلام ، وتزيد المسئولية أكثر فأكثر إذ يجب أن يتعامل فى ظل الاحساس بأنه نائب وممثل لله فى هذه الدنيا، وذلك لأن الناس سوف يطلعون من خلال عمله ومن خلال كلامه على ما يرضى الله وعلى السلوك الذى يسلكه الإنسان ليرضى ربه تماماً مثلما يجب أن تكون الإشارات المعلقة على الطريق Sign Posts صحيحة تماما لأنها تدل على الجهات التى يمضى إليها المسافر ، فإن لم نفعل كذلك فإن هيئة الطرق لا تكون لها قيمة . ومن هنا فيجب على مسلمى العالم أن يكونوا ممثلين للحق فى هذه الدنيا ، ففى الحالات العامة يمكن أن يكون تقصير المسلمين شيئا يقبل الغفران ، ولكن حين يكون الأمر متعلق بمواجهة غير المسلم فيجب على المسلمين بل من الضرورى أن يراعوا جميع الجوانب بمنتهى الحيطة والدقة حتى لا يعطوا صورة خاطئة لدين

---

(1) النساء ١٣٥ .

الله أمام غير المسلم ، ففى الحياة العامة يمكن أن يغفر ذلك للمسلم « الذين يجتنبون كبائر الإثم والفواحش إلا اللمم » [1] • ولكن حين يتعلق الأمر بغير المسلم فإن الانحراف عن الحق انما هو تماما كشهادة الزور (الفرقان — ٧٢) [2] وشهادة الزور هى فى نظر الله من أعظم الآثام •

٢ — اعتاد العرب أن يقيموا كل سنة وفى أماكن متفرقة مهرجانات واحتفالات قومية تجتمع فيها القبائل من كل ناحية ، فتعقد برامج للتسلية وللتجارة ، كما هو الحال فى بعض المهرجانات اليوم ، وفى كتب السيرة يرد ذكر مهرجانات (أسواق) عكاظ وذى المجاز ومنى وغيرها ، وكان من بين الطرق التى اتبعها نبى الإسلام فى دعوته الذهاب إلى هذه المهرجانات ودعوة الناس إلى الدين الحق • ويقول أحد الصحابة فى الفترة الأولى، رأيت النبى ﷺ فى سوق ذى المجاز وكان يمر فى السوق مرتديا عباءة حمراء ويقول : « أيها الناس قولوا لا إله إلا الله تفلحوا » •

ويمكن اتباع هذه الطريقة فى زماننا الحالى ، وذلك بوضع مقاصف فى أماكن الاجتماعات والمعارض والمهرجانات المختلفة ، توضع عليها مختلف الكتب الإسلامية بمختلف اللغات ، توزع مجاناً ، ويمكن إسماع الناس الرسائل المبسطة بأسلوب طيب شيق عن طريق مكبرات الصوت، كما يمكن إنشاء زوايا مكتبية ، ويمكن استحداث أساليب جديدة فى أماكن تجمع الناس لتحقيق هذا الهدف الذى كان يحققه النبى من خلال أسواق العرب ومهرجاناتهم القديمة •

---

(١) النجم ٣٢ •

(٢) يشير الى قوله تعالى : « والذين لا يشهدون الزور واذا مروا باللغو مروا كراما » •

٣ — يذكر فى التاريخ أن النبى ﷺ أرسل خالداً إلى قبيلة بنى حارث — ولم تكن على الإسلام — حتى يبلغها رسالة الإسلام . ووصل خالد ورفاقه إلى نجران موطن قبيلة بنى حـارث . وكانوا ركوباً ، فاخـذوا يطوفون بأرجـاء نجران جميعها ويقولون بصـوت عال : « أيها الناس أسلموا تسلموا » [1] . وكان يطلق على مثل هذا الوفد مصطلح « سرية » . وبعد الهجرة أرسلت مثل هذه السرايا إلى السكان غير المسلمين ، وكانوا يذهبون فى شكل جماعات يدعون النـاس إلى الإسلام بأسلوب بسيط ، ويمكن اتباع هذه الطريقة بما يتوافق مع الظروف الحالية وتستعمل فى تعريف الناس بالإسلام .

وعلى سبيل المثال يمكن اختيار مدينة أو حى غير مسلم ، ويمكن دراسة الظروف هناك وطبقا لهذه الظروف تتم تربية جماعة مسلمة ، يعين لها أمير ، يكون عليه مهمة الكلام ويبقى بقية الناس صامتين يدعون له ، تصل هذه القافلة إلى المدينة المقررة فتصلى قبل كل شىء ركعتين ويدعو الجميع أن يعينهم الله على تحقيق مهمتهم ، وتخرج القافلة — بعد ذلك — تحمل إعلاناً طيباً عن اجتماع فى مكان معين فى وقت محدد ، ويدعى إلى الاجتماع الرجال والنساء جميعا ، وتكتب على البطاقات التى توزع على المجتمعين عبارة بسيطة مناسبة مثل :

« والله يدعوا إلى دار السلام » [2] .

(and God calls to the home of peace)

يقدم أمير الجماعة البطاقة إلى رب الأسرة ويتحدث معه حديثـا مختصراً ، ثم يدعوه للاشتراك فى الاجتماع فى المكان والزمان المحدد .

وتصل الدعوة إلى كل بيت فى المنطقة ويجتمع ممثلوا الوفد يؤدون

---

(١) البداية والنهاية ، مجلد ٥ ص ٩٨ .

(٢) يونس ٢٥ .

الصلاة هناك ، ويذكرون الله ويدعونه ، يتلون القرآن ، ولا يكون الأمر كما يجرى عادة حين يجتمع الناس وينشغل كل منهم فى حديث خاص مع الآخر بل يعم الذكر والعبادة والدعاء والتلاوة المكان ، فيفيض على المكان نور ربانى وجو من تسخير الباطن ، وتتضح من كلام المتحدثين خصوصية الصدق حتى يكون كلامهم مصداقا لقوله تعالى : **« وقــل لهم فى أنفسهم قولا بليغاً »**[1] . ثم يقوم الخطيب بإلقاء خطــابه فى النهاية بهذه المناسبة ويكون فيه نموذجاً لكل داعية مسلم .

٤ — وكما يوجد فى زماننا الحاضر صالات أو حدائق للاجتماعات، كان هناك **أيضا** لدى العرب القدامى جبل الصفا ، وهو فى الحقيقــة هضبة يقف عليها الإنسان ، وينادى فيجتمع الناس فيلقى فيهم خطابه.

أخرج **أ**حمد عن ابن عباس رضى الله عنهما قال : « لما أنزل الله **(وأنذر عشيرتك الأقربين)** أتى النبى ﷺ الصفا فصعد عليه ثم نادى : « يا صباحاه » فاجتمع الناس إليه بين رجل يجيىء إليه وبين رجــل يبعث رسوله ، فقال رسول الله ﷺ يا بنى عبد المطلب ! يا بنىفهر ! يا بنى كعب ! **أرأيتم** لو أخبرتكم **أن** خيلا بسفح هذا الجبل تريد **أن** تغير عليكم صدقتمونى ؟ قالوا : نعم . قال فإنى نذير لكم بين يدى عذاب شديد » .

وهكذا يمكن أن نســتخدم الأماكن الحاليــة كما كان يستخدم « الصفا » لإبلاغ دعوة الحق ، ويمكن أن تعقد مثل هــذه الاجتماعات التى تعطى فيها الفرصة لأهل جميع الديانات الأخرى حتى يقــدموا تعريفاً بأديانهم ويوضحوا أصولهم ، ثم يقف ممثل الإسلام فى النهاية ليعبر عن رأيه بطريقة علمية سليمة ، يشرح ما هو الإسلام ، وماذا

---

(١) النســـاء ٦٣ .

يجب أن يفعل المسلم ، وهذا الأسلوب له فائدة خاصة ، لأن الخطاب فيه خطاب غير شخصى ، وهكذا يمكن للانســان أن يقدم الدعوة إلى الإسلام بطريقة مباشرة . ولكن فى الحديث الشخصى يشعر الداعية بصورة عامة بقدر من التكلف فى دعوته للاسلام مباشرة ، وفى البلاد التى يسيطر فيها المسلمون على الوسائل الاجتماعية يمكن الاستفادة على نطاق واسع منها سواء باستخدام الإذاعة الإسلامية مثلما أنشــأت الإرساليات المسيحية إذاعة باسم « صوت الإنجيل » فى إفريقيا لتؤدى فريضة التبشير بالمسيحية .

٥ ــ وفى المركز الإسلامى يقام متحف إسلامى تجمع فيه الآثار التاريخية الإسلامية وذلك فى صورة وقائع وأحداث تاريخية ، ومن المعروف أن المسيح عليه السلام ومن سبقه من الأنبياء لا يوجد لهم أى تسجيل تاريخى معاصر ، ولهذا اعتبر هؤلاء الأنبياء شــخصيات أسطورية ، وليست شخصيات تاريخية . أما خاتم الأنبياء ﷺ فجميع الوثائق التاريخية وأحداث زمانه وحياته لاتزال باقية وثابتــة حتى الآن . وتجمع فى هذا المتحف كتب المؤرخين المعاصرين له ، تلك التى كتبت باللغة الآرامية واللغات الأخرى والتى تذكر صراحة « النبى الإسماعيلى » وكذلك ما أرسله النبى من رسائل إلى ملوك زمانه ، ويمكن الحصول على صور لهذه الرسائل ، كما أن أول نسخة من نسخ القرآن محفوظة فى مكتبة طشقند وهى النســخة التى رتبت تحت إشراف عثمان بن عفان رضى الله عنه ، ويمكن الحصول على صورتها ، وهناك أشياء أخرى من آثار النبى لاتزال موجــودة ، حتى شــعره وملابسه والأشياء التى كان يستعملها ، وهكذا توجد آثار تاريخيــة بحالتها الأصلية أو بصورتها ، فإذا أنشىء هذا المتحف على مســتوى يليق فسوف يكون مركزاً يقدم شهادة تاريخية ، يفد عليه الناس من جميع بقاع الأرض ، فالوثائق المتعلقة بالتاريخ الدينى تحمل قيمة أهم

وأعظم من النوادر الأثرية التى جمعت فى روما والتى يفد لرؤيتها الناس من جميع أنحاء العالم .

٦ — إذا ما أنشىء مثل هذا المركز وتضمن جميع الأقسام السابقة الذكر حيث تقام فيه الصلاة ويقام فيه ذكر الله والابتهال إليه ، ويتضمن مكتبة ومتحفاً إسلاميا ، وجميع النشاطات الإسلامية الأخرى من كل نوع ، فإنه يمكن أن تتحقق من خلالها أهم الفوائد ، وعلى سبيل المثال يقول الله تعالى فى كتابه الكريم :

« وإن أحد من المشركين استجارك فأجره حتى يسمع كلام الله ثم أبلغه مأمنه ذلك بأنهم قوم لا يعلمون » (١) .

يفهم من هذه الآية أن الله تبارك وتعالى يريد أن يكون « للاسلام مأمن » فى مقابل « مأمن الشرك » حيث يأتى الناس ليشاهدوا الإسلام ومظاهره ويستمعوا إلى رسالة الله ، وسيقوم المركز الإسلامى بجميع شعبه بأداء هذه الخدمة ، حتى إنه إذا وجدت الوسائل والسبل حمل الناس إليه حملا وبعد أن يشتركوا فى برنامجه يعادون إلى « مأمنهم » .

٧ — فى القرن الأول كانت فطرة العرب بمثابة أرض خصبة للاسلام ، وهذه الفطرة استبدل بها المجتمع العلمى فى العصر الحاضر . وحادثة « ووترجيت » المشهورة فى أمريكا (١٩٧٣) ، وبعدها محاسبة رئيس أكبر دولة « ريتشارد نيكسون » وهو على كرسى الحكم بأشد صورة ، ثم استقالته فى النهاية فى أغسطس سنة ١٩٧٤ ، مثل هذه الحادثة إما أن نجدها فى المجتمع الإسلامى أو فى المجتمع العلمى ؛ فالحقيقة أن المجتمع العلمى يصل إلى هذه الدرجة من الكفاءة التى نطلق عليها من غير قصد « الفطرة » ومثل هذا المجتمع يتكون وينمو

---

(١) التوبة ٦ .

فى تلك البلاد نتيجة للتعلم والتربيـــة العلمية • فى تلك البـــلاد إذا ما قدمت الدعوة إلى دين الحق مع مراعاة مزاج أهل البلاد ، فإنه من المؤكد أن يجد هذا الدين صدى فى قلوب الغالبيـــة العظمى منهم ، فالدقة مع الواقعية تحتل درجة هامة فى العلوم ، ولهذا يكون تأثيرها على العاملين فى مجال العلوم أكثر واعمق فيصل إلى داخلهم • إذ يظهر لديهم تلقائيا مزاج الفكر الدقيق ، وكان يطلق على الفلسفة قـــديما « ملكة العلوم » إلا أنه فى العصر الحديث لم تعد الفلسفة تتمتع بهـــذه الأهمية لأن عصرنا هذا هو عصر الدقة الفنية • وأسلوب الفلســـفة لا يمكن بحال من الأحوال أن يصل إلى مستوى الكفاءة الفنية ، وكان من نتيجة تأثير أسلوب التفكير العلمى انتهاء الاستشراق الغربى الذى ظهر قديما • إن هذا المزاج من الفكر الواقعى يتناسب تماما مع تبليغ دين الحق •

إن المجتمع العلمى يقدم أرضا خصبة تتفق مع الدعوة إلى الإسلام، ولا ننسى أنه فى هذا المجتمع أيضاً تواجهنا مشكلة ؛ فالعمل العلمى يتم عادة عن طريق التجارب الخارجية ، ومن هنا فلا يكفى للتأثير فى المجتمع تقديم الاستدلال الفكرى والنظرى ، فأهل هذا المجتمع يحتاجون — مع سماعهم للدرس الروحى — إلى تجربة روحانية يمكن أن يفهموا من خلالها بصورة عملية ما هى الروحانية ، وكيف يمكن تنميتها ، ويرى بعض الناس أن حل هذا الأمر يكون بالتصوف والأذكار ، إلا أن هذه كلها طرق غير مشروعة ولا يمكن إحياء السنة عن طريق البدعة •

وقد ورد إلى خاطرى هذا السؤال وأنا أعد هذا الكتاب بين يومى ١٣ و ١٤ يولية سنة ١٩٧٤ وقد رأيت حينئذ ، وكنت فى « دلهى » رأيت أننى مع بعض الناس من غير المسلمين ، وأننى أشرح لهم عن الإسلام ، وكانوا مثقفين ثقافة عالية ، ولهذا كانوا يحتاجون إلى التمكن من معرفة

صدق الإسلام بالتجربة ، فأجبتهم بكل ثقة أن هذا أمر ممكن ، وله شكل واحـد ، وهو أن يجربوا الصـلاة ، وهى أهم ركن من أركـان الإسلام العملية ، وكان الحديث باللغة الإنجليزية ونهضت من نومى وتذكرت هذه الفقرة :

Without being o muslim you can experience Namaz

« يمكن أن تجرب الصلاة بدون أن تكون مسلماً » • وبعدها طلبت من رفاقى الوضوء وقلت لهم إننى سأقوم بالصلاة على أن يقفوا ويرددوا معى ما أقول •

بعد هذا الحلم فكرت كثيراً فعرفت أن الصلاة لم تكن لها فائدة نظرية فقط بل كانت لها فائدتها العلمية أيضاً عبر التاريخ وخلال مرات كثيرة ، فيروى أن إسلام « هند جكرخوار » كان سببه الأول الصلاة ، ويكتب أحد علماء التاريخ الافريقى : « لقد انتشر الإسلام فى وسط أفريقيا عن طريق السياح والتجار العرب ، وكانت الصلاة هى أكبر معجزة تسببت فى نشر الإسلام فى أفريقيا حيث يقف الناس جميعا خلف إمام واحد يبدو على وجوههم الخوف من الله والرهبة منه فكان الناس يتحيرون ويندمون على عبادتهم للأصنام ، ومن ناحية أخرى فالعبادة الإسلامية كانت تجذب إليها الناس ، وكانت النتيجة أن الصلاة فقط كانت سبباً فى جذب معظم سـكان أفريقيا الوسـطى إلى كنف الإسلام » [1] •

ويكتب محمد حسنين هيكل (رئيس تحرير جريدة الأهرام سابقا) أن جمال عبد الناصر ذهب لأول مرة إلى روسيا وفى لقاءاته بتاريخ ٢٩ أبريل ١٩٥٨ أظهر رئيس وزراء روسيا خروتشوف شوقاً واهتماما بالصـلاة :

---

(١) Winwood Reade, Martyredom of Man, p. 32.

« كان لدى خروتشوف شغف كبير بمشاهدة منظر صلاة المسلمين، وبعد تناول طعام الغداء فى بيت خروتشوف شرع ناصر فى الذهاب إلى مسجد موسكو للصلاة ، فأخذ خروتشوف يسأله العديد من الأسئلة ، وكان ناصر مشغولا بالوضوء بينما كان خروتشوف يقف وهو يمسك له المنشفة ، لقد أظهر احتراما وتقديسا كبيرا (١) .

***

لقد اشترى بلد عربى جزيرة بجوار الساحل الأمريكى وجعلها مقراً للهو ، وليت هناك بلدا إسلاميا اهتم بالأمر فحصل على قطعة كبيرة من الأرض فى العالم الغربى فأقام عليها مركزاً إسلاميا على مستوى رفيع يضم مسجداً بالإضافة إلى بقية الأقسام الأخرى التى سبق ذكرها . وتعطى الفرصة لغير المسلمين أيضاً ليقوموا بأداء الصلاة مع المسلمين بدون عاطفة أو تعاطف يصلون عدة ركعات على سبيل التجربة ، وهناك أمل كبير أن تثبت هذه التجربة فائدتها ويدخل الناس فى دين الله أفواجاً ، وهذا القول ربما لا يجانبه الصواب وهو أن فتح العالم الغربى — الذى يبحث عنه قادتنا منذ قرن — إنما يكمن فى « الصلاة » كأعظم وسيلة للتأثير فيه.

---

(1) The Caira Documents

الإمكانيات الجديدة

قال بريدلى (١٨٤٦ — ١٩٢٤) إن العالم فى حاجة إلى دين جديد، نحن فى حاجة إلى عقيدة تحدد المصالح الإنسانية كلها ، وتقيمها على أساس تشريعى وتناسب ضرورى ، وتقدم للانسان شعوراً واحساساً يمكن أن يعتمد عليه بكل ثقة » (١) .

ولم يكد الفيلسوف الإنجليزى يعلن عن حاجة العالم إلى الدين الجديد فى الربع الأول من القرن الحالى حتى أعلن العالم الفرنسى دان دونواى (١٨٨٣ — ١٩٤٧) بعده بقليل عن توبته عن الإلحاد ، وعودته إلى الدين ، ونشر كتابه الشهير Humandistiny فكان ذلك علامة على عودة الإنسان إلى حظيرة الدين ، والآن وفى نهاية القرن العشرين ظهر هذا الأمر أكثر وضوحاً ، وزاد هذا الإحساس بعد التجارب المادية . إن فشل محاولات الإصلاح الاجتماعى من خلال القوانين الوضعية والتدابير الدنيوية قد أجبر العقول التى ظلت تهاجم الدين أن تلين أكثر ، حتى إننا اليوم نشهد حركة رد فعل مضادة تهدف إلى العودة إلى الدين ، وقد ظهرت هذه الحركة فى العالم كله .

وهذا جيل امريكا الجديد ، الذى آمن آباؤه وآمن اجداده بنظريات داروين وفرويد،يبحث الأن عن راحته وهدوئه فى حركة « ثورة المسيح Jests Revolution وحركة « صحوة كرشنا » Krishna Consciousness والشباب اليابانى وصل الى قمة الرقى ، ويشعر بالفراغ نظراً لعدم وجود قيم روحية ، ويقولون إن ثقافتهم ثقافة تجارية لا تقدم لهم سوى القيم التجارية Merchant values فقط .

---

(١) Essays on Truth and Reality, p. 446.

وقد وصل الأمر إلى أن الجيل الجديد فى روسيا ، وهو الذى نشأ وتربى فى أحضان المجتمع الملحد ، بدأ الاتجاه ناحية الدين • وفى اجتماع عقد لضباط هيئة معارضة الأديان فى موسكو بالاتحاد السوفيتى قال أحد الضباط وهو يذكر بطء الإجراءات التى تتخذ ضد الدين :

« إن عملنا فى مواجهة الدين يتحرك ببطء المحرك البخارى » •

وسمعه ضابط آخر فقال :

« محرك بخارى ! إنه الآن لم يكتشف حتى العجلة » •

إن جميع النظريات التى ظهرت فى القرن التاسع عشر فى مواجهة الدين والنيل منه قد أثبتت الحقائق المكتشفة عدم صحتها بطريقة تدعو إلى الدهشة ، فنظرية الارتقاء التى فهمت على أنها بديل عن الخالق هى اليوم بلا دليل ، وعلى سبيل المثال اكتشفت أساليب وطرق يمكن عن طريقها معرفة عمر الأرض بدقة ، إلا أن العمر الذى ذكرته هذه النظريات ضئيل جداً ، ولا يمكن قياسه بالنسبة لعملية الارتقاء للنماذج الموجودة فى الحياة الآن كما تقترح نظرية الارتقاء •

وقد قام عالمان ممتازان من علماء البيولوجيا بتقديم نظرية جديدة، وهما فرانسيس كريك Francis Crik وزميلة لزلى أورجل Leslie Orgel اللذان فازا بجائزة نوبل عن أبحاثهما المشتركة التى أثبتا فيها أنه لا يمكن تحديد أو تقرير أن مادة الأرض قد خضعت لنظرية الارتقاء ، فمن بين الأشياء المكونة للأرض مادة الموليبدينم Molybdenum ولها دور فى النظام البيولوجى • والنظام الإنزيمى يعتمد فى عمله على هذا المعدن ، وهذا المعدن — رغم أهميته الكبيرة غير العادية — يوجد بنسبة « اثنين فى الألف » من كل المعادن ، ومن ناحية أخرى فلا تصل المعادن الأخرى من مثل الكروميم والنيكل ، وهى تشبه فى

خصائصها « الوليبدينم » وتصل نسبتها بين معادن الأرض إلى اثنين فى المائة .

لا تصل هذه المعادن الى أهمية المعدن المذكور وذلك بالنسبة للنظام البيولوجى ، ويقول كريك وأورجل إن التركيب الكيميائى للأرض كان يجب أن ينعكس على تكوين الحيوات التى تكونت على الأرض ، ولما كان هذا أمراً لم يمض على إطلاقه ، فمن هنا يفترض العالمان أن هناك فى الفضاء الأعلى للحياة أماكن معمرة أرسلت إلى الأرض من لــدن حضارة أخرى راقية ، وكانت هذه القراءات هى الأساس العلمى الذى بنى عليه الكيميائى السويدى أرينيس نظرية Pans permia (١) .

مثل هذه الأشياء التى لا حصر لها ، وجدت فى زماننا الحالى ، وقربت تماما بين العلم أو بين الفكر الجديد وبين الدين ، وقــد تم اكتشاف أمور أخرى عديدة فى جميع أفرع العلم فى العصر الحديث تثبت صدق المعتقدات الإسلامية بطريقة حيرت العقول ، وهزت الذهن الإنسانى .

لقد آذى العرب القدماء المعارضون لكلمة التوحيد . آذوا الناطقين بهذه الكلمة إيذاء جعلهم لا يتمكنون حتى من الجلوس ، وأجبروهم على ترديد كلمات « اللات والعزى إلهان من دون الله » ، وقد أثبت تطور العلم اليوم أن هذه الأمور — أى الشرك بالله — لا أســاس لها من الصحة ؛ ففى العلم الحديث أصبح الإيمان بربوبية أى كائن من الكائنات أمراً لا معنى له ، فلا وجود للشرك فى دنيا العلوم . فإذا وجد عقل شجاع قادر على الاختيار وإذا وجد معه علم عميق حديث .

---

(١) تعنى هذه النظرية أن الحياة جاءت من خارج الكرة الأرضية .

فإن إثبات الدين اليوم إنما يتم على مستوى عال ويكتسح جميع النظم الفكرية الحديثة .

١ — ان أهم الاكتشـافات العلمية الحديثـة من وجهـة النظر الإسلامية هى : الأسـلوب المنهجى الحـديث ؛ فحتى بداية القرن العشرين كان من الضرورى لإثبات صحة أى استدلال أن تكون هناك علاقة قرابة أو علاقة مشتركة بين الدعـوى والشىء الذى يدعى فى حقه ، تماما كالعلاقة بين مفتاح الكهرباء وبين المصباح الكهربائى المتصل به . وبعبارة أخرى يلزم لإثبات واقعية نظرية ما أن تكون قابلة للعرض والاعادة ، لكن هذا التصور انتهى الآن ؛ فالموقف العلمى اليوم هو أنه إذا وجدت الحقائق أمكن عن طريقها أن يستنبط العـالم نظريته ، ويمكن الاعتراف بهذه النظرية المستنبطة بطريقة علمية كواقع ، وطبقاً لهذا المعيار الاستدلالى الحديث تمت دعوى نظرية الارتقاء لأنه مهما كانت غير مشاهدة إلا أن علماء الأحياء اكتشفوا حقائق تثبت الارتقاء كاستنباط علمى .

وانطلاقا من هذا المعيار الاستدلالى فإن الاكتشافات العلميـة الجديدة تصل بالإنسان إلى أمر هام جداً من وجهة النظر الإسلامية ، فحتى قبل خمسين سنة لم يكن من الممكن لنا أن نثبت المعتقدات الدينية على مستوى (الاستدلال العلمى) لأن العلم فى ذلك الوقت كان يعترف فقط بالحقائق المشاهدة ، ولم يكن هناك أى مكان داخل المجال العلمى للحقائق المستنبطة ، ولكن الاستدلالات التى يقدمها القرآن الكريم للتعبير عن حقائق العالم اللامحسوسة ، عن طريق واقعات العـالم المحسوسة هى على الأقل استدلالات علمية خالصة وقائمة على أصول ثابتة . ولم يكن من الممكن — قبل نصف قرن — أن يقوم أحد بالاعتراف بهذا الأمر كاستدلال علمى ، وهذا مجال واسع واستغلاله يمكن أن يكون بمثابة قوة كبيرة تعضد الإسلام فى ساحات النقاش وعلم الكلام .

٢ — والمسائل العقلية التى راجت فى زمان ابن رشد (١١٣٠ — ١١٩٨) كان إطارها قائما على المنطق القياسى لأرسطو ، وقد شاهد ابن رشد الكائنات من خلال إطار هذه المسائل العقلية القياسية ، فلم يتقبلها عقله ، فكيف ينكر قدم المادة ؟ ! لقد آمن بأن المادة قديمة وعلى أساس هذا الإيمان وضع أساس فلسفته الإلهية ، ولكن الحقيقة أنه بعد الإيمان بقدم المادة لا يمكن أن يبقى هناك أساس حقيقى للالهيات؛ فنظرية قدم المادة تنكر تماماً خالق الخلق ومبدعه ، وبعدها ، لن يبقى هناك مجال لله من حيث كونه « المحرك الأول » • والحقائق المكتشفة فى زماننا الحالى وعلى سبيل المثال « القانون الثانى للحرارة الديناميكية» Second low of Thermadynamics قد أنهى تماماً وإلى الأبد حكاية قدم المادة • وهكذا فهناك حقائق عديدة تعطينا الفرصة للتمكن من وضع الأدلة الدامغة للعقائد الإسلامية على أسس بالغة الإحكام •

٣ — هناك قضية كبيرة أوجعت دماغ الإنسان آلاف السنين دون أن تجد حلا ، وهى أن العلماء والحكماء الذين راحوا يحاولون حل لغز الكائنات عن طريق العقل ، وصلوا إلى أقصى حدود السمو العقلى ثم فشلوا فى حل هذا اللغز ، وهذا هو السبب فى أن الفلسفة حتى الآن ظلت تعمل على التشكيك فقط ، ولم تتمكن من الوصول بالإنسان إلى العقيدة الثابتة • وقد أوضح القرآن الكريم أن الإنسان أعطى علماً قليلا (الإسراء — ٨٥) (١) ، والإنسان عن طريق بحثه العقلى يمكن أن يصل إلى حد معين من الحقيقة ، ولا يمكن أن يصل إلى نهاية الحقيقة ، ومحاولة الوصول إلى نهاية الحقيقة لن تنتهى إلا بالفشل ؛ ولهذا فالأمر الواقع هو أن يعتمد الإنسان بعد الوصول إلى هذا الحد

---

(١) يشير الى قوله تعالى : « ويسألونك عن الروح قل الروح من أمر ربى وما أوتيتم من العلم الا قليلا » .

المعين على أسلوب الإلهام ، وكانت هاتان الوجهتان موضوع الأبحاث القياسية فى الماضى ، وفى الوقت الحاضر أعطى العلم قراره إلى جانب القرآن بطريقة مدهشة .

لقد اكتشف العلم أن الإنسان يمكن أن يصل بالأسلوب العقلى إلى العلم الجزئى فقط ، حتى أن نظرية « الجحور السوداء » Black Holes تدل على أن المادة لا يشاهد الإنسان منها إلا ثلاثة بالمائة فقط و ٩٧٪ من المادة لا يمكن أن يشاهده الإنسان ، وهذا الاكتشاف العلمى الجديد أعطانا الفرصة لنتمكن من إثبات موقف القرآن بأحدث الطرق العلمية وأن ندلل على معقولية الحقائق الإلهامية على مستوى علمى جديد .

وما يثبته العلم الجديد من أمور يتطلب دائرة معارف ، ونحن هنا سنشير إلى بعضها على سبيل المثال :

* إن النتائج التى توصلت إليها العلوم أثناء البحث فى عالم الفطرة أثبتت بطريقة محيرة أن هناك عقلا ما وراء هذه الكائنات ، هذا العقل هو الذى قام بخلقها وهو مدبرها ، والكائنات التى اكتشفها العلم كائنات لا تعمل فى فراغ كما أنها منظمة تماماً وبدقة مذهلة ، حتى أن الأمر يكون هراء إذا لم نسلم ونعترف بأن وراءها خالقا ومالكا .

* أهم نقاط الخلاف بين الإسلام والأديان الأخرى تتمثل فى قضية الشرك ، التوحيد ، فيصعب على الناس تقبل فكرة أن هذه الدنيا التى تضم مختلف الأشكال والأنواع يمكن أن تكون لإله واحد لا شريك له . إلا أن الاكتشافات العلمية قد أكدت تماماً قرارات العلم الأخيرة المتعلقة بهذه القضية جنبا إلى جنب مع نظرية التوحيد الإسلامية ، وهذه القرارات تعنى ان الكائنات ليست فقط واحدة من ناحية خضوعها كلها لقانون كلى واحد ، بل إن تحليل مادتها إلى

النهاية يثبت أنها من هذه الناحية واحدة أيضا أى الذرة أو الموجات الكهربائية غير المرئية .

* وصل العلم إلى آخر مراحله فأثبت بما لا يدع مجالا للشك أن وسائلنا العلمية قد قدمت لنا فقط علما جزئيا من عالم الواقع فهو لا يمكن أن يحيط بكل شىء ، وهذا الأمر ليس صحيحا من ناحية وسائل المشاهدة الحالية فقط بل إن نوعية الحقائق هى من النوع الذى لا يمكن مشاهدته أبداً بما لدينا من كفاءات طبيعية محدودة . ويفهم من هذا أن الإنسان يحتاج إلى وسيلة أخرى لفهم عالم الحقائق بالإضافة إلى ما يمتلك من علوم حسية .

* اكتشف العلم ان الحقيقة فى شكلها الأخير غير قابلة للمشاهدة ويمكن أن نستنبط مظاهرها فقط ، ولا يمكن أن نراها بطريقة مباشرة وهذا يؤكد تماما موقف الإسلام الذى يوضح أن الإنسان لا يمكن أن يشاهد الله أو عالم الآخرة فى الحياة الدنيا ، ولا شك أن البحث فى مظاهر الكون يمكن أن يؤدى إلى اكتشاف الحقيقة الإلهية .

* لقد أثبت العلم أن القانون الإلهى يفوق القانون الوضعى فيما يخص العلاقات الإنسانية وعلى سبيل المثال جعل الإسلام الرجال قوامين على النساء (النساء — ٣٤) (١) بينما أكد القانون الوضعى عكس هذا الأمر : المساواة بين الرجل والمرأة . إلا أنه ثبت بطريقة علمية خالصة أن المرأة أضعف من حيث الخلقة وأن الرجل هو الجنس الأقوى بالنسبة للمرأة .

كان أهم أساس وضع عليه فلاسفة العصر القديم معارضتهم للدين هو « مسألة القدم » أى أن الكائنات موجودة منذ الأزل ، فإذا

---

(١) يشير الى قوله تعالى : « الرجال قوامون على النساء بما فضل الله بعضهم على بعض وبما انفقوا من اموالهم » .

كانت موجودة منذ الأزل فما هى ضرورة الإيمان بالخالق ؟ ! إلا أن العلم الحديث قد أثبت أن عمر العالم محدود ، وهكذا تم القضاء على هذه النظرية تماماً ، وبعدها بدأ الإنسان يعتمد على نظرية الارتقاء ، إلا أنه ثبت هنا أيضا أن العمر المحدود للأرض لا يمكن أن يكون كافيا لخلق الإنسان الحالى طبقاً لنظرية الارتقاء فى الخلق .

وقد أثبت العلم أن الحقائق الموجودة فى الكائنات لا يمكن أن نقيم على أى منها الاستدلال المباشر أيضا ، وما يمكن أن نفعله هو أن نصل إلى قرائن استنباطية عن طريق بعض المشاهدات الظاهرية ، ومن هنا نصل إلى وجود الحقيقة ؛ وهكذا فقد أثبت العلم صحة الاستدلال علميا عن طريق الواسطة ، وهذا هو الأساس الذى قام عليه الاستدلال على الدين .

قدم الإسلام نظرية خلافة الشورى فى السياسة . وقد سيطرت قديماً فكرة الملكية الوراثية على العقول ، وكانت هـذه النظرية غير مقبولة ، إلا أن الثورة الجمهورية الجديدة قد جعلت نظـام خـلافة الشورى الإسلامية من الأمور المفهومة لدى إنسان اليوم .

أعلن الإسلام أن للضعفاء حقاً فى كسب الإنسان القوى ، ولهذا صدر قانون الزكاة ، إلا أن هذا النوع من النظام الاقتصادى لم يكن مفهوماً لدى الإنسان قديما ، وبعد وفاة الرسول ﷺ حدثت مسـألة الـردة .

وفى زماننا الحالى جعلت الثورة الاشتراكية هذا الأمر مقبولا ، أى وجوب وجود حق للآخرين فى كسب شخص ما ؛ مع أن الاشتراكية قد أخطأت فى فكرة أن يكون للآخرين حق فى ملكية الشخص مع أن الصحيح هو أن يكون للآخرين حق فى « الدخل » فقط .

وهناك أمر لم يفهم جيداً حتى الآن ، وهو أن عصر العـلم هو حقيقة عصر الإسلام وما حدث صدفة وعلى سبيل الخطأ هو وجـود صراع بين العلم والمسيحية حتى وصل إلى قضية الإلحاد . ما هو العلم ؟ هو ملاحظة الفطرة ، والفطرة ودين الفطرة هما وجهان لحقيقة واحدة . وهذا هو السبب فى أن القرآن أوضح أن عصر العلم ليس أبداً خطرا على الإسلام بأى حال من الأحوال بل العلم وسيلة لتبيان الحـق :

« سنريهم آياتنـا فى الآفاق وفى أنفسـهم حتى يتبين لهم أنه الحـق » (١) .

وعصر العلم لم يبدأ فى أوروبا بل بدأ فى الأندلس وصقلية فى القرن التاسع والعاشر والحادى عشر الميلادى ، وتؤكد حقائق التاريخ أنه لم يوجد صدام من أى نوع فى ذلك الوقت بين العـلم والدين . والعلم كان يتطور فى ذلك الزمان ليخدم الدين ، ولكن حين قام الأتراك بإخراج العلماء البيزنطيين من الآستانة ومن القسطنطينية فى القرن الخامس عشر ، فهاجروا بعد ذلك ووصلوا إلى إيطاليا ــ حينئذ انتقلت أبحاث علوم الطبيعة من العالم الإسلامى إلى أوروبا وهنا اتخذ تاريخ العلم وجهاً جديداً تماما .

وواجه العلم دنيا تسيطر عليها المسيحية فالواقع أن التعـاليم الحقيقية لموسى وعيسى عليهما السلام هى نفسها تعاليم محمد ﷺ ، إلا أن الشىء الذى تقول به المسيحية هو شىء يعبر عن مذهب معتل ، يضم أموراً إنسانية خلطت مع التعليمات الإلهية ، وهى بشكلها الحالى لا تمثل الدين تمثيلا صحيحاً ، وهذا هو السبب الذى لم يجعل العلم يصطدم بأى شكل مع الدين فى بغداد وقرطبة ، بينما اعتبروا العلم فى

---

(١) فصلت ٥٣ .

كل من إيطاليا وفرنسا عدواً للدين . وقد توصل علماء الفلك المسلمون إلى مقياس يجعل من الإمكان أن تكون الأرض هى التى تدور حـول الشمس ، وذلك على عكس الغرض الذى افترضه أرسطو ، وعندئذ لم يعتبر أى مسلم هذا الأمر معارضاً للدين ، وبعدها حين قال نيكلسون كوبرنيكس (١٤٧٣ — ١٥٣٣) بهـذا الأمر اعتبرته المحكمة المسيحية مجرماً لأنه يحقر من شأن ابن الله فيجعل حياته تابعة للأجرام السماوية الأخرى ، وقد أكد ابن مسكويه (— ١٠٣٠) أفكار الفلاسـفة اليونانيين ودافع عن نظرية الارتقاء فى الأحياء ، فلم يتعرض الدين لأى خطر ، ولكن حين قدم تشارلز دارون (١٨٠٩ — ١٨٨٢) هذه النظرية شاع الهرج والمرج فى الدوائر المسيحية الأوروبية .

يشير القرآن والكتاب المقدس إلى أن الأرض خلقت فى « ستة أيام » وإدراك العلم لهذا الأمر لم يعتبر تصادماً أبداً مع القرآن ، وقد قال العلم إن خلق الأرض مر بأدوار أكثر من هـذا البعد الزمنى لأنه ورد فى القرآن صراحة أن المراد بـ « سـتة أيام » ، ليس ستة أيام مما يعدها الإنسان ، بل هى ستة أيام من أيام الله ، وعلى العكس من هذا فإن ما جاء فى الكتاب المقدس نتيجة لإضافة الكلام البشرى وخلطه جعل المقصود بالأيام ، أيامنا نحن التى تعنى الليل والنهار وما يعده الإنسان طبقاً لإدراكه لتتابع الليل والنهار ، ولهذا اعتبر كافراً كل من يؤمن بالاكتشافات العلمية فى نظر المسيحية ، وتوجد أحداث كثيرة من هذا النوع تثبت أن الصراع الذى حدث بين الدين والعلم إنما هـو فى الحقيقة صراع بين العلم والمسيحية ولو أن تطور العلم — كما كان فى بداية ظهوره — قد تم فى العالم الإسلامى لتغير وجه التاريخ الآن عما هو عليه .

فالقرآن والكائنات كلاهما وجهان لحقيقة واحدة ؛ فالقرآن مظهر

لتصريف الكائنات ، والكائنات تمضى بتدبير الأمر « **يدبر الأمر يفصل الآيــات** »[1] ، والعلم ليس سوى مشاهدة « تدبير أمر » الله ، هذا بالإضافة إلى أن علاقة هذا التدبير بقوانين الفطرة موجودة لأن كليهما يعملان دائما فى حالة متشابهة متماثلة ، ولهذا فيلزم لمعرفتها ولاستخدامها أن يوجد هناك انضباط فكرى لنوع حسابى على مستوى الدقة • وهذا هو السبب فى أن البلاغة المتناهية على مستوى الأدب والخطابة يقابلها صحة الفكر ودقته فى مجال العلم ، ومن هنا فالعلم يخدم الإســلام من ناحيتين : الأولى أنه يساعد الإنسان على أن يشاهد (الآء ربه) ، وهذه هى الوسيلة الوحيدة لمعرفة الله فى هذا العالم ؛ والثانية أن الفكر الذى يقوم على الأسلوب العلمى هو — بالتحديد — ما يريده القرآن من الإنســان •

والحقيقة أن حدوث صدام بين الدين والعلم كان مجرد حادثة عابرة ، فلم تمض فترة بســيطة — أقل من قرن — حتى قوى المنطق الأساسى للعلم وبدأ العلم يعود لحالته الأصلية •

بعد الحروب الصليبية (١٠٩٩ — ١٢٧٠) تحول العلم — من وجهة النظر الإسلامية — إلى صورة استشراق • ظهر الاستشراق فى أوروبا وقام بتسميم جميع الآداب الغربية بأفكار مضادة للاسلام ، وكان هذا فى الحقيقة استخداما جديداً للطريقة القديمة للأمم المسيحية ، طريقة الخديعة المقدسة Pious Frand ، فقد كان البديل عن فشل الحروب الصليبية قيامهم بمحاربة أهل الإسلام ، فاستخدموا أسلوبهم هــذا فى العمل ضد الدين ، وكانت أوروبا كلها تحت سيطرتهم ، ونجحوا فى هذا الأمر لدرجة أنهم مــلأوا — ليس فقط كتب التاريخ والكتب

---

(١) الرعــد ٢ •

الدينية بالأفكار المضادة للاسلام — بل أيضا كتب المعاجم والأدب . ولم تنج من هذا الأمر أيضاً مسرحيات شكسبير أو أشعار ملتن ، ولما كانت هذه الكتب التى طبعت فى أوروبا هى الوسيلة الوحيدة لقراءة الموضوعات العلمية فى العصر الجديد ، فإن الاستشراق الغربى ترك تأثيره الشديد ليس فقط على العقلية الأوروبية بل على العالم المثقف كله .

ووصل القرن التاسع عشر إلى نهايته وظهر تفسير قوله تعالى : « **والله غالب على أمره** » (١) . وظهر طوفان من الأفكار الموضوعية سيطر على العلم ، وسيطر على الدنيا كلها ، وكان تأثيره على الاستشراق واضحاً فى كتاب « الأبطال والبطولات » لتوماس كارلايل (١٧٩٥ — ١٨٨١) وبعدها استمر هذا العمل وفى النهاية وصل الأمر إلى أنه كما قام فيضان الجمهورية بجعل الملكية الوراثية بلا معنى من وجهة نظر علم السياسة . لم يعد لهذه العقلية أى ظل علمى فى الدنيا، وهى عقلية التشكيك والتشوية فى تعاليم وتاريخ دين ما للاساءة إلى هذا الدين . وهكذا تعرض الاستشراق القديم للموت المفاجىء .

ومثال آخر على هـذا التحول ، ألا وهو الحركة العقلية الجديدة التى أطلق عليها خطأ Antiscenice (حركة مضادة للعلم) بينما هى أصلا مضادة للمادة Anti material لا مضادة للعلم ، وعلى العكس من الأمثلة المذكورة سابقاً فإن هذه الحركة لم تتخذ لنفسها حتى الآن اتجاها واضحا وهى فى معظم الأمر حركة رد فعل ، وليست حركة مستقلة ، فقد كان من نتيجة الحضارة الصناعية وحرية المرأة ، تفكك الأسرة ، وخلو علاقة الرجل بزوجته من القدسية الدينية ، وأصبحت مجرد علاقة جنسية ، ونتج عن هذا الأمر زيادة حالات الطلاق وحرمان

---

(١) يوسف ٢١ .

الأطفال من تربية الوالدين وإضافة عدد آخر إلى عدد المجرمين المتزايد حيث تشهد البيوت يومياً حالات الطلاق المتكررة ، وبينما يخرج الزوج والزوجة كل إلى عمله ، يوضع الطفل فى دار حضانة أو مركز للرعاية ، وهكذا يحرم من حضن الفطرة ، ويسلم إلى حضن الآلة ، وجاء فى تقرير أمريكى ان هذا الأمر أدى إلى نتيجة فظيعة وخطيرة فقد ظهر مرض انتشر بين الأطفال أطلق عليه (أوتزم) وفيه يكون الطفل سليما صحيحا جسمانيا وخاليا من كل الأمراض فى الظاهر بينما هو ذو عقل معتل مليىء بخلل عجيب ، وهناك العديد من المشاكل من هذا النـوع مما جعل الناس يملون الحضارة الصناعية ، ويهربون منها ، ويرفعون شعارات العودة إلى الفطرة ، وقد قام فريق من علماء علم الاجتماع البريطانيين بإجراء تحاليل وأبحاث أثبتوا من خلالها أن مجتمع الإباحية Permissive Society قد وصـل إلى نهايته فى بريطانيا ، وبدأت العودة الى العهـد الفيكتورى الذى كان يعتقـد أنه انتهى تماماً وإلى الأبد فى القرن التاسع عشر ، وقد نشر كتاب لأحد المؤلفين الفرنسيين فى أمريكا ويدعى (جين فرانكوانس ديويل) عام ١٩٦١ م واسـمه Without Marx or Jesus ، ويتضمن الكتاب ٢٧٥ صفحة يشرح فيهـا المؤلف وجود ثورة فى هذا العالم ، إلا أنها ثورة لا تقوم على الإلحاد أو الدين بل تقوم على قيم جديدة فى الحياة سيكون من أكبر مظاهرها قيام حكومة عالمية وهذا هو الهـدف الممكن والوحيـد لأية ثورة . (ص ٨٣) .

وتوجد أمور أخرى مشابهة لا حصر لها تحدث فى العالم الغربى اليوم ، وهى ليست دليلا على فكر مستقل بل هى دليل على أن الإنسان مصـاب بالاضطراب نتيجة للحضارة المادية ، ومن هنا راح يبحث عن حضارة أفضل . وحتى بعد الحرب العالمية الثانية أعلن الألمـان أنه لا مشكلة لديهم طالما ظل دخان المصانع يتصاعد من المداخن ، ثم ظهرت

اليوم قضية شائكة تمثلت فى تلوث البيئة بدخان المصانع ، وهــذه قضية تحتل مكانة ثابتة بعد الحرب الذرية المتوقعة ، وقد حــذر د . اينى دوبوز أحد أساتذة جامعة روكفلر (بنيويورك) العالم من أن التلوث الصناعى سوف يسلب الإنسان العديد من خصائصه ، حتى أن هناك خطورة تتمثل فى تحول الإنسان إلى درجة دنيا من الإنسانية (١).

وهذا النوع من نتائج الحضارة المادية قد سلب الإنسان الحديث هدوءه وراحته ، رغم ما وصل إليه من تطور ورقى ، ففى العالم الغربى اليوم كتبت المؤلفات الكثيرة التى أسهبت فى الاعتراف بهذه الحقيقة ، وعلى سبيل المثال كتاب Waltor kerr المسمى بـــ Decline of pleasure (1962) – يقول المؤلف الأمريكى فى كتابه الذى يتضمن ٣٢٥ صفحة ، ان « أهل أمريكا ليسوا سعداء اليوم ، فعلى الرغم من أن الجيل الأمريكى يمر اليوم بفرص عديدة سواء من ناحية سبل الراحة أو ما يملك من امكانيات ، أو عمر طويل – فلديه كل ما كان يحلم به الأجــداد – إلا أنه جيل يشعر بالتعاسة رغم كل هذا » .

كتبت جريدة التايم (١٨ يناير ١٩٧١) فى مقال لها بعنــوان :
Avoyage to utopia

« فى سنة ١٨٤٠ م كان كل أمريكى يحمل فى جيبه خططاً جميلة للمستقبل ، تماما كما يحمل منديله فى جيبه ، لكننا نجد اليوم جيوب الأمريكيين وقد خلت من هــذا النوع من الرغبة ، فقد يئس الناس من الظروف الاجتماعية تماما وانتهت تصــورات بنــاء المجتمع الراقى السامى ، وبدلا من فكرة بناء جنة على الأرض أصبح الجميع يميلون إلى البحث عن الجنة فى داخل ذاتهم ، إن دمار اليوم قد جعل عدداً كبيراً من مفكرى العالم يضعون آمالهم وعقائدهم على أرواحهم كآخر ملجأ للمثالية ، وبدأوا يحثون على الاتجاه للروحانيات بدلا من الماديات

---

(١) لا مجلة لايف ٢٤ يولية ١٩٧٠) .

حتى أن بعض الناس يقول إن عملية السمو هذه إنما تصل بالحضارة الى أعلى مراحل الشعور وتصل بالإنسان فى النهاية إلى أسمى وأعلى حقيقة أى إلى الله » •

واعتقد الأمريكيون بعد العصر الصناعى أنهم سيجدون نجاتهم فى التكنولوجيا ، وقام المؤلفون برسم خطط ونماذج عظيمة ورائعة ، الا أن التكنولوجيا قد اثبتت فشلها فى توصيل الإنسان إلى سعادته ؛ فسبل التكنولوجيا ووسائلها بدأت تستخدم بسهولة كبيرة فى تدمير الإنسان بدلا من تطويره ، والإنسان حين يصل إلى آخر مراحل الجنة الآلهية فإنه يتعرض لقضايا صعبة مذهلة ، وهذا ليس مجرد مصادفة ، بل هو أمر يمضى على سنة الله ، فهو يخلق ظروفا داخل حياة الناس الغافلين تضع أمامهم دائما علامة استفهام •

« ظهر الفساد فى البر والبحر بما كسبت أيدى الناس ليذيقهم بعض الذى عملوا لعلهم يرجعون » (١) •

لقد أرشد الله الناس إلى خيرهم ، وعلى ورثة نبى آخر الزمان الآن أن يعملوا على الاستفادة من هذه الأرض ، فيحاولوا إيضاح دين الحق حتى يقبله الإنسان الجديد • لكننا — للأسف — لم نشاهد مصلحينا يقومون بهذا العمل ، وعلى العكس من هذا انضموا معاً فى قتال وصراع سياسى مع الأمم التى يدعونها إلى الدين وهو صراع لا نتيجة له ، وناتج عن جهل كبير بأسلوب الدعوة إلى الدين •

وفى العصر الحديث حين استولت الأمم الغربية على البلاد الإسلامية ظهر سؤال أمام جميع البلاد الإسلامية وهو : ما العمل لمواجهة هذه الأمم ؟ • كان أساس العمل فى ذلك الوقت هو وضع

---

(١) الروم ٤١ •

خطة مستقلة فى ضوء التعليمات الدينية ، وفى ضوء سنة رسول الله ﷺ ، ثم الاجتهاد من أجل تطبيق هذه التعليمات وتنفيذها ، وعلى العكس من هذا مضت قافلة مجاهدينا على طرق ردود فعل سلبية •

وقد كان لردود الفعل هـذه اتجاهان اثنان ، أولهما ظهر نتيجة للدفاع النفسى ، فقد حاول هؤلاء الناس أن ينفثوا روح الدين فى المسلمين طبقا للأساليب التقليدية الرائجة ، وعلى سبيل المثال إنشاء مدارس للتعليم الدينى ، عقد اجتماعات دينية لتعليم عامة الناس العقائد الإسلامية وتعليمهم العبادات والاجتهاد ، والعمل من أجل الحفاظ على مصالح المسلمين الخاصة وغير ذلك •

والاتجاه الثانى كان اتجاها فى معظم الأمر تتزعمه طبقة ثورية تقدم مقترحات جريئة •

وقد أشعلت كتابات هؤلاء المفكرين الثوريين وخطبهم النار فى العالم الإسلامى كله •

وكان هدف جميع هذه الحركات الاستقلال بدولة إسلامية ، ونال كل منهم شهرة غير عادية ، إلا أنها جميعا فشلت فى تحقيق هدفها ، والسبب الوحيد هو أن هـذه الحركات جميعها جعلت من السياسة (وحدها) ميداناً لعملها ، وهذا أدى بها إلى الخروج عن الطريق المستقيم للاسلام بصورة نظرية فلم تتمكن من استحقاق النصر الإلهى •

كان الجانب العقلى والنظرى يقتضى أن يجعل هؤلاء من الدعوة الإسلامية الشاملة مجالا لعملهم ، فهذا هو المجال الذى يتفوقون فيه على معارضيهم بطريقة واضحة وصريحة ، إلا أنهم لم يستطيعوا أن يرتفعوا الى مستوى الظروف • وظهرت من ناحية حركات تهدف إلى تجريح الإسلام من جانب الاستعمار الغربى ، ومن ناحية أخرى قامت

حركات تدعو إلى الجمهورية الاشتراكية وحولت مزاج العالم كله إلى التفكير فى أسلوب سياسى معين ، هذه العوامل جعلت الحركة الإسلامية تأخذ فى تفكيرهم نوعا من الحركة السياسية فأخذوا يدفعونها للسير وفقا لمخططات وقتية بدلا من أن يدفعوها إلى الصراط المستقيم الأزلى الخالد .

وقد وصل السيد جمال الدين الأفغانى إلى هذه الحقيقة قبل قرن من الآن ، وهى أنه فى مجال الدعوة توجد فرص عظيمة لنجاح الإسلام ، فقال فى هذا الصدد :

« إن أهل أوروبا مستعدون لقبول الإسلام إذا أحسنت الدعوة إليه ، فقد قارنوا بين الدين الإسلامى وبين غيره فوجدوا البون شاسعاً من حيث يسر العقائد وقرب تناولها ، وأقرب من أهل أوروبا إلى الإسلام أهل أمريكا لأنه لا توجد بينهم وبين الأمم الإسلامية عداوات موروثة فلا أضغان مدفونة مثلما هو الحال بين المسلمين والأوروبيين » (١) .

كتب المفتى محمد عبده التلميذ المتميز لجمال الدين الأفغانى :

« حين كنت فى باريس (١٨٨٤) عرضت عليه أن نترك السياسة وأن نبتعد عن أنظار الحكومة ونعمل بالتبليغ ، وهكذا يمكن أن نؤدى عملا له نتيجة رائعة خلال عشر سنوات ، إذ أننا فى مجال السياسة لا تساوى قوتنا مهما ملكنا من قوة أى شىء ، فأجاب الأفغانى قائلا :

« إنما انت مثبط » (صفحة ٥٠) .

فى القرن التاسع عشر ظهرت ثورتان كانتا على درجة كبيرة من الأهمية من وجهة النظر الإسلامية : الأولى تمثلت فى تصحيح

---

(١) جمال الدين الافغانى ، تأليف محمود ابو رية ، ص ٢١٣ . القاهرة ١٩٦٦.

الاستشراق الذى استمر سبعمائة سنة ، وكأنه كان اعترافاً عمليا من أهل الغرب بصدق الإسلام ، والثانية ظهور فن النقد الأعلى Higher critisism وكان بمثابة اعتراف بالقرآن دون كتب الملل الأخرى ككتاب ثابت تاريخيا ، وهكذا وضع القرن التاسع عشر أرضية علمية على مستوى رائع للدعوة الإسلامية بطريقة مدهشة حقاً ، هذا بالإضافة إلى أن هذا كان هو الوقت الذى اشتدت فيه حركة التحرير الفكرية فى أوروبا بكل ثقلها وبكل حدتها وقضت على التعصب الدينى القديم ، وكان من نتيجة هذا الأمر أن بدا ممكنا لأول مرة فى التاريخ قيام حركة الدعوة لدين الحق فى جو من الأمن والطمأنينة .

ووسط هذه الظروف أصبح من الممكن ممارسة الدعوة الإسلامية بطريقة مؤثرة إلا أن هذا هو القرن الذى قام فيه معظم مصلحينا بإثارة معارك سياسية مع الأمم الغربية حتى أن شعار القومية (مثلا نظرية القوميين – أو مصر للمصريين) أصبح بمثابة جدار بين المسلمين وبين الأمم الأخرى . فإذا ما دار بخاطر البعض أن ينهضوا للدعوة إلى الإسلام قاموا فقط بتكوين جبهة مناظرة ضد الأمم الأخرى لا يمكن أن ينتج عنها سوى غرس الكراهية فى القلوب وإبعاد الناس عن الإسلام أكثر مما هم بعيدون عنه . وفى هذا العصر ظهرت عدة علامات وظواهر توضح بصورة عملية وجود إمكانيات جديدة لحركة الدعوة الإسلامية . ففى بلاد الغرب أشهر كبار المفكرين إسلامهم (مثلا محمد أسد وعبد الكريم جرمانوس) . أو اعترف البعض منهم علانية وصراحة بتفوق الإسلام (مثلا جورج برناردشو ١٨٥٦ – ١٩٥٠) .

وظهر أناس طلبوا أيضا علانية من المسلمين أن يقوموا بالدعوة إلى الدين ، وأصبح من الإمكان أكثر من أى فترة سبقت أن تعترف

الدنيا كلها بالإسلام (مثلا لورد لوثين ١٨٨٢ — ١٩٤٠) . إلا أن هذه الوقائع والحقائق لم تجد عيناً بصيرة من المسلمين ، فقد اعتبروا أن كمال الإسلام هو تقديم التضحيات والأضحيات للصراع السياسى .

ورغم جهلنا المستمر فلاتزال إمكانيات نشر دين الحق باقية حتى اليوم أيضا وبصورة كاملة ، فقد أعلن كل من بانجو رئيس الجابون سنة ١٩٧٣ ، والرئيس بوكاسا رئيس أفريقيا الوسطى سنة ١٩٧٦ ، ورأجه واتوك أمير سراوك سنة ١٩٧٧ إسلامهم . وهناك أمثلة أخرى عديدة تعد شواهد جديدة على الإمكانيات المتوفرة للدعوة الإسلامية فى العصر الحديث وهذه الأحداث توضح من أين يجب أن نبدأ كفاحنا من أجل أن نكسب من جديد معركتنا الضائعة .

« إن الإمانة الفكرية ينالها من هو على استعداد لدفع قيمتها المادية » ، هذه مسلمة تاريخية ، وهذا هو السبب فى أن الإمامة الفكرية تمضى دائما فى ظل الإمامة المادية ، ولقد احتفظ المسلمون بالإمامة الفكرية للعالم من القرن الثامن حتى القرن السادس عشر ، لأنهم استطاعوا أن يؤدوا قيمتها نتيجة لقوتهم التجارية وتفوقهم السياسى .

فى تلك الفترة كان العلم اسما لعلم المسلمين ولقد شكا زعيم نصارى قرطبة Alvaro المستعربين النصارى فى أسبانيا Mozarabes لأنهم نسوا لغتهم المسيحية (اللاتينية) فى ذلك الوقت، ومعظم الشباب المسيحى أصحاب الكفاءات العالية ما كانوا ليهتموا إلا باللغة العربية والأدب العربى ، وبعد ذلك وحين اكتشفت أوروبا قوة الآلة ونتج عن ذلك بالتالى تحقيق التفوق الصناعى والرقى الصناعى — حينئذ أفلت زمام الإمامة الفكرية من المسلمين وتناولته أيدى الأمم الغربية .

ومنذ القرن السادس عشر وحتى الحرب العالمية الثانية (١٩٣٩ - ١٩٤٤) ظلت هذه الإمامة فى يد الدول الغربية وبخاصة فى يد بريطانيا ، وفى ذلك الوقت كانت هذه الأمم هى منبع العلوم لجميع طلاب الدنيا ، وقد سلبت الحرب العالمية الثانية الإمامة المادية من أوروبا وسلمتها إلى أمريكا ، ومنذ ذلك الوقت ظلت أمريكا هى الإمام الفكرى للدنيا كلها ، وكل من يشاهد كتب البحث العلمى اليوم يلاحظ أن معظمها لمؤلفين أمريكيين .

لقد أثبتت الأحداث أن سر إمامة الدول الغربية كان يكمن غالبا فى شيئين اثنين ، أولهما : الاستعمار وثانيهما : وقود البترول الرخيص ، ومن المدهش أن دول الشرق كانت هى مصدر حصول الدول الغربية على هذين الشيئين .

بعد الحرب العالمية الثانية ظهرت ظروف قضت على الاستعمار تماما ، والظروف التى ظهرت فى الربع الثالث من القرن الحالى قد هزت أيضا أسس الإمامة الأمريكية ، وفى سنة ١٩٧٣ وقعت حادثتان مهمتان : الانسحاب الأمريكى من حرب فيتنام التى استمرت عشر سنوات ، ثم تخفيض قيمة الدولار ، وكان ذلك علامة على أن السيطرة العسكرية والاقتصادية لم تعد الآن قاصرة على أمريكا . ولقد أثبت الحصر الجزئى لتصدير البترول من جانب الدول العربية ثم ارتفاع أسعار البترول أن البترول امبراطور عالم الصناعة . ومن المحير والمدهش أيضا أن جزءاً كبيراً من مخزون البترول العالمى يكمن داخل المنطقة التى يطلق عليها اسم « الخليج العربى » . هذا بالإضافة إلى أن أمريكا أصيبت بحظ سيىء ؛ فأكبر مشاكل العصر الحاضر أن إنسان اليوم قد فقد ثقته بالحضارة الصناعية ، وهذه الحضارة لم تستطع أن توفر للانسان العماد الحقيقى للحياة ، ومن ناحية أخرى ظهرت

عدة مسائل وقضايا معقدة لم تجد حلولا ؛ فبالإضافة إلى الحروب وإلى التضخم الاقتصادى والتلوث البيئى والجرائم ، والعرى والفحش والفساد والتشتت الأسرى وبقية المشـاكل التى أفرزتها الحضـارة الصناعية ، والتى لا يمكن أن يوجد لها أى حل داخل إطار الحضارة الحالية وجدت ظروف أخرى أصابت الإنسان وابتلته بالشك ، ويقال إن الإنسان فى حاجة إلى نظام جديد يطلعه على هدفه فى الحيـاة ، ويكون عونا له يسد حاجاته الحقيقية • ومع أن هذا الأمر لا يخص أمريكا بصفة أساسية فإن أمريكا — وهى قائدة الحضـارة الصناعية اليوم — تعتبر أعظم وارث لنتائج تلك الظروف السيئة • ويتضح هذا الأمر من الحكاية التالية :

سافر « سوامى ديويكانذر » (١٨٦٣ — ١٩٠٢) إلى أمريكا فى آخر القرن التاسع عشر فلم يجد مجالا للعمل هناك ، إلا أن الدعـاة الهنادكة الآن يقومون بتربية مئات الآلاف من تلاميذهم فى أمريكا ، فقد تأذى الإنسان الغربى الجديد ونفر من حضارته ويحدوه الآن شوق جارف للبحث عن أى جديد ، وحين لا يجد « دين الحق » فهو يمضى خلف أى شىء يتراءى له لامعاً من بعيد •

يذكر المفكر الفرنسى أندريه مالرو (١٩٠١ — ١٩٧٦) أن التطور الأوروبى بدأ يصل أوجه سنة ١٤٥٠ وظل هذا العصر لمدة خمسـمائة سنة ، وفى سنة ١٩٤٩ تولى زمام الصين « ماو » فكان هذا إعلانا لنهاية هذا العصر ، والحضارة الغربية كما بدت بعد نهاية الحضارة الرومانية، فهى هكذا اليوم تفسح المجال لأية حضارة أخرى قادمة (التايم ١٨ ابريل ١٩٧٤) •

وانهدام أمريكا فى المستقبل القريب أمر مؤكد ، وبعدها سيتعرض العالم كله لفراغ فكرى لا توجد حينذاك أمة تملؤه ، ولا شك أن الصين

وروسيا قوتان جديدتان فى العصر الجديد إلا أنهما لا يمكنهما ملء هذا الفراغ ، والسبب الرئيسى لهـذا هو وجـود صراع داخلى فيهما • فالبلاد التى أفسحت المجال لاديكتاتورية الاشـتراكية وضعت سبلها ووسائلها فى مجالات معينة وأصبحت أمما قوية ، وكان هذا هو المانع الذى حـال دون ظهور أى فكر متطور بداخلها ، فيمكن للعلوم التقنية أن تتطور إلا أن تطور العلوم الفكرية يحتاج بالضرورة الى جو ومناخ لا يمكن أن يوجد فى ظل النظام الاشتراكى ، وهذا هو السبب فى أن التطور العلمى فى الصين وروسيا إنما هو تطور مقصور على التطور فى العلوم التقنية ، إذ أن الدولتين لم يخرجا لنا حتى الآن أى عمل علمى فكرى رائع •

ثم تأتى اليابان ، ولا شـك أن اليابان حققت معجزة فى مجـال التطور الصناعى ، إلا أنها بالمقام الأول مجتمع تقنى ، ولا أمل — فى المستقبل البعيد — فى أن تتمكن من الحصول على أية مكانة فكرية ، وهذا هو الحال تقريباً بالنسبة لألمانيا الحالية •

إن انهدام الأمم الغربية واليأس من الحضارة الصناعية ، والفراغ الفكرى بصفة عامة ، كل هذا وصل بحاملى دين الحـق إلى مقـام يجعلهم قادرين — إذا استيقظوا وتنبهوا — على أن يصلوا بالإسلام إلى مكانته الحقيقية الواجبة لينالوا بذلك زمام إمامة الجنس البشرى مرة أخرى •

إن المانع الوحيد الذى يحول بينهم وبين تحقيق هذا الهـدف السامى هو تأخرهم من ناحية امتلاك الوسائل والسبل فى هذا العصر الصناعى • وقد أمدهم الله ووضع تحت أقدامهم ذخائر من البترول يمكن أن تعوض تخلفهم هذا بطريقة مذهلة ، وقد وضحت الأهميـة العالمية للبترول بعد الحرب الرابعـة بين العرب وإسرائيل (اكتوبر

١٩٧٣) ، وليس هناك من شك فى أن الثروة الطبيعية للبترول يمكنها ان تعوض التخلف الصناعى للأمم المسلمة ، وليس هذا فقط بل يمكن أن تصل بهم وسط الظروف الحالية إلى مكانة اذا ما تعلموا معها العمل باتحاد ونظام أمكنهم التحكم فى اقتصاديات العالم كله .

والحقيقة أن الوقت الآن هو أنسب الأوقات التى يمكن أن تبدأ فيها مسيرة سفرنا نحو هذا المستقبل الذى ينتظرنا وينتظرنا فقط .

من اللازم لنا أن نمتلك الأسباب المادية لإحياء الإسلام ، ولكن يجب أن نعترف بأن هناك حقيقة واضحة ومرة تقف حجر عثرة فى طريقنا ، فمنذ ثلاثمائة سنة مضت حين كانت الدول الغربية منهمكة فى الكفاح من أجل الرقى المادى ظلت البلاد الإسلامية غافلة عن التغيرات التى تدور ، وبقيت فى غفلة مستمرة ، وكانت النتيجة أنها تخلفت كثيراً عن الأمم الأخرى على ركب التطور المادى .

وفى السنوات الحالية بدأت تظهر علامات الكفاح فى العالم الإسلامى . إلا أن الهوة بيننا وبين معارضينا قد زادت ، وزدنا تخلفا على تخلفنا ، وحين نصل بعد آلاف المراحل من الكفاح إلى تطور الغرب الصناعى فانه سيكون قد وصل كما يقول ايلون تاملر إلى عصر ما بعد الصناعة Super Industerial age والحقيقة التى يسميها علماء الجغرافيا بالصدفة الجغرافية ، ربما هى تدبير من لدن الله لسد هذا النقص ، فهذه ثروة لا يمكن فقط أن تعوض التخلف الصناعى فى الدول الإسلامية بل يمكن أيضا أن تؤدى الثمن الذى نحتاجه من أجل الكفاح المؤثر لإحياء الإسلام فى العصر الحديث .

وأختتم هذا الفصل بعبارة لمونتجمرى وات : « إن الدنيا تتحرك بسرعة كبيرة لتصبح دنيا واحدة ، ويزداد هذا الاتجاه ، حتى

يوجد فيها اتحاد وتماثل ، ونتيجة لهذا الاتجاه سيأتى يوم يكون فيه للأصول الأخلاقية نظام لا يصبح فقط جوازا عالميا بل ستعترف به الدنيا كلها وسيصبح أمراً مقررا » .

ويدعى المسلمون أن محمداً ﷺ هو نموذج عملى وأخلاقى للجنس البشرى ، يقولون هذا ويدعون الناس ليتمكنوا من أن يقيموا على هذا الرأى حياتهم ، وحتى الآن أمكن لبعض العالم أن يهتم بهذا الأمر ، ولكن نتيجة لقوة الإسلام سيحقق هذا الأمر أهمية كبيرة ، والسؤال الآن هو هل هناك أصول فى حياة محمد ﷺ وفى تعاليمه تستحق أن يتعلمها الناس ، ويمكن أن تقدم لعالم المستقبل نظاما أخلاقيا فريدا ؟

لم يتلق عالم اليوم إجابة نهائية على هذا السؤال . إن ما قاله المسلمون حتى الآن لتدعيم رأيهم فيما يتعلق بمحمد ﷺ هو مجرد بيان أولى ، اطمأن إليه عدد قليل جداً من غير المسلمين . والموضوع لايزال مطروحاً : ما هو رد فعل العالم فيما يتعلق بمحمد ﷺ ؟ إن هذا يتوقف إلى حد ما على ما يفعله مسلمو العصر الحاضر من أجله ، والفرصة أمامهم اليوم متاحة ليعرضوا على بقية بلاد العالم قضيتهم بطريقة أفضل وأسلوب أكمل ، فهل يمكن أن يوضح المسلمون للعالم حياة محمد ﷺ كنموذج إنسانى كامل من أجل إيجاد مثل اخلاقية للعالم المتحد ... لو استطاع المسلمون أن يعرضوا قضيتهم بطريقة أفضل فلا شك أنهم سيجدون من بين النصارى من يصغى ويستمع إليهم (١) .

---

(١) Montgoery Watt
Mohammed as Model for universal morality. p. 323.

خاتمـــة

خلق الله الإنسان حراً ، إلا أن هذه الحرية ليست حرية مطلقة أو بلا حـــدود ؛ فحرية الفرد تنتهى بموته ، ومن حيث المجموع فإن حرية الجنس البشرى بأكمله سوف تنتهى بيوم القيامة ، وبعد نهاية هذه الحياة الدنيا تبدأ حياة أخرى ، وهناك يقسم الناس إلى مجموعتين : مجمـــوعة أقامت حرية حيـــاتها الدنيوية على أسس من مرضاة الله ، وهؤلاء سيدخلون الجنة ، والمجموعة الثانية تضم أولئك الناس الذين قضوا أوقات حريتهم بدون خوف من الله ، وهؤلاء سيحشرون فى جهنم، وهذا تقسيم دائم ، فسوف يظل أهل جهنم يتلظون بنارها ، وسيظل أهل الجنة يرتعون فى نعيمها وروضاتها .

ونتيجة لدقة هذه المسألة فقد وضع الله نظاماً ، وذلك أنه حين خلق الإنسان ارسل إليه الانبياء والمرسلين ، فأخرج من كل بلدة ومن كل نسل أنبياءهم ، أنزل عليهم الوحى ، وأنزل عليهم الكتاب ، حتى يقوموا بإرشاد الناس إلى حقيقة الحياة بوضوح وصراحة ، وهـــذه السلسلة ظلت تمضى من آدم حتى المسيح حتى قرر رب العبـــاد أن يرسل آخر رسله فأنزل عليه آخر الكتب السماوية وحفظه إلى الأبد ، وهكذا بدأ عهد جديد من تاريخ البشرية مع القرن الســـابع الميلادى فقد وجد كتاب الله (القرآن الكريم) بحالته الآمنة المصونة لأنه لن يأتى نبى آخر يبلغ الناس دين الحق .

ولكن ماذا أعد الله للانسان الذى يولد بعد ختم النبوة ثم يموت بعد أن يولد ، ماذا فعل الله حتى يطلعه على الدين الحق ؟

الجواب هو « الأمة المحمدية » ؛ فآخر رســـل الله قد أشهد أمته على الدين ، ومن هنا أصبح من مسئولية الأمة المحمدية دائما أن تكون

شاهدة أمام جميع الخلق الذين يولدون حتى يوم القيامة حين يعرض الناس أمام الميزان وتقف هذه الأمة حينذاك وتقول : لقد بلغنا رسالة الحق إلى هؤلاء الناس ، ورغم هذا فأولئك الذين لم يتبعوا رسالة الحق يتحملون وزرهم وتبعة عملهم .

ذلك هو العمل الذى عبر عنه القرآن بالدعوة إلى الله ، ومسئولية الأمة المحمدية النهوض بهذا العمل ، ولا يمكن أن تتخلص من تبعة هذه المهمة بأى حال من الأحوال ، ولا يمكن أن ينقذها من التقصير فى هذه المسئولية أمام الله أى عذر أو سبب ، فإذا لم تنهض الأمة المحمدية بأداء هذه المهمة ، وإذا لم تحذر أمم العالم من اليوم القادم ، فسوف ينالها العذاب فى الآخرة شأنها فى ذلك شأن الأمم الأخرى ، وإذا كان ذنب الأمم الأخرى هو أنها لم تتبع الحياة القرآنية فإن ذنب الأمة المحمدية سيكون فى إحجامها عن إرشاد أمم العالم إلى اتباع مرضاة الله ، والذنب الثانى لا يقل عن الأول بأى حال من الأحوال .

والذنب الذى تحمل وزره اليهود كان لأنهم حملوا الأمانة الإلهية ثم أخفوها ولم يطلعوا الناس عليها ، فالخطأ الذى ارتكبه حملة التوراة إذا ارتكبه حملة القرآن فلن يعاملهم الله إلا بنفس المعاملة التى عامل بها حملة التوراة ، وسوف يتعرضون لنفس العقوبة التى قررها القانون الإلهى على من سبقوهم ، فليست هناك علاقة خاصة أو محاباة لأمة من الأمم عند الله ، ولا يجب أن تعتقد جماعة ما أن لها مع الله علاقة خاصة أو علاقة محاباة .

وعلى المسلمين اليوم أن يؤدوا فريضة الدعوة أمام أهل الدنيا ، تلك الفريضة التى أداها الرسل فى زمانهم ، أمام أولئك الناس الذين عاشوا فى عصورهم ، وهذه الفريضة هى إبلاغ رسالة القرآن إلى الناس ، وكما ان المال بدون دفع زكاته يصبح حراماً للمسلم فهكذا

لا يجوز لنا أن يكون لنا من حياتنا أى نصيب بدون أداء هذه الفريضة ولن ننال السرور ولن يكون نعيمنا نعيما ولن تكون عافيتنا عافية مادمنا لا نقوم بالشهادة أمام العالمين أو على الأقل نشغل أنفسنا بما يلى :

* أن نقوم بترجمة القرآن الكريم على أعلى مستوى إلى جميع لغات العالم .

* أن نعد كتبا بأسلوب حديث عن حياة الرسول وأصحابه وأن نضعها أمام جميع أهل الدنيا .

* أن نعد ترجمات لأحاديث الرسول ﷺ ، إلى لغات العالم .

* إعداد مؤلفات عن تاريخ الإسلام (لا عن تاريخ فتوحات الإسلام) ونشرها على مستوى واسع .

* تأييد وتعضيد الإسلام بلغة جديدة وبأسلوب عصرى .

* اتباع جميع الأساليب العملية وإنشاء هيئات معاونة تكون لازمة لإبلاغ الناس رسالة الحق بطريقة مؤثرة .

وهذا العمل ببساطة ليس مجرد كتابة وخطابة ، بل هو عمل له مغزاه وهو يعنى بعبارة أخرى « النيابة الإلهية » ومن هنا يجب إعطاؤه القدر الكافى من الاهتمام ، ويجب أن يكون على قدر من الاتزان يتساوى مع قدر مبلغى أعظم رسالة ، على أن يتضن الأمر الرغبة فى الخير وسعة الصدر وما يستلزمها من أمور أخرى متوقعة من حاملى هذه المسئولية الجسيمة ، ويلزم أيضا أن نخاف ونرتعد من جهنم التى نخيف بها الآخرين وأن نحرص على الجنة التى ندعو إليها الآخرين ولا نجعل من الدعوة والتبليغ مسخرة ، إذ يقوم بها من هو غير مؤهل لفهمها .

وهناك قضية هامة فى تاريخنا الحديث ، فخلال القرنين الماضيين تقريبا ظهرت حركات كبرى كثيرة فى العالم الإسلامى ، نالت فرصا عديدة تمكنها من العمل . إلا أن نتائج محاولاتها وصلت حقيقة إلى درجة الصفر إن لم تكن أدنى من ذلك ، وهذا الفشل حدث رغم أنها وضعت لتنفيذ برنامجها أحسن الوسائل ، فقد توفر لها العلم ، والقدسية والإخلاص ، والشخصية والتضحية والعدة والعتاد ورأس المال ، وجميع السبل بقدر وفير ، إلا أن ملاحظة نتائج محاولاتها — التى كانت كالطوفان — يدلنا على أن هذه الحركات قادت قافلة الأمة الإسلامية إلى الوراء .

وأولئك الناس الذين لا يؤمنون بالله أو الذين لا يؤمنون به حياً فعالا لا يمكنهم أن يحركوا بأنفسهم ويوجهوا أفكارهم هذه ، إلا أن الإيمان بالله يستلزم أن نفهم هذه الحقيقة على أساس سنة الله وأن نتعامل معها معاملة إلهية مباشرة .

وحين نفكر من هذا المنطلق ، وحين نجعل القرآن هادينا فى هذا الأمر يثبت لنا بدون شك أن فشل حركاتنا سببه الوحيد هو أن هؤلاء الذين تزعموا هذه الحركات لم يقوموا بالواجب الأساسى الذى وعد الله على أساسه أمته المسلمة بالنصر الاجتماعى ؛ فقد اشترط الله علينا لينصرنا أن ننصره ، أى أن مهمتنا لا يجب أن تقوم على أساس من المطالب والاحتجاجات من أجل تحقيق حقوق دنيوية بل هى مهمة قائمة على « طريق التعريف بالآخرة » وحركتنا هذه إنما هى حركة دعوة إلى الحق لا حركة سياسية ولا حركة اقتصادية .

تلك هى أسس المشكلة التى جعلت من جميع محاولاتنا مصداقا لقوله تعالى « **حبطت أعمالهم** » ، لقد قمنا بحركات تهدف إلى

تحقيق سياسة دنيوية ومن هنا لم نتمكن من الفوز بالنصر السماوى .

فإذا أردنا اليوم أن ننجو من الدمار الذى أصابنا فإن الطريق الأوحد لهذا هو أن نصبح بحق دعاة للحق أمام أمم العالم الأخرى ، وأن نترك الصراع السياسى والاقتصـــادى ، وأن نجعل من قضية الجنـــة والنار قضيتنا الأساسية وأن نطلع عليها الناس ، فهــذا هو السبيل الوحيد للفوز بنصر الله ، وطالما لم نحصل على نصر الله فلن نتمكن من الحصول على أى نجاح من أى نوع لا فى الدنيا ولا فى الآخرة .

إن عظمة أهل الإســـلام وفوزهم إنمـــا هى كما ورد صراحة فى القرآن الكريم « إنعام إلهى » ، وهذا أمر معروف ، فالإنعام أو الجائزة إنما تكون مقابل عمل خاص ، إذن ما هو العمل الذى أداه أهل الإسلام ليستحقوا به هذا الإنعام أو هذه الجائزة ؟

إن هذا العمل الذى يجب أن يؤديه أهل الإسلام هو فى الواقع هدف بعثة الأمة المحمدية ، أى الشهادة أمام العالمين وذلك بواسطة التبليغ ورسم الطريق أمام الناس إلى مرضاة الله حتى لا تكون هناك حجة فى الآخرة ، هذا هو العمل الذى يستحق به المسلمون إنعـــام الله ، فإن لم نؤد هذا العمل المطلوب ، فلا يمكن أن نأمل فى استحقاقنا لهذا الإنعام الإلهى نظير قيـــامنا بأية حركة أو ثورة ، فأية حركة أو ثورة لا يكون هذا هدفها إنما تستحق العقاب لا الثواب .

تم بحمد الله وتوفيقه

من

مطبوعات دار الصحوة

١ ـ عصر الإلحاد

تأليف محمد تقى الأمينى

٢ ـ ثقافة المسلم

د/ عبد الحليم عويس

٣ ـ الوقت فى حياة المسلم

د/ يوسف القرضاوى

٤ ـ الرسول والعلم

د/ يوسف القرضاوى

٥ ـ صلاح الأمة على هدى السنة

د/ محمد محمد الشريف

٦ ـ مؤشرات حول الحضارة الإسلامية

دكتور / عماد الدين خليل

٧ ـ الدولة والسلطة فى الإسلام

دكتور / محمد معروف الدوليبى

٨ ــ قضية البعث الإسلامى « المنهج والشروط »

تأليف / وحيد الدين خان

٩ ــ أزمة المثقفين تجاه الإسلام

دكتور / محسن عبد الحميد

١٠ ــ المختار فى الرد على النصارى للجاحظ

لأبى عثمان عمرو بن بحر الجاحظ

مع دراسة تحليلية تقويمية

تحقيق ودراسة دكتور / محمد عبدالله الشرقاوى

١١ ــ من معالم الحق

فى كفاحنا الإسلامى الحديث / محمد الغزالى

١٢ ــ الإسلام كما ينبغى أن نؤمن به

د/ عبد الحليم عويس

١٣ ــ ضوء السارى إلى معرفة رؤية البارى عز وجل

شهاب الدين أبو محمد عبد الرحمن

الشافعى المعروف بأبى شامه رحمه الله

تحقيق دكتور / أحمد عبد الرحمن الشريف

١٤ ــ واقعنا ومستقبلنا فى ضوء الإسلام

تأليف / وحيد الدين خان

مراجعة : د/ عبد الحليم عويس

١٥ ـ **الوجيز فى الاقتصاد الإسلامى**

دكتور / محمد شوقى الفنجرى

١٦ ـ **رسائل الأعلام**

إخراج وتقـديم :

محمد الرابع الحسنى الندوى

١٧ ـ **أمهـات المؤمنين**

أحمد حسين شرف الدين

١٨ ـ **أحاديث صريحة مع إخواننا العرب والمسلمين**

أبو الحسن الندوى

١٩ ـ **نفحات الإيمان بين صنعاء وعمان**

أبو الحسنى الندوى

٢٠ ـ **العالم الإسلامى اليوم**

محمـود شـاكر

٢١ ـ **الأدب الإسلامى وصلته بالحياة**

مع نماذج من صدر الإسلام

محمد الرابع الحسنى الندوى

٢٢ ـ **شريعة الإسلام فى الجهاد** والعلاقات الدولية

أبو الأعلى المؤدودى

٢٣ ـ **سر تأخر العرب والمسلمين**

محمـد الغـزالى

رقم الايداع ١٩٨٤/٥٩٣٠
الترقيم الدولى ٧ ـ ٠١ ـ ١٤٣٠ ـ ٩٧٧

دار الصحوة ... وهذا الكتاب

لم تقم دار الصحوة لتكون مجرد دار نشر تجارية ، بل قامت لتحقق هدفاً إسلامياً بالدرجة الأولى ... وهذا الهدف - بإيجاز - هو الأخذ بيد المسلمين لفهم الإسلام فهماً حقيقياً نابعاً من مصادره الأصلية ... ولفهم التحديات التى تواجه المسلمين ...

ولفهم الأسلوب الأمثل والأقوم فى مواجهة التحديات .

وأخيراً ... لقد قامت دار الصحوة لترفع من مستوى الإنسان المسلم روحياً وثقافياً ... حتى يكون منسوب المسلم الفكرى والأخلاق أعلى من منسوب الحضارة الحديثة ... وبالتالى يكون المسلم أهلاً لقيادة الحضارة وفق سنة الله الكونية التى لا تمنح قيادة سفينة الحق إلا للراشدين النابهين المخلصين ... ولن تمنحها أبداً لغيرهم ...

وهذا الكتاب ... خطوة من خطوات دار الصحوة ... فى هذا الطريق .

دار الصحوة

حدائق حلوان بجوار عمارات المهندسين

شارع جمال عبد الناصر

القاهرة